

فوّاز طرابلسي
حرير وحديد
من جبل لبنان الى قناة السويس
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

فـواز طرابـلسي

حرير وحديد

من جبل لبنان إلى قناة السويس



Fawwaz Traboulsi

SILK and IRON

From Mount Lebanon to the Suez Canal

First Published in January 2013

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 551 - 8

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٣

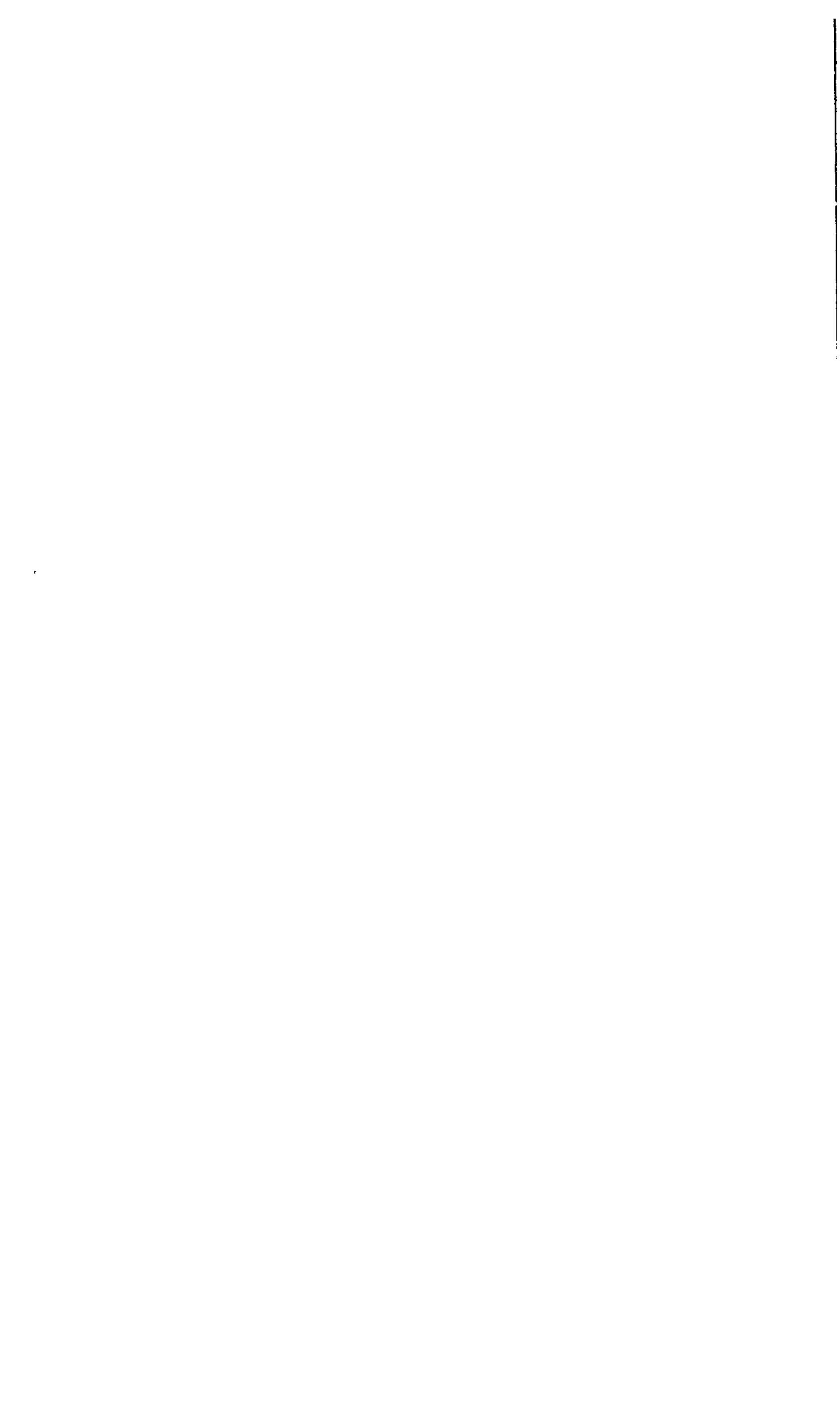
لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: جنى طرابلسي

الإهداء

الى نوال وجنى

وإلى ذكرى ادوارد سعيد



المحتويات



جميع شخصيات هذا الكتاب حقيقية ومثلها الأحداث والمواقع والتطورات بحدود ما أمكن التوصل اليه من معارفنا التاريخية المسنودة. لعب التخييل دوره في ثلاثة تأليفات فقط هي حلم الصبياني المعدني ورسالة لويز برونيت الى شقيقتها والحوار بين زوجة شعيا علمان وطانيوس شاهين

الفصل الأول

نبوءات

مشهد رعوي

أفاقت مذعورة. دهمتها غفوة. نعجتها ترعى أمامها في ذلك اليوم البهيّ من أيار والسماء صافية زرقاء مثل سطح البحر. تنّبهت انها استسلمت لوَسَنٍ تغلب عليها لبرهات معدودات.

ـ باسم الصليب!

صاحت، وأخذت ترسم إشارة الصليب على صدرها مرة، مرتين، ثلاث مرات.

شعرت بنقرشة في عُبّها. ومسّتها قشعريرة سرت في أنحاء بدنها ما لبثت أن انزلقت إلى عقدة السُرّة معتليةً البطن الحليبي. تحركتْ يد نحو ذلك الموضع. وسرعان ما انكمشت. نفضتْ رأسها كأنما لتصحو من حلم وانفلتت منها صيحة ثانية:

ـ فقّسوا. فقّسوا.

فكّت أزرار القميص على عجل وانزلق بصرها إلى ما بين النهدين. من خروم كيس الشاش الصغير المتدلي من عنقها أبصرت الدويدات البيض تَمور داخله. قاومت رغبة عارمة في أن تمسك بنهديَها المنتصبين وتدلكهما دلكاً لإدامة تلك اللذة الغامضة أو لإطفائها.

بلمحة تراءى لها مشهد القدّاس. أهالي القرية يحمل كل منهم عبوة معدنية. يضعونها على المذبح والخوري يوحنا يقيم عليها الصلاة. وفي نهاية القدّاس، يرشّ العبوات المعدنية بالماء المقدسة مستنزلاً عليها حماية السيدة العذراء.

أتت الحركة المعاكسة. أعادت رسم إشارة الصليب على صدرها ثلاثاً ثم كوّرت يدها اليمين في قبضة ضمّت فوقها الإبهام وحملت إبهامها إلى فمها وقبّلت رأسه عند الظفر ثم نَتَرتْ قبضتها بعيداً عن شفتيها:

ـ آمين. تسلمي لي يا عذرا. يا أم الربّ.

هرعت صوب البيت تجرّ النعجة وراءها. في الطريق، مَشَقَتْ بضعة أغصان من شجرة التوت الكبيرة أمام البيت. دلفت إلى داخل المنزل نحو رفّ عليه صينية من القصب المضفور. عرّت الأغصان من ورقها الكبير. مشحت كل ورقة بيدها لتكشح عنها الرطوبة. أمس بالليل تساقط الندى. والندى يؤذي. ثم فكت رباط الكيس من حول عنقها وفتحت الكيس وأفرغت محتوياته

فوق الأوراق. وأخذت تراقب الدويدات البيضاء المنمنمة تتلوى فوقها.

بدأ موسم الحرير في جبل لبنان.

١٨٠٦ ـ على الساحل الإسباني

كان الضابط البريطاني ملقى على الشاطئ الإسباني. شعره الأسود مشعث وعيناه اللوزيتان زائغتان. وفي خاصرته جرح غائر. يحشرج ويتمتم:

«هِسْتِر. هِستر. بلِّغ تحياتي لهستر».

لم يكن الضابط مُهَسْتِراً. ولا هو أيّ ضابط. إنه السير جون مور، حامل وسام «باث» للبسالة والأعمال الخارقة في الحرب لتميّزه في معارك الإمبراطورية البريطانية ضد نابليون في مصر وإيطاليا. هو هنا قائد الحملة العسكرية البريطانية في إسبانيا لدعم ثورة الإسبان ضد الاحتلال الفرنسي. قاتلت قواته ببسالة دعماً للثورة الإسبانية التحررية ولكنها ما لبثت أن أخذت تتراجع أمام زحف القوات النابليونية. سقط السير جون جريحاً وهو يحمي انسحاب جنوده. غير أنّ معظم جنوده تمكنوا من الإبحار نحو بلادهم. وظل ينازع ثلاث ساعات وهو يتمتم «هستر، هستر» ويبلغ أخاها تحياته إلى هستر قبل أن يسلم الروح.

١٨٠٦ ـ لندن: هستر والخال

لم يكن الضابط أي ضابط ولا هستر أي هستر. الفتاة

الأرستقراطية ذات الثلاثين ربيعاً هي ابنة اللورد تشارلز، ثالث «إرل» لأسرة ستانهوب النبيلة. تيتمت من الأب ولها من العمر ٢٧ سنة. حطّم أبوها المتمرّد على طبقة النبلاء درع العائلة وبدّد ثروته تأييداً للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. بعد سنة على وفاة والدها، انقلب وضع الصبيّة الأرستقراطية المفقرة رأساً على عقب. صارت المضيفة الرسمية لخالها، رئيس وزراء إنكلترا، السير وليام پِتّ الثاني خلال ولايته في السنوات ١٧٨٩-١٧٩٣ وانتقلت للسكن معه في قصر «والمر».

أغوت هستر النبالة البريطانية وهي تؤدي مهمة المضيفة الأنيقة والراقية في دارة خالها. اشتهرت بأنها فارسة متمكنة ومروّضة أحصنة ماهرة. سحرت الرجال. مع أنه يصعب القول إنها جميلة بمقاييس الجمال العادية، إلا أنها فارعة، مهيبة، بشرتها مثل المرمر يصعب عليك تمييز عقد اللؤلؤ على جيدها من البشرة، وحدهما الشفتان تتمايزان بلونهما القرمزي. جمعت هستر قوة الإرادة والاستقلال إلى حلاوة الحديث والفكاهة والتسلية.

مَن لا يعرف وليام پتّ لا يعرف شيئاً عن بريطانيا والامبراطورية التي لا تغرب عن أراضيها الشمس. دخل الحياة السياسية وزيراً للمال عن الحزب الليبرالي، وهو أول مسؤول بريطاني طبّق تعاليم آدم سميث عن حرية المتجر. والأهم أنه أحد بناة الإمبراطورية الذي حجّم صلاحيات شركة الهند الشرقية في حكم الهند لصالح الدولة البريطانية. والحديث لا ينتهي عن

جرأة الرجل الذي أسهم أيما إسهام في توحيد بريطانيا باستيعاب اسكتلندا وإرلندا في حومة المملكة المتحدة. أفاد من جنون الملك جورج الثالث ليعزّز الصلاحيات الدستورية لرئيس الوزراء وقد تسلّم ذلك المنصب في فترة من أحرج الفترات التي عاشتها بريطانيا في تاريخها وقد باتت مهدّدة في استقلالها ونظامها نفسه وتقاليدها عند اندلاع الثورة العامّيّة الجمهورية في فرنسا عام ١٧٨٩.

اتّخذ پتّ أول الأمر موقفاً حيادياً من الثورة وهو الليبرالي الذي لا يكنّ للعهد الملكي الفرنسي كبير إعجاب. لكن تغيّر الأمر كليّاً عندما سعى ثوار باريس إلى نشر الثورة على القارة الأوروبية بأسرها. سارع پت إلى إعلان القطيعة مع فرنسا. ومنذ ذلك الحين، كرّس رئيس الوزراء الشاب كل جهوده لاحتواء آثار الثورة الفرنسية داخلياً وتأمين قيادة بريطانيا للحلف الأوروبي المعادي لفرنسا الثورية.

راهن پت على تعزيز القدرات البحرية على اعتبارها عنصر القوة الأساسي الذي تملكه بريطانيا للتفوّق على منافستها عبر القنال، القنال الذي يسمّيه الإنكليز «القنال الإنكليزي» والفرنساويون «بحر المانش». وفاز رئيس الوزراء الشاب بِرهانه الفوز العظيم، فتوّج حياته السياسية والعسكرية بالانتصار الأسطوري الذي أحرزه الأسطول البريطاني، بقيادة الأميرال نلسون، على الأسطولين الفرنسي والإسباني مجتمعين في معركة «الطرف الأغرّ». بعدها صار الأسطول البريطاني سيّد البحار بلا منازع.

وتكرّست هيمنة بريطانيا البحرية بالنشيد الذي مطلعه «سودي بريطانيا، سودي، فوق الأمواج».

وتشاء الأقدار أن لا يعيش قاهر نابليون طويلاً لينعم بانتصاره. توفي بعد أشهر قليلة في العام ١٨٠٦ وهو في ميعان الشباب وعزّ العطاء ولمّا يتجاوز السابعة والأربعين من العمر. أصيب پتّ بمرض خبيث غريب حار فيه كبار أطباء المملكة والنطاسين، إذ كان الرجل يعجز عن الاحتفاظ بالطعام في معدته والأمعاء. هزل ومات. طلب في وصيته تأمين علاوة متواضعة لابنة أخته المفقرة تعيش عليها. لبّى البرلمان وزاد بتخصيص ١٢٠٠ جنيه استرليني لهستر، وهو مبلغ محترم نسبة إلى ذلك الزمن.

لندن: النبوءة

خلال ولاية خالها، وقعت حادثة غيّرت مجرى حياة هستر. ذاع في لندن المجتمع المخملي صيت عرّاف يدعى براذرز، كان ملازماً في البحرية الملكية وغبّ عودته إلى لندن أخذ يهلوس وتظهر له رؤى غريبة ويسمع أصواتاً تقول له إنه مرسل من عند الله عزّ وجلّ. صار العرّاف مقصد نساء الأرستقراطية البريطانية. لكنه ما لبث أن اعتقل بتهمة الدجل والاحتيال. ولما كان الرجل يعرف الكثير عن أسرار المملكة والإمبراطورية، وفضائح الطبقة الحاكمة، قرر وليام بتّ أن يتولى التحقيق معه بنفسه. خلال التحقيق، فاجأ براذرز رئيس الوزراء بإلحاحه على

أن يقابل ابنة أخته هستر للحال لأنه يحمل لها نبأ هاماً. تأثر پتّ بالخبر، وبدلاً من أن يحكم على براذرز بالسجن أمر بإيداعه المصح العقلي.

ذهبت هستر إلى براذرز فأنبأها بأنّها متلبّسة الشمس سوف تقود شعوباً ذات يوم وتعيش سبع سنوات في الصحراء ثم تنصّب ملكة على اليهود. وختم العراف نبوءته بسؤال مُلغّز:

ـ تراك سوف تكونين أنثى المسيح؟

أغواها الحديث عن الصحراء وأن تصير ملكة على اليهود. لكنها لم تفقه سؤاله الأخير. سألت:

ـ وهل للمسيح أنثى؟

لكل رجل أنثى تنتظر، سيدتي.

زاد جوابه في إلغاز النبوءة.

مهما يكن، انصرفت هستر لإعداد نفسها لأن تكون ملكة على الصحراء. جاء من روى لها قصة زنوبيا، ملكة تدمر. أخذت النبيلة البريطانية تقرأ عن الملكة الصحراوية. تماهت معها وعقدت العزم على أن تستعيد مملكة زنوبيا.

عندما توفي خالها، كانت هستر لا تزال تعاني من الإحباط جرّاء قصة هجران. لم تكن قصتها بسيطة مع اللورد غرانفيل ليفيسون غوير، فالرجل متورط مع عشيقة أرستقراطية متزوجة

أنجب منها ولدين غير شرعيين، فلم تدم علاقته بهستر طويلاً. طلب تعيينه سفيراً في سان بطرسبرغ وغادر. سرت شائعات بأن «الليدي» حاولت الانتحار. لكنها فاجأت المجتمع المخملي بإعلان خطبتها على عضو مجلس العموم وليام نويل هيل. انفسخت الخطبة بالسرعة التي انعقدت فيها. والخبر؟ وقعت «الليدي» في غرام الضابط الوسيم المقدام، السير جون مور.

كانت علاقتها بمور مثل سائر علاقاتها: قصيرة ومتقطعة. التقيا قبل أنْ يغادر في حملته الإسبانية بأشهر قليلة. وكان شقيق هستر، تشارلز، ساعده الأيمن. وقعت هستر بغرام مور بسرعة، فيما قيل إنه كان ميّالاً إلى أخرى. وعندما همّ بالمغادرة، أعطته أحد أختامها ذخراً.

كانت مصيبة هستر بمور مزدوجة. سقط أخوها تشارلز في الحملة الإسبانية ذاتها. لمّا وردها خبر موت مور، صرخت: «حبيبي يسوع! خذني. خذني أنا بدلاً منه. خذني أنا أيضاً! لن أطيق العيش بدونه».

واحتفظت بقفازه المغطّى بدمه إلى آخر أيامها.

بعد مقتل مور، حسمت هستر أمرها وعزمت على المغادرة إلى الشرق. «الشرق في دمي»، قالت.

وكان لهستر آنذاك من العمر ٣٣ سنة، عمر المسيح عندما مات على الصليب.

آذار ١٨١٠ ـ اللِيدي إلى الشرق

غادرت الليدي هستر الجزيرة من ميناء بورتسموث باتجاه الشرق. رافقها في الرحلة طبيبها الخاص الدكتور ميريون ووصيفتها الآنسة وليامز التي كانت سابقاً تخدم في قصر خالها رئيس الوزراء. أمضى الوفد أسبوعين في جبل طارق قبل الانتقال إلى إيطاليا. في صقلية، انضم إلى الرحلة شابّ بريطاني له من العمر عشرون عاماً يُدعى مايكل بروس. ما لبث بروس أن صار عشيق هستر المعلن، ما أثار غيرة الدكتور ميريون. كان يريد الدور لنفسه.

في اليونان وإيطاليا التقت هستر أصدقاء بريطانيين شاركوها التمرّد على طبقتهم والهوس الرومنطيقي بالشرق. في إيطاليا، استقرّ الشاعر بيرسي شيللي، وهو ابن بارونيت نبذه أبوه لمجاهرته بالإلحاد ودعوته إلى الثورة في إرلندة ضد الحكم البريطاني. حلم شيللي بثورة في الشرق تحرر الإنسانية وألّف لهذا الغرض ديوانه الشعري بعنوان «ثورة الإسلام: رؤية للقرن التاسع عشر» (١٨١٧). ومعلومك أن القصيدة الملحمية من اثني عشر فصلاً لا إسلام فيها إلا من حيث إنها رواية لانقلاب سلمي ضد السلطان العثماني، غير أن موضوعها هو الدين عموماً والتبشير بالإلحاد. وكان شيللي قد افتتح نشاطه الكتابي بمؤلف بعنوان «في ضرورة الإلحاد»، وهو بعد طالب في كمبردج، استحق عليه الطرد من الجامعة.

هربت مع شيللي إلى إيطاليا ماري ولستونكرافت غُدوين ولمّا

تبلغ الثامنة عشرة من العمر، ومعها أختها غير الشقيقة جين كلير كليرمونت وعمرها ١٥ سنة. وماري هي ابنة الفيلسوف السياسي الملحد وليام غُدوِين الذي كان شيللي أحد مريديه. تعارف العاشقان خلال تردد شيللي على منزل ماري وتعاشقا وهربا معاً فيما زوجة شيللي حبلى بطفله. ولاكت الألسن أن بيرسي وماري وأختها غير الشقيقة يعيشون علاقة غرامية وجنسية ثالوثية. كان ذلك عام ١٨١٤.

عندما وصلت السفينه التي تقلّ هستر إلى ميناء أثينا، شوهد رجل يغطس في البحر ويتجه سباحة نحو السفينه. إنه صديقها اللورد بايرون الشاعر الذي قال عنها إنها «أعظم نساء الكون». وبايرون، النبيل الأعرج مهووس بكل ما هو إغريقي، وخصوصاً بالغلمان المرد. استقبل بايرون صديقته هستر يرافقه نيكولو الغلام الإيطالي الغاوي.

وقصة بايرون مثلها مثل قصة صديقه شيللي وصديقته هستر، قصة أرستقراطي متمرّد على طبقته. سيم لورداً وهو في العاشرة من عمره عند وفاة والده، فأثار الفضيحة تلو الأخرى في مجلس اللوردات. ومن فضائحه دفاعه عن «اللادايتس» وهم صنف من العمال والحرفيين الثائرين ضد الحضارة الصناعية، دأبهم تخريب الآلات في المعامل. ومثله مثل صديقيه شيللي وهستر، سئم بايرون الحياة الأرستقراطية، فتخلى عن مقعده في مجلس اللوردات وغادر إلى الشرق. تنقّل بين تركيا واليونان وعاش لفترة مع صديقه شيللي في إيطاليا.

عند وصولها الأراضي العثمانية، قررت هستر ارتداء ثياب الرجال. استهوتها الآستانة إلى درجة قرّرت معها الاستقرار فيها. استأجرت بيتاً على ضفاف البوسفور. سعت إلى كسب ودّ القنصل الفرنسي في اسطنبول لتستحصل منه على تأشيرة تمكّنها من السفر إلى باريس. هي فكرة شيطانية استحوذت عليها. خططت لأن تتسلّل إلى داخل حاشية نابليون، لتدرس نوابض شخصية الامبراطور وطريقة تشغيل ذهنه، فتعود من ثمّ إلى إنكلترا حيث تضع ما جمعته من معلومات في خدمة حملة لإسقاط الإمبراطور الفرنسي عن عرشه. كشف الوزير البريطاني في اسطنبول مشروعها فأحبط مسعاها، فلم يبقَ للّيدي غير أن تسعى إلى تحقيق مشروعها الشرقي.

١٨١٠ : الطريق إلى دمشق

حطّت هستر في الإسكندرية بعد رحلة بحرية استغرقت شهرين. تحطّمت الباخرة التي أقلّتها على الصخور على مقربة من رودس ونجا الركّاب بأعجوبة. وكان على الليدي والوفد المرافق الانتظار لأسابيع في طاحونة تعجّ بالجرذان قبل أن أتاهم مركب جديد من أثينا.

في الإسكندرية، حظيت الست الإنكليزية بمقابلة محمد علي باشا، خديوي مصر. أعجبت بإنجازاته وتكررت زياراتها له، وبادلها الباشا الإعجاب وأهدى لها جوادين عربيين أصيلين. ومن مصر، سلكت الليدي طريق فلسطين إلى يافا ومنها إلى

القدس حيث كرّمها حاكم المدينة تكريماً استثنائياً. أمر بأن يفتح قبر المسيح خصيصاً لتزوره الليدي البريطانية. ومن القدس صعدت هستر شمالاً وعرّجت على عكا، حيث استقبلها الوالي سليمان باشا بمثل حفاوة حاكم القدس وأهدى لها فرساً غبراء. وكان سليمان باشا هذا وزيراً عند أحمد باشا الجزار، والي عكا الرهيب. وحدث أن غضب الجزار عليه، بعد أن وعده سليمان بأن يكسب له المال الوفير وأخلّ بوعده، فوضعه في فرن ولم يخرجه منه إلا ونصفه محروق.

من عكا، مضت القافلة نحو جبل لبنان والليدي مدفوعة بفضول كبير للتعرّف إلى جماعة الموحدين الدروز. في صيدا نزلت وحاشيتها في خان الإفرنج. وما هي إلا ساعات حتى توارت الليدي الإنكليزية خلف قوام ذكوري. ومنذ ذلك الحين أخذت ترتدي أزياء الرجال الشرقيين وتحلق شعر رأسها مثلهم وتدخّن النارجيلة وتشتم مثل الجمّالين باللغات الثلاث. في صيدا، تلقّت دعوة من الأمير بشير شهاب الثاني، الأمير الحاكم على جبل لبنان، وزعيم الدروز مع أنه قد تنصرن. كان الدكتور ميرون متردداً في قبول الزيارة. قال لها إنّ الرجل معروف ببطشه، يسمّونه «الأمير الأحمر» لدمويته. سمل أعين أبناء اخوته الثلاثة وخنق مدبّره المسيحي. لكنه استطرد قائلاً: «ولكنها أمور طبيعية في هذه المنطقة من العالم». لم تأبه الليدي لتحفظات طبيبها. قبلت الدعوة.

سارت إلى «الأمير الأحمر» في قصره ببيت الدين في قافلة بعثها

إليها ضمّت ١٢ جملاً و٢٥ بغلاً وثمانية أحصنة ومفرزة من حرس الأمير الخاص قوامها سبعة عساكر. أكرم الأمير وفادتها وأهدى لها فرساً ونحر لها الخرفان، ومعروف أنّ أهالي الجبل يسلخون جلد الخروف ويأكلون لحمه نيئاً. أعجبت الأرستقراطية البريطانية بذاك التقليد وأخذت تمارسه. وبعد ضيافة الأمير، انتقلت الليدي إلى ضيافة الشيخ بشير جنبلاط، في قصره بالمختارة، وهو كبير مشايخ الدروز وأوفرهم ثروة، ثم زارت بلدة دير القمر وأعجبت بتنوع وإتقان منتجاتها من أنسجة حريرية وقطنية، وقُدّم لها من العِبِي العربية أفخرها، وجالت على محترفات القرداحيين والخياطين وزارت معامل الصابون وحلالات الفيالج.

وهي بعد في جبل لبنان، جاء من يحذّر «الليدي» من الذهاب إلى دمشق المهدَّدة بهجمات تشنّها قبائل قادمة من صحراء الجزيرة العربية تدين بمذهب سنّي صارم يسمّى «الوهابية». لم تأبه هستر بالتحذير. أرسلت إلى والي المدينة تطلب الإذن بزيارة المدينة ولقائه. جاءتها الدعوة للفور.

سارت هستر إلى دمشق في شهر رمضان. سلكت طريق دمشق على خطى بولس الرسول. ودخلتها دخولاً فضائحياً: سافرة على صهوة فرسها. رفضت أن تتبرقع كما العادة الواجبة على النساء في ذلك الزمان. نزلت في حارة النصارى. ظنّ الدمشقيون الذين خرجوا للتفرّج على المنظر في الطريق المؤدية إلى حارة النصارى أن امرأة أجنبية تتحدّى الحظر على

المسيحيين دخول المدينة على الفرس، وهي فوق ذلك سافرة، لا بد أن تكون مخبّلة. فلما مرّت بهم وقفوا مشدوهين وكثير منهم أشاح بنظره عنها. أما هي فسارت بينهم بكل بساطة تحيّيهم بانحناءة رأس بسيطة وإن تكن متعالية.

ملكة على الصحراء

في دمشق أخذت هستر تعدّ العدّة للاحتفال الكبير. استدعت القنصل البريطاني وأجبرته على أن ينظّم رحلتها إلى تدمر. واكبها عدد من مشايخ البدو على رأس قافلة ضمّت الدكتور ميرون وعشيقها مايكل بروس، وقد عاد للالتحاق بها، والسيدة فراي وأربعين جملاً محملين بالمؤونة والهدايا، ورافقها عشرون فارساً ودليلان من أبناء الصحراء ومترجمون وطبّاخ مملوكي وسيّاس خيل مصريون وعبيد الست والإماء وخدمها والسقّائون.

في سهول حماه، نزلت القافلة في مضارب مهنّا الفضل، شيخ مشايخ الحَسَنة، وهي فرع من قبيلة عْنِزَة يستطيع أن يحشد ٤٠ ألف بندقية. كان مهنّا في السبعينيات من عمره، قصير القامة، مقوّس الظهر، تشعّ عيناه السوداوان الصغيرتان فطنة ودهاء. وقد استحق لمكره لقب «ثعلب الصحراء». حيّاها الشيخ على اعتبارها «ابنة سلطان الإنكليز».

يوم العشرين من آذار ١٨١٤. تدمر، نظّم البدو لـ«ابنة سلطان الإنكليز» استقبالاً يليق بالملكة زنوبيا وقد عادت إليهم. مطلع

الموكب خمسون بدوياً (وفي رواية أخرى سبعون، والله أعلم) مرسلو الشعر يحملون رماحاً مزيّنة بريش النعام يتبعهم رتل من الجِمال المحمّلة وفي المقدمة فرس عربية تعلوها «ستّ الكل» حسبما عمّدها البدو، وإلى جانبها خمسة وعشرون خيّالاً بأسلحتهم. في الوادي، المسمّى «وادي القبور» دَوَّت طلقات النار ترحيباً بـ«الست». واكبها الرتل وسط «جادة الأعمدة» التي تزيد على ألف متر طولاً نحو «قوس النصر». وفوق كل عمود، حيث كان بالأمس تمثال لإله أو بطل أو ملك أو ملكة، انتصبت صبيّةٌ رائعة الجمال تحمل إكليل غار. وعند وصول «الستّ» إلى قوس النصر كان ينتظرها صفّ من ست فتيات من كل جانب يرقصن ويغنّين لها فيما تبارى الشيوخ في إلقاء قصائد الغزل والمديح فيها.

وتحت قوس النصر التدمري، توّجت الستّ الإنكليزية نفسها ملكة على الصحراء.

أربعة شبّان في «عين ورقة»

مَن لم يسمع بعين ورقة، أمّ المدارس الأهلية في ذلك الزمان، لا يعرف شيئاً عن التعليم في بلاد الشام. أنشأتها الرهبنة المارونية عام ١٧٨٩ على يد الأسقف يوسف إسطفان (١٧٥٩ ـ ١٨٢٣) لـ«تربية الأولاد بخوف الله والعبادة وحفظ طقوس رتبتنا المارونية الأنطاكيّة المقدسة منذ حداثة سنّهم». أنجبت المدرسة خمسة بطاركة وثلاثين مطراناً وتخرّج منها عدد كبير

من الكهنة ومعظم مؤسسي المعاهد التعليمية وعدد وافر من رجال العلم والسياسة من آل البستاني والشدياق ودحداح وسواهم.

التقى في المدرسة أربعة أنسباء. ثلاثة من آل الشدياق. والشدياق، عند النصارى، لقب شمامسة الكنيسة. والمتعلمون في ذلك الزمان إما أن يصيروا شدايقة ويرسموا شمامسة، وإما أن يعملوا في الحياة المدنية مدبّرين يتولّون كتابة مراسلات ومسك حسابات الأمراء والشيوخ وتربية أطفالهم. هكذا سوف تكون حال الشدايقة الثلاثة أسعد وفارس وطنّوس، أبناء يوسف منصور الشدياق الملقب بـ«أبي حسين» تحبباً، كما يقال، وإن تكن شجرة عائلته تشي بجدود وأسلاف ذوي أسماء محمّدية واضحة.

أما رابع الأنسباء، فابن خالتهم بولس مسعد، الذي كان يحلم منذ نعومة أظفاره بالانضمام إلى السلك الكنسي. ولد بولس مطلع ١٨٠٦ في عشقوت، وتعلّم السريانية والعربية على أبيه ومبادئ اللاتينية والإيطالية على الخوري أنطون عريضة في مدرسة رومية. ولا غرابة في أن تكون الإيطالية هي اللغة الدولية الأجنبية الأولى في لبنان في تلك السنوات، فالكنيسة المارونية كانت تتوجس خشية كبيرة من اللغة الفرنسية، مخافة أن يطّلع بواسطتها الناس على «الأفكار الهدّامة» التي تبشّر بها الثورة الفرنسية.

تدمر: اللبوة تفترس الأسد

مكثت هستر شهراً كاملاً في البادية. نقدتْ مهنّا الفضل ٥٠٠ جنيه استرليني لقاء أكلاف الاحتفال. لم يكن الثمن باهظاً، لأنه عَقد لها مع بدو البادية السورية أواصر تحالف سوف يستمر طوال حياتها. بل أكثر: تسلطنت هستر على البدو. سحرتهم سحراً. ومن أسباب ذلك أنها بعيدة النظر، لا بالمعنى المجازي بل الحرفي. كانت تستطيع التمييز عن بعد أكثر من البشر العاديين. وذات مرة ظن بدو عنِزه أن أعداء يستعدّون لمهاجمة مضاربهم لأن جياداً لاحت في الأفق. نظرت هستر في الأفق وأفادت أنها ترى جياداً ولكن من دون فرسان أو خيّالة. وهكذا كان. كانت خيلٌ ترعى. فأطلق عليها البدو لقباً إضافياً: «زرقاء اليمامة».

وأمضت الليدي البريطانية في ضيافة عشيرة الحسنة ثلاثة أيام كانت كافية لأن توقِع في حبائلها ناصر، ابن الشيخ مهنّا وذا الخمسة والعشرين ربيعاً المكنّى بـ«أسد الصحراء». جذبت اللبوةُ البريطانية الأسَدَ العربي إلى عرينها. أمضيا معاً أيام الضيافة الثلاثة وحاول إقناعها بتأجيل رحلتها إلى تدمر للربيع، فلم يفلح. هكذا انهزم الأسد البريطاني مايكل بروس أمام أسد الصحراء العربية فأخلى الساحة له وغادر. أمّا «الستّ الإنكليزية»، وهذا لقبها الآخر لدى عامّة البدو، فاضطرت إلى مغادرة تدمر بعدما دهمها الطاعون. قصدت اللاذقية التي قيل لها إنها آمنة. لحق بها الطاعون إلى المدينة الساحلية. أخذ

الدكتور ميريون يحثّها على اللجوء إلى جبل لبنان. مانعت في البدء. لم ترد التخلي عن سورية بسهولة. أخيراً قبلت.

هستر في حرب الرجال

في نيسان ١٨١٥، هجم الجراد على المنطقة.

وفي تموز عادت خادمتها إليزابث إلى خدمة سيدتها وقد غادرتها في مالطة لتتزوج. انهار زواجها فأقفلت راجعة.

سكنت الليدي أول الأمر في دير مار الياس في قرية عبرا بدعوة من والي صيدا. استأذنت الأمير بشير لاستئجار منزل في مشموشة فلم يأتها جواب صريح على طلبها، فاستأجرت منزلاً في قرية جون شمالي صيدا. والبيت كناية عن مجموعة مبانٍ فوق تلّة من تلال القرية السبع حوّلتها هستر إلى قلعة أطلق عليها الأهالي «دار الستّ». حقيقة الأمر أن هستر احتلّت البيت احتلالاً ضد رغبة مالكه التاجر. استنجد هذا بالأمير بشير فأرسل لها من يبلغها بإخلاء البيت. لم تخلِ «الستّ» البيت. بدلاً من ذلك وصل إلى «الأمير الأحمر» مبعوث من اسطنبول يقول له: دعوا «الستّ» الإنكليزية تفعل ما تشاء.

في جبل لبنان نسجت حول «الستّ» أقاويل وسرت شائعات. يشاهدها الأهالي تمتطي جوادها العربي لا مجانبة كما يليق بالنساء وإنما على طريقة الرجال وهي تعتمر عمامتها البيضاء وتتمنطق السيف المذهّب، فيتيقنون أنّها مخبرة أو جاسوسة.

يعزز اعتقادهم كثرة مغامراتها وتقلباتها السياسية وإحاطة نشاطاتها بالكتمان. لم تتفق مع أحد في السياسة. عارضت الحكومة البريطانية منذ أن ترك خالها وليام پتّ رئاسة الحكومة. علاقتها بالسفير البريطاني في اسطنبول والقنصل في بيروت باردة وعدائية. تتحمّس أحياناً للسياسة الفرنسية وهو الكفر عينه بالنسبة إلى أبناء طبقتها من الأرستقراطية البريطانية. ولا تلبث أن تهدّئ من حماستها لشدّة كرهها لنابليون بسبب أصله المتواضع. وأشدّ ما كان يزعجها منافسة عملاء نابليون لها على بدو سورية. تنافست مع لاسكاريس، عميل نابليون لدى أهل البادية. واختلفت مع باديا، المبعوث السري للملك لويس الثامن عشر الذي اعتلى العرش بعد سقوط نابليون. وقد أسرّت إلى أحدهم أنها هي التي دبّرت اغتيال باديا الذي قضى في ظروف غامضة.

ومع ذلك ربطتها صداقة متينة بالضابط الفرنسي الكولونيل بوتان، أحد المع ضباط نابليون. اختفى بوتان فجأة في جبال العلويين، فأرسلت هستر اثنين من عسسها للاستطلاع فأفادا بأن عصابة من الأهالي سرقته وقتلته إخفاءً للجريمة. صمّمت الليدي على الثأر للضابط الفرنسي. في نيسان من العام ١٨١٥، المسمّى عام الجراد، جرّدت حملة تأديبية للاقتصاص من القتلة بمساعدة والي صيدا، مصطفى آغا بربر. نهب عسكر الوالي والبدو المسلحون من أنصارها ثلاثين قرية واستباحوا وأحرقوا وقتلوا لا أقلّ من ثلاثمئة رجل وامرأة انتقاماً. جرّوا

النساء إلى طرابلس حيث بعن كجوارٍ أو إماء. الليدي، التي انتقلت إلى أنطاكية لمتابعة سير العمليات، جالت في جبال الأنصارية وتفقدت «مآثر» جنود بربر آغا وأنصارها من البدو. أرسلت إلى بربر آغا ٥٢ رأساً مقطوعاً، فذاعت أخبار حملتها الانتقامية على جبال الأنصارية في كافة أنحاء سورية.

١٨٢١ ـ عامية وتكسير طنبور

في صيف ذلك العام ثار العامة في المقاطعات اللبنانية قاطبة ضد ظلم أمير الجبل، بشير شهاب الثاني والتحق بهم عدد من المشايخ. اجتمعوا مسيحيين ومسلمين ودروزاً في كنيسة مار الياس بأنطلياس وتعاهدوا على التضامن حتى يرفعوا الحيف عنهم والضرائب الباهظة. اشتدّ ساعد العامية واتسعت رقعتها إلى درجة أنّ الأمير الحاكم اضطر إلى الفرار إلى حوران وبقي فيها قرابة العام.

برز آل الشدياق في الصفوف الأمامية من ثوار العامية. كان ابنا منصور الشدياق يوسف وفارس من قوّاد المجموعات المسلّحة. وتولّى غالب ابن يوسف منصور قيادة الانتفاضة في منطقة الحدث. وعرض أخوه طنوس مطالب العامية أمام والي عكا لمّا زاره وفد من الثوار. لكن بشيراً الشهابي ما لبث أن عاد من حوران واسترضى الشيخ بشير جنبلاط فأنجده الجنبلاطي بعشرة آلاف مقاتل. وشنّت قوات البشيرين حملة على الثوار العاميين الذين تراجعوا إلى لحفد في جرود بلاد جبيل حيث

خاضوا معركتهم الأخيرة وسقط منهم العديدون. ولا يزال الِشير حيث سقط آخر الثوار بين لحفد وجاج يُعرَف بـ«شير العامية».

مات المدبّر أبو خطار العنطوريني أبرز قادة العامية في سجن «الأمير الأحمر». أمّا شريكه في القيادة، الأسقف يوسف اسطفان، فقضى مسموماً بعدما دعاه الأمير إلى قصره في بيت الدين لشرب فنجان قهوة.

تفرّق آل الشدياق أيدي سبأ بعد فشل العامية. فرّ منصور يوسف وأبناؤه طنوس ومنصور وغالب إلى دمشق. واختبأ اسعد في الحدث ثم لجأ إلى قنوبين حيث احتمى بالبطرك حنا الحلو. آواه البطرك لأيام وما لبث أن طلب منه المغادرة، فتوجّه إلى طرابلس ومنها انضمّ إلى أبيه في دمشق. ولجأ فارس وأمه إلى بيت جيران لهم في الحدث. وفي غيابهم، دهم عسكر الأمير منزلهم ونهبوا كل ما فيه من فضة وآنية، ومن جملتها طنبور كان فارس يعزف به في أوقات الفراغ.

لم يعش منصور يوسف طويلاً بعيداً عن وطنه وأهله. اشتدّ عليه مرض الربو وتوفي في عام هزيمة العامية. بعد وفاة الوالد، غادر غالب منفياً إلى مصر والسودان حيث عيّنه محمد علي باشا كاتباً في ديوانه. وترك أسعد الدراسة في عين ورقة بعدما أمضى فيها ثلاث سنوات تعلّم خلالها على يد الأسقف يوسف حبيش. قصد دير مار أنطونيوس في بعبدا وأخذ يعلّم الرهبان فيه علم الذمّة. لفت الشدياق الشاب نظر مطران بيروت

الماروني بطرس كرم فاستحضره فمكث في خدمته سنتين. وترك أسعد المطران وخدم كاتباً عند الأمير حسن العلي الشهابي. ثم اتخذه الشيخ علي عماد كاتباً ومدبّراً بعد تولّيه على مرج عيون. ولما عاد الشيخ إلى كفرنبرخ خرج أسعد من خدمته. خلال تلك الفترة، خطب أسعد ابنة جدعون الباحوط من أهالي بعبدا إلاّ أنه لم يتزوجها. ثم اتصل بالبروتسطانت وأخذ يدرّسهم العربية والسريانية.

غادر فارس عين ورقة بعد وفاة والده وعمل في النساخة عند الأمير بَعِير بَيْعَر، وتابع دراسة العربية على أخيه الأكبر أسعد.

«ناسكة جبل لبنان»

«دار الستّ»، تدخلها إذ تمرّ على حرسها من الجنود الألبانيين عبر ممرّ تحفّ به أشجار الورد وعرائش الياسمين وزهر العسل وتتوسطه نوفرات ماء في فسقيات من مرمر ويخدم فيه عبيد أفارقة بينهم جاريتها المفضلة زيزفون، فتصل إلى عدد من الأبنية المبعثرة من طبقة واحدة تتوسطها أحواش وحدائق وتجاورها اسطبلات وسراديب وأقبية وممرات سرّية وغُرف نوم وقاعات استقبال وقاعات حريم مختلطة الواحدة بالأخرى.

هنا آوت هستر الجنرال لوستينو، الجنرال السابق في جيش نابليون وقد انقلب رؤيوياً مخبلاً. أطلقت عليه لقب «النبي» بعدما أبلغها ذات يوم بأن نابليون قد هرب من منفاه في جزيرة «إلب». وبعد فترة، تبيّن أن الخبر صحيح وقد حصل في اليوم

الذي عيّنه لها. وبشرّها الجنرال الفرنساوي أيضاً بما هو «مكتوب»: «سوف تكونين أنثى المسيح في مجيئه الثاني. وسوف تركبين حماراً ابن أتان إلى جانبه عند دخوله المدينة المقدسة». لم تكن تلك البشارة بالتفصيلية، إذ إنها أكدت ما بشّرها به البريطاني براذرز. حاول لوستينو إقناعها باعتناق المسيحية الكاثوليكية، فأبلغته أنها اعتنقت المذهب الدرزي وتؤمن بعودة المهدي وقد سمعت أنّ نبوءة قديمة في المنطقة تقول إن فرسا ستولد وعليها سرجها وستكون مطية المهدي حين عودته، فسمّت هستر مهرتها ليلى لأنها آمنت بأنها المهرة المختارة. ولما لا توجد نبوءتان دون ثالثة، أبلغها طبيب القرية بأنه قرأ في مخطوطة قديمة أن امرأة أوروبية سوف تسكن جبل لبنان وتبتني لها منزلاً فيه ويأتيها صبيّ يتيم الأم فتؤويه. ثم تأتي أيام النحس فتشتعل الحروب وتنتشر الأوبئة وتتعاظم المآسي إلى أن يعود المهدي فيحلّ السلام. وسوف يمتطي المهدي مهرته التي ولدت وعليها سرجها، والمرأة القادمة من البلد القديم سوف تشاركه الرحلة إلى القدس.

تراءى لها أن النبوءة آخذة في التحقق عندما وفد ابن لوستينو إلى جبل لبنان لزيارة أبيه، فوقعت هستر في غرامه. لم تعمّر قصة حبها العاصف طويلاً. كان الشاب شرِهاً قرماً، مرض من التخمة ومات في غضون ثلاثة أيام. وقيل إن أحداً من أهل الدار سمّم له لشدة ما أثار من غيرة وحسد. دفنته الليدي في حديقتها السرّية، وانعزلت عن العالم، نادراً ما تستقبل ضيفاً، وإن فعلت فليلاً. وعادة لم تكن تري الزائر منها إلاّ الوجه

واليدين. وقررت أن الأربعاء هو يوم النحس تنحبس خلاله في غرفتها منذ مساء الثلاثاء لأربع وعشرين ساعة فلا تخرج منها ولا تقابل أحداً. وتوقفت نهائياً عن القراءة. أدمنت تدخين النارجيلة تحشوها غالباً بحشيشة الكيف وتهلوس. وانكبّت على التنجيم وعلم الفلك. تقرأ الطالع في النجوم، وتقضي الليالي بطولها تحدّق في السماء تستطلعها العِلم عن البشر وأحوال الغيب. ومارست العرافة.

ظلت «الست» تنتظر ظهور المسيح ـ المهدي. تروي لزوّارها: «لديّ في الإسطبل مهرة ولدتْ وعلامة السرج المقدّس على ظهرها. سوف أمتطيها عندما يستدعيني. لقد سمّوني «النبيّة» هنا في هذه الجبال وبهذه الصفة أؤمن برسالتي وسوف أواصل أداءها». وفي الانتظار، تسمّت «ناسكة جبل لبنان».

١٨٢٤ ـ روما: مدرسة البروباغاندا

أخذ القسّ بولس مسعد يتدرّج في معارج السلك. رسمه البطريركُ حبيش مرتّلاً وقارئاً ثم شمعدانياً. ولما كان يتوسّم فيه خيراً كبيراً للكنيسة والطائفة، أرسله للدراسة في «المدرسة الاوربانية» في روما على نفقة البطركية المارونية. في تلك المدرسة المعروفة باسم «مدرسة البروباغاندا» انكبّ مسعد على دراسة اللاهوت الأدبي والنظري السكولاستيكي والأخلاقي والكتاب المقدس والتاريخ الكنسي. وبرّز بولس بين زملائه ولفت أساتذته، وبينهم اللبناني متّى شهوان الذي ربطته صداقة

بتلميذه الذي كان شديد التأثر به في الجدل الزمني كما في الفكر التاريخي.

عند وصول مسعد إلى روما كان اليسوعيون قد استعادوا السيطرة على «مدرسة البروباغاندا» وأعادوا لها زخمها في مواجهة حركة الإصلاح البروتسطانتي وفي مناهضة أفكار الثورة الفرنسية التي خلّفها الغزو النابليوني. في تلك الأثناء، كان البطرك حبيش يخوض بدوره معركته ضد هرطقة البروتسطانت. أصدر منشورين رعويين سنة ١٨٢٦ يحتّم فيهما على أبناء طائفته أن يكونوا «متحرّصين من غِشّهم وخداعهم» ويمنع اقتناء كتبهم الدينية أو تداولها كما «يمنع التعليم عندهم أو في مدارسهم» تحت طائلة الحرم. وفي المنشور الثاني حرّم البطريرك كل تعاطٍ مع الإنجيليين أياً كان: البيع والشراء والقرض والاستقراض والمؤاكلة والمحادثة. وزاد البطرك تصعيداً إذ أفتى بأن من يخالف ذلك يسقط في الحرم الأكبر. في ذلك العام ١٨٢٦ بالذات، عاد بولس مسعد إلى البلاد من رومية، فعيّنه البطريرك كاتم أسرار له، ثم رسمه كاهناً وعيّنه نائباً روحياً له. وأوكل إليه أولى مهمّاته إذ كلّفه حراسة سجين خطير من «البيليشيين» في دير قنّوبين.

١٨٢٥ ـ باريس: «المسيحية الجديدة»

مجموعة من الفرنساويين تؤسس كنيسة هرطوقية من نوع جديد أين منها هرطقات البيليشيين في الشرق.

مؤسس الشيعة الجديدة كونت أرستقراطي من أسرة مار سمعان. قاتلَ وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره في صفوف الثورة الأميركية في موقعة يوركتاون من ضمن الفيلق الفرنسي الذي أسهم في نيل الولايات الأميركية استقلالاها عن بريطانيا.

منذ يفاعته ومار سمعان مهووس بالفتح والشق. حتى قيل إنه لم يجئ أميركا شاقاً لفتوح بل سعياً إلى فتح الشقوق. من أميركا، سافر إلى المكسيك حيث حاول إقناع نائب الملك الإسباني بشق قناة في مضيق باناما تلي المحيطين الأطلسي والهادئ. لم يفلح في مسعاه. ظهر عام ١٧٨٧ في مدريد. جذبته إليها شائعات تقول إن الحكومة الإسبانية عازمة على شق قناة جبارة تربط مدريد بالبحر. استحصل على وظيفة مساعد لدى مستشار الملك للشؤون المالية والمهندس الرئيسي للمشروع. لكن المشروع توقف لما اندلعت الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩.

أفلت الكونت الأرستقراطي من عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية خلال عامي ١٧٩٣ و١٧٩٤ الرهيبين. بل إنه تمكّن من جمع ثروة خلال تلك الفترة عن طريق المضاربة العقارية. وفي أيام عزّه تلك، كان خادمه يدخل عليه كل صباح يفتح ستائر غرفته ويوقظه قائلاً: «انهض، سيّدي الكونت، إن مهمات عظيمة تنتظرك اليوم». لم ينجح الكونت في الارتقاء إلى مستوى أي مهمّة من تلك المهمات العظيمة. بدّد ثروته وحاول الانتحار من شدة بؤسه. وضع مسدساً على صدغه

وكبس على الزناد فما نجح بأكثر من اقتلاع إحدى عينيه. فاعتقل وأودع المصح العقلي بتهمة الجنون، حيث عاش فترة بمعيّة الماركيز دُساد المعروف بتهتكه ومنوعات الشذوذ الجنسي التي مارسها وكتب عنها.

خرج مار سمعان من المصحّ العقلي وادّعى النبوءة زاعمًا أنه من سلالة بولس الرسول. أخذ يبشّر بديانة جديدة تقوم على العلم يرأسها العالم الفيزيائي البريطاني إسحق نيوطن. قال بوجوب تولّي الفلاسفة والصناعيين قيادة المجتمع. ودعا إلى مذهب يسمّى «الاشتراكية» يقوم على التعاون بين أرباب العمل والعمال. طالب بإلغاء الإرث والربا ورفض اعتبار الملكية الفردية مؤسسة مقدسة غير قابلة للمسّ. ومبدأه الرئيسي أنه يجب على كل المؤسسات الاجتماعية أن تكون مسخّرة لتحسين أحوال الأكثرية الشعبية مادّياً ومعنوياً. من حيث العلاقات الاجتماعية، رأى مار سمعان أن العمل حريّ به أن يقرّب بين العمال والصناعيين بدلاً من أن يباعد بينهم. ودعا إلى الانقلاب على فرنسا الأرستقراطية وإطاحة سلطة ملاّك الأراضي لصالح سلطة الصناعيين يحكمون بالشراكة مع المهندسين والمصرفيين. وطالب بأن يحلّ المهندسون في المعامل محل أرباب العمل القدامى، فوحده المدير يستطيع أن يتصرّف بما هو أب لعماله، وسمّى أتباعه أنفسهم «آباء العمل»، وصار المعمل بمثابة «البيت» يرعى فيه «الأب» أبناءه الضعفاء. لكنه أبٌ يربّي ويؤدّب عند الحاجة.

من وحي تلك الرؤية، دعا السمعاني إلى قيام مسيحية جديدة. وجّه نداءً شهيراً إلى البابا لاوون الثاني عشر دعاه فيه إلى إصلاح عميق في صميم المجتمع: «لم يعد بالإمكان أن يقتصر عملكم على تبشير المؤمنين بأن الفقراء هم أحبّ أبناء الله إليه. يجب أن تستعملوا بحزم وقوة كل السلطات والوسائل التي تملكها الكنيسة من أجل التعجيل في تحسين الحالة الجسمانية والأخلاقية للطبقات الشعبية الواسعة». ولما لم يستجب الحَبر الأعظم إلى دعواه، أخذ يحرّض على استبدال الكرسي البابوي بـ«المجلس النيوطوني الأعلى» المؤلف من٢١ عالماً مرموقاً يحكمون العالم فيصير العالم بأسره «مشغلاً واحداً» يديره المجلس.

في كتابه «المسيحية الجديدة»، أسس السمعاني لرؤية مبتكرة للفرد والمجتمع تقول إن نواة المجتمع هي «الزوج» المتكوّن من رجل وامرأة بل هو «الرجل ـ المرأة». دعا إلى إلغاء البغاء ومنح النساء الحق في الطلاق أسوة بالرجال. ورأى تحرر المرأة، ومساواتها بالرجل، الشرط اللازم لكل تقدم. وحرّض على «إعادة الاعتبار إلى الجسد».

١٨٢٥ ـ جبل لبنان: الست والأمير

بعدما قضى البشيران الشهابي والجنبلاطي على عامية لحفد، ذرّ الخلاف قرنه بينهما. الجبل الذي يضيق ببشير واحد كيف له ألاّ يضيق ببشيرين. الجنبلاطي، قيدوم القوم الدروز، بلغ من

الثراء ما جعله دائناً للأمير الحاكم ومن القوة العسكرية ما حوّله إلى ندّ له ومنافس على السلطة. وفي رواية أن الشهابي قال للجنبلاطي: «البلاد لا تسع بشيرين» فأجابه الجنبلاطي «المكعوم يرحل». لم يرحل أي منهما. حرّض الجنبلاطي جماعات من الدروز على الثورة خلال وجود الشهابي في مصر في ضيافة محمد علي باشا. ونظّم حلفاً ضم حلفاءه التقليديين من آل عماد وعدداً من الأمراء الشهابيين المتضررين من الأمير الحاكم فجيشّوا ١٢ ألف رجل للانقضاض على السلطة. حظي الجنبلاطي بدعم والي دمشق. أمّا الشهابي العائد من مصر فلجأ إلى عبدالله باشا والي عكا وهزم الثوار بالتعاون مع آل أبو نكد مشايخ دير القمر، ففرّ بشير جنبلاط وحلفاؤه إلى حوران. ثم صادر الشهابي أملاك آل جنبلاط وفرض عليها ٣٥٠ ألف غرش كل سنة غرامة، ثم أمر بهدم جامع المختارة والقصر فيها. وتآمر الأمير مع عبدالله باشا والي عكا للإيقاع بالجنبلاطي، فاستدعاه الوالي إلى عكا حيث اعتقله وقطع رأسه.

«الجبل بُركة دم»، كتبت هستر عندما اندلعت الفتنة بين أنصار البشيرين. ومع أنها أعلنت أنّها لن تتدخّل في السياسة المحلية لجبل لبنان، آوت الدروز الهاربين من جور الأمير الشهابي وبطشه، وعلى رأسهم حريم الشيخ بشير جنبلاط. تدهورت العلاقة بينها وبين أمير الجبل إلى حد القطيعة. بعث إليها الأمير بمئتين من رجاله طوقوا «قصر الست»، فرفضت استقبال مبعوثه وتسلّم الرسالة التي كان يحملها لها منه. أمر الأمير بالمضايقات. أخذ جنودُه يهدّدون خدمها ويعتدون عليهم.

وإعتقلوا السقّا تبعها وعرّضوه للفلقة. وفرضوا الحصار على بيتها، فجفّت مياه البئر فيه. وفرّ معظم الخدم المحليين. وندر الطعام إذ أخذ الفلاحون يتخوّفون من المجيء إلى بيتها. وهي تقول لمن حولها: لن أكون من آل پتّ إن أنا رضخت له.

لم ترضخ. استنجدت كما العادة بالقنصل البريطاني في بيروت، فتوسط لدى الأمير أن يكفّ شرّه عنها. كفّ هذا شرّه عن «الست» ولكنها لم تكفّ هي شرها عنه.

آذار ١٨٢٦ ـ قنوبين: خبرية أسعد

عندما طلبه المرسلون الإنجيليون الأميركيون للعمل لديهم، فَصَلوا أسعد ليدرّس المرسل جوناس كاين اللغة العربية في دير القمر. لم يطل المقام بالخواجة كاين في دير القمر. ولما غادر، وجـّه رسالة وداع إلى أصدقائه في سورية تناول فيها بصراحة الخلافات المذهبية بين البروتسطانت والكاثوليك. عند سفر كاين، رجع أسعد إلى بيته في حارة الحدث ومنها توجّه إلى بيروت حيث أخذ يعلّم المرسل الأميركاني الخواجة إسحق بيرد اللغة العربية وينسخ رسالة كاين الوداعية. تركت الرسالة الأثر البالغ في نفس أسعد. أزالت الغشاوة عن إيمانه، كما قال، خصوصاً عندما قرأ فيها أن الكنيسة الرومانية تفرض عبادة الصُور وتمنع على أولادها قراءة الكتاب المقدس. عزم على خلع نير طاعتها فاعتنق المذهب البروتسطانتي وجاهر بعقيدته الجديدة. وسطّر لذلك رسالة إلى المطران بطرس كرم ينتقد

فيها عبادة الصور والصلاة على الموتى وطقوساً أخرى لدى الطوائف الكاثوليكية على اعتبارها من بقايا الوثنية لا تليق بديانة توحيدية.

عاش أسعد في حمى القراءة والبحث والتنقيب في الكتب والتأمل في هذا المذهب الجديد، ولم يتوانَ عن المجادلة فيه مع من شاء الاستماع إليه. وإذا هو أول ماروني يخرق «الحرم الكبير» الذي أصدره البطريرك يوسف حبيش في حق البيليشيين. والبيليشيون هو الاسم الذي أطلقه العامة في جبل لبنان على البروتسطانت لأنهم يبشّرون بالـ«بايبِل» أي الكتاب المقدّس، ويجهدون لتوزيع نسخٍ منه على أوسع عدد ممكن من الناس.

وصل خبر أسعد إلى مسامع البطرك حبيش الذي كان أستاذه في مدرسة عين ورقة، فبعث إليه بمرسوم يأمره بالامتناع عن كل معاطاة مع البِبْلِيشيين ويتهدده بتنفيذ الحرم الكبير بحقه وبالشكوى عليه لدى الأمير بشير إن هو تأخر يوماً واحداً عن الامتثال للأمر البطركي. لم يأبه أسعد للأمر ولا للوعيد، فاستدعاه البطريرك ليمثل أمامه واحتجزه في دير مار جرجس في علما على ساحل كسروان. على مدى أيام من التحقيق والسجالات، رافع أسعد ببلاغة وإيمان وصلابة عن معتقده الجديد. وبعد شهرين من الإقامة في الدير، كتب إلى إسحق بيرد يقول «إنّ نفسي وصلت إلى الحد الفاصل. لم يعد يوجد أمامي غير ثلاثة خيارات: أن أحسَبَ مجنوناً أو أن أقع في

الخطيئة أو أن أقدّم حياتي ذبيحة. فأسألِ الله أن ينقذني».

لم يضطر أسعد إلى أي خيار من الثلاثة. تمكّن من الفرار من دير علما إلى بيروت حيث سجّل قصته مع الإكليروس الماروني في رسالة ثانية إلى إسحق بيرد قبل أن يسلـّمه أهله مجدداً إلى السلطة الكنسية. حكم عليه البطريرك بالسجن في دير قنوبين، مقرّ البطريركية المارونية في شمال البلاد.

عند وصوله مقيّداً إلى دير قنّوبين، كم فوجئ أسعد عند اكتشافه أنّ سجّانه إن هو إلاّ ابن خاله بولس مسعد. ولنا أن نتصوّر أي حوارات دارت بين أسعد الإنجيلي وبولس القس الماروني الكاثوليكي العائد من «مدرسة البروباغاندا» مزوّداً بما لزم من حجج للسجال ضد «الأراتقة».

١٨٢٦ ـ باريس: «كنيسة العمل»

توفي مار سمعان العام ١٨٢٥ فألّهه أتباعه وأسسوا لعبادته كنيسة سمّوها «كنيسة العمل» ليلة عيد الميلاد من ذاك العام. بشّروا الملأ قائلين: «عاد الإله إلى فرنسا في شخص مار سمعان وسوف تعلن فرنسا للعالم بشارةَ الإله الجديد». أدار «كنيسة العمل» مجلس من تسعة من الصحابة سمّوا «الآباء». وانضم إلى المجموعة التأسيسية خمسون عضواً جلّهم من طلاب الحقوق والطب والمعاهد الفرنساوية الكبرى (متعددة الحيل، المناجم، الجسور والخنادق، الخ.) إلى فنانين وأساتذة ورجال قانون. وانتظم الأعضاء في ثلاث رتب: الآباء والإخوان

والأبناء. سرعان ما ضربت الانشقاقات أطنابها بين الصحابة حتى لم يبقَ منهم إلّا «أبّان» أندريه بازار الجاد الرصين، وبارتيليمي ـ بروسبير آنفانتان ـ الصبياني.

والصبياني شاب جميل، جميل جمالاً دعا البعض إلى اعتباره مخنّثاً. طويل القامة، كستنائي الشعر، أسمر البشرة، ذو عينين بُنّيتين وجبهة مكشوفة، فمه عادي المظهر، وذقنه مكوّر، ويعلو وجهه النمش. ولد في ٨ شباط ١٧٩٦ في باريس وأصله من منطقة «الدروم»، المشهورة بإنتاج الحرير. والده مصرفيّ صغير عانى من ضائقة مالية فأعلن إفلاسه وعمل الابن محاسباً في جامعة باريس وخدم في آخر جيوش نابليون البونابارتي الأول. وفي عام ١٨١٣، دخل مدرسة «المتعددة الحيل» لكنّه اضطر إلى مغادرتها لأنه حرم من منحة لإتمام دراسته. عمل بائع خمر عند أحد أقاربه وسافر لهذا الغرض إلى ألمانيا وهولندا وسويسرا وروسية حيث مكث سنتين (١٨٢١ ـ ١٨٢٢) عند مصرفي فرنسي في سان بطرسبرغ. في روسية اكتشف الاقتصاد السياسي وتعرّف إلى خريجي المتعددة الحيل الفرنسيين الذين يبنون خطوط سكك حديد في روسية، فتولّع بوسيلة النقل الحديثة. وفي روسية، تولّعت به امرأة متزوجة اختبر معها أولى مغامراته النسائية. ولما عاد الصبياني إلى فرنسا، انعزل في قرية كروسون (في الدروم) حيث ارتبط بأرملة شابة تدعى آدال مورلان. ولم يلبث أن غادر إلى باريس فلحقت به آدال.

برّز تلامذة السمعاني فكرته الرئيسية عن التناقض بين التطور

الحضاري لفرنسا ـ الموسوم بالدور المتنامي للصناعيين ـ وبين الدولة الفرنسية التي لا تزال دولة الأرستقراطيين والريعيين. أصدروا مجلة «المنتج» تروّج للفكرة تحت شعار «أن العصر الذهبي أمامنا فيما يريد تقليدٌ أعمى أن يكون عصرنا الذهبي في الماضي». بشّروا بطوبى اجتماعية ترتكز على تنظيم العمل وأدانوا انقسام المجتمع بين منتجين وعاطلين، وبين مالكين ومحرومين. وعلى صفحات المجلة، حاول الصبياني الملاءمة بين دعمه الصناعة والمصارف ودعوته إلى تحسين أحوال الطبقات الكادحة. طرح فكرة تقول إن تنمية التسليف وتعزيز نشاط المصرفيين من شأنهما أن ينتزعا رؤوس الأموال من أيدي الأغنياء المتبطلين غير المنتجين من أجل استخدامها لصالح «الطبقات الكادحة»، والمقصود بهؤلاء الأخيرين الصناعيون والعمال اليدويون والمهندسون والفنانون دون تمييز. لم تعمّر المجلة أكثر من سنة.

في تلك الأثناء وَلدت آدال مورلان لـ«الأب» ابناً سماه آرثور. لكن الصبياني كان قد وقع في التجربة مع مجدلية. والمجدلية مومس باريسية شابة اسمها جوزيفين استمرت علاقته بها ثلاث سنوات.

١٨٢٦ ـ الإسكندرية: أوّل اللَغْمَرة

تأثر فارس بحادثة أخيه الأكبر أيّما تأثر وهو مرشده ومعلّمه. وغبّ اعتقال أسعد، قصد بيروت حيث قابل المرسل بيرد

سراً. وأشار عليه هذا أن يغادر البلاد فوراً حفاظاً على سلامته. وصارت أمّه، بعد حادثة الطنبور، تخشى عليه أيضاً من انتقام عسكر «الأمير الأحمر» قدر خوفها من قساوة البطرك، إن لم يكن أكثر، فلم تمانع من مفارقة فلذة كبدها. وسافر الشاب بحراً من ميناء صور إلى الإسكندرية. في الإسكندرية، أمضى شهري نيسان وأيار بانتظار نقله إلى مالطة للعمل في مطبعة المرسلين الإنجيليين.

ـ «عمتَ صباحاً، يا فارس؟ كيف أنت؟ وكيف رأيت الإسكندرية؟

في وصف مصر، قال الشاب الآتي من جبل لبنان «ترابها من ذهب. وغيدها نِعم اللعب. وإنها لمن غلب». وهو غلبه العجب لما للتُرك في الإسكندرية من سطوة على العرب وتجبّر. حتى إن العربي لا يحلّ أن ينظر إلى وجه تركي كما لا يحل له أن ينظر إلى حَرَم غيره. فلم يفهم سبباً لهذا التكبّر مع أن النبي كان عربياً والقرآن أنزل باللسان العربي.

وعن غِيد مصر، ما قلّ ودلّ: «خلابات العقول غلابات الفحول». وقد فار يراعه عليهن «عُرفهن قد ملأ الخياشيم. وحَورَ أعينهن يذكّر الناس بحُور جنّات النعيم». ورآهن في خفّتهن «يمشين تارة على الأرض كسائر النساء وتارة على السقف وعلى الحيطان».

آثر المتبرقعات على السافرات عن بلاغة في الحجة والذوق.

فعندما تبصِر الوجهَ المحجوب فإن «المخيلة تطير بالأفكار عليه ولا تجد لها من أمَدٍ تنتهي إليه». فأنشد في مديح البرقع:

لا يحسبُ الغِرّ البراقع للنسا
منعاً لهنّ عن التمادي في الهوى

إن السفينة إنما تجري إذا
وُضِع الشراع لها على حُكم الهوا.

أما الجسم ففَضّل مشاهدته عارياً، فالنظر إلى المرأة اللابسة وهي مستترة يوقف المخيلة عند حد. بخلاف العريانة فإن المخيلة تتصور أشياء والقلب يشتهي أشياء أخرى. رأى فارس أن أشكال الجسد لا تحدّ، وقد أحصى منها «القمقمي والرمّاني والقرموطي والإطاري والهرفي والصادي والميمي والمدرّج والمخروطي والهلالي ومنفرج الزاوية».

وتمنّى عن المرأة لو كان «بلانيا يدلك بدنها أو هَناً آخر يداني هَنَها».

واي. واي..

احتلال المحصونة

يوم الأحد في الثالث عشر من حزيران/ جوان ١٨٣٠، الخامسة فجراً.

ظهرت المدينة لكشافة الأسطول على شكل مثلث أبيض صغير

عند لحف الجبل. المواجهة الأولى في إزاء المدينة البيضاء التي يسمّونها «البهجة»: غزاة قادمون من البحر يعاينون سكان المدينة الذين يعاينونهم بدورهم. منذ الامبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا في القرن السادس وأساطيل الغزاة تعود عن سواحلها جارّة أذيال الخيبة. تطلق مدافعها قذائف رمزية على حصونها المنيعة وتعود أدراج الرياح، فاستحقت لقب «المحصونة».

«الداي» حسين بن حسين في القَصَبة يراقب المشهد من على سطح قصره وحوله الحاشية. من يصدّق أنّ كل هذا الأسطول للثأر من لحظة نزق ضرب فيها «الداي» قنصل فرنسا دُفال بمروحته!

بضعة أيام من المناوشات بالمدفعية قبل إنزال ٣٧ ألف رجل وعتاد عسكري هائل في «سيدي فرج» وأولى المعارك في «ستاولي» يوم التاسع عشر من حزيران/ جوان حيث استبسل الخيالة العرب والمشاة العثمانيون ورفدتهم قبائل من البربر جاؤوا ومعهم نساؤهم وأطفالهم والعجزة هكذا على عاداتهم ليقولوا إنهم سوف يقاتلون حتى آخر واحد منهم. لكنّ نقطة قوة الغزاة هي المدفعية المتطورة. القتلى يفترشون أرض الهضبة. والغزاة أعدموا ألفَي أسير.

الرابع والعشرون من حزيران. خمسة عشر ألف مقاتل جزائري يقاومون الغزاة بقيادة مصطفى بو مرزاق، بيك «تيتري» تدعمه

قوات من الإنكشارية العثمانية. يسقط للفرنسيس ما معدّله ٢٠٠ عسكري في اليوم الواحد. كتب البارون بارشو، وهو شاهد عيان على الإنزال والمعارك الأولى عن «امرأة تجثو قرب جثة فرنسي انتزعت له قلبه». وروى عن أخرى هربت حاملة طفلها على ذراعيها ولما أصابتها طلقة رصاص، معستْ رأس طفلها بحجر كي لا يقع حيّاً بيد الجنود... ها هي طريحة الأرض قضى عليها الجنود طعناً بالحراب».

الرابع من تموز/جوليت، العاشرة صباحاً: هزّ انفجار ضخم «الحصن الإسباني» أو «برج حسن» حسب التسمية المحلية، وهو أهم الحصون الدفاعية العثمانية العائدة إلى القرن السادس عشر يحميه ألفان من عسكر النخبة. أدّى القصف الجنونيّ على البرج إلى انفجار مستودعات الذخيرة.

سقطت «المحصونة» مع أن «حصن باب عزّون» و«حصن الإنكليز» ما زالا يقاومان. نصب الفرنسيس مدفعيتهم على «برج حسن» وأخذوا يقصفون «القصبة». بعد ساعتين من سقوط «برج حسن»، تقدّم مندوب عن «الداي» يعرض الاستسلام. أملى قائد الحملة الجنرال بورمون شروطه وتنازل «الداي» عن السلطة خطياً. فانسحبت قوات المقاومة الجزائرية إلى الحرّاش وهي تلقي اللوم على صهر «الداي»، الآغا إبراهيم، لفشله الذريع في قيادة المعارك.

الخامس من تموز/جوليت. استعراض النصر يخترق المدينة التي تسمّى «البهجة» يتقدمه الفوج السادس ومعه طبوله.

الخزندجي يقود الغزاة إلى بيت المال حيث غنموا من سبائك الذهب ما يعوّض أضعافاً مضاعفة عن مصاريف حملة الاحتلال وغذّى الفائض خزينة دولة الفرنسيس.

١٨٣٠ ـ باريس: ثورة تموز

انطلقت الثورة من شرارة: قرار الملك شارل العاشر إلغاء حرية الصحافة وخفض عدد المقترعين بنسبة ٧٥ وحل مجلس العموم. خلال «الأيام الثلاثة المجيدة»، سيطر عامة باريس على مدينتهم ورفعوا العلم الثلاثي الألوان بديلاً عن العلم الملكي ذي الزنابق، تؤازرهم قوّتهم المسلحة «الحرس الوطني» بقيادة لافاييت، بطل حرب الاستقلال الأميركية. انكفأ الملك إلى قصره في «سان كلو» فاقتحم الثوار قصره الباريسي في «التويللوري».

سقط آل بوربون، وهم طليعة الردّة الملكية الحاكمة منذ سقوط نابليون. تنازل شارل العاشر عن العرش. وأعلنت «ملكية تموز» التي انتقل الحكم بموجبها إلى آل أورليان، فرع الابن البكر من العائلة المالكة، وافتتحت العهد الجديد بأنباء احتلال الجزائر.

اليسار والجمهوريون في الشارع يطالبون بإعلان الجمهورية ومحاكمة وزراء شارل العاشر واعتماد مبدأ الاقتراع العام وتقليص صلاحيات الملك. لم تعلن الجمهورية. جرى تتويج لوي فيليب «ملكاً على الفرنسيس» بعدما كان الملك يتوج تقليداً

«ملكاً على فرنسا»، على اعتبار أن التعديل اللفظي يعبّر عن التزام البيت الملكي الجديد بالسيادة الشعبية. في المقابل، ردّ الملك على ضغط الشارع بمنع الجمعيات الجمهورية والنقابات المهنية وبحل «الحرس الوطني». أعلن رئيس وزرائه پرييه: ثمة سوء تفاهم. ما حصل ليس ثورة. ما حصل تغيير في رأس السلطة. لم يتحقق الاقتراع العام، وإن يكن زيد عدد الذين يحق لهم الترشح والانتخاب من ٩٤ ألفاً إلى نحو ٢٤٠ ألفاً، أي أقلّ من واحد بالمئة من السكان.

دعم السمعانيون لافاييت وطالبوه بإقامة ديكتاتورية لفرض إصلاحاتهم الاقتصادية والاجتماعية. كل ما قدّمه لهم تعيين أحدهم، رجل الأعمال جاك لافيت، في منصب وزاري. أصدر الصبياني صحيفة «لُ غلوب» (الكرة الأرضية) يحاجج فيها عن فكرة الشراكة بين الطبقات بديلاً عن الصراع الطبقي ويبشّر بالنضال السلمي ونبذ العنف. انتشر نفوذ «كنيسة العمل» خلال الثورة فبلغت الأرياف والمدن الداخلية وجاوز عدد أعضائها عن الأربعين ألفاً وتجاوزت حدود فرنسا إلى هولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا. وازدادت الإمكانات المالية للسمعانيين إذ انضمّ إليهم عدد من كبار رجال الأعمال أبرزهم ليون آرليس دُفور البروتسطانتي، صديق الصبياني منذ أيام «متعددة الحيل». عمل دُفور تاجراً للأقمشة في باريس وتزوج من ابنة صناعي وتاجر حرير من ليون وانتقل إليها فصار من كبار صناعييها وعضواً في مجلس بلديتها. موّل دُفور نشاطات السمعانيين منذ البداية.

ليس عن عبث سمّيت ملكية لوي فيليب «الملكية البرجوازية»، فالوريث الأورلياني رجل أعمال حاذق تحوّل بفعل السلطة إلى واحد من أغنى أغنياء البلاد. وفي ظل عَلَمه الموشّى بالزنابق، ارتقت البرجوازية المالية إلى سدّة الحكم على حساب الأرستقراطية والبرجوازية الصناعية. عندما رافق جاك لافيت الملك لوي فيليب إلى قصر باريس البلدي بصفته رئيساً لوزرائه، فضح سرّ الثورة إذ أعلن «المصرفيون سوف يحكمون من الآن فصاعداً».

١٨٣١ ـ الستّ والباشا

انقلبت أحوال جبل لبنان لما أتمّت جيوش محمد علي باشا احتلال سورية، بقيادة ابنه إبراهيم باشا. طالب الخديوي السلطنة بمنحه بلاد الشام لقاء إسهامه النشط في حملات السلطنة العسكرية في البلقان، فتمنّع الباب العالي، فاحتلها الباشا المصري بالقوة ووصلت قواته إلى مشارف الآستانة. تنازلت السلطنة على مضض عن سورية للباشا المصري في مقابل إعفاء عاصمة السلطنة، وأخذت تجهز منذ اللحظات الأولى للانتقام بدعم قوي من بريطانيا فيما وقفت فرنسا إلى جانب محمد علي.

أعجبت «السِتّ» بشجاعة إبراهيم باشا، لكنها أردفت: إنه شجاع ولكنه شرّير لأنّ ملكة الفنون السحرية قد أعطيت له. وأشاعت أنه يحمل تعويذة تقيه الإصابة بكُرات المدافع

وبالفولاذ والرصاص، فما عليه، بعد كل موقعة حربية، إلا أن يحلّ شملته فتتساقط منها الرصاصات مثل الغبار.

ومع ذلك فعندما حاصرت قوات إبراهيم باشا عكا، آوت «الست» في «قصرها» عشرات من أهالي عكا الذين فرّوا من الحصار. صار قصرها الموقع الوحيد في سورية الذي لا يملك إبراهيم باشا سلطة عليه. استعانت على الباشا المصري بالقناصل الإنكليز. وصلت إلى كل من الأمير بشير وإبراهيم باشا رسائل من لندن والآستانة تعلن أن هستر في رعاية الباب العالي بعدما تدخّل القنصل البريطاني لدى اسطنبول من أجلها. لن تنتهي متاعب الحكم المصري مع «الليدي»، حتى إنّ محمد علي باشا قال إنها أتعبته وأتعبت ابنه إبراهيم باشا أكثر من كل متاعب السوريين مجتمعين!

في هرطقات متنوّعة

من الشرنقة إلى البزرة

داخل الشرنقة تتحوّل الدودة إلى يرقة عمياء تعيش في حرارة بين ٢٠ و ٢٥ درجة. تتحول وتغيّر جلدها. ومنها يولد الفراش. يعيش فَراش القزّ في الشرنقة نحو عشرين يوماً، وعندما يحين وقت خروجه يفرز مادة لعابية يثقب بها جدار الشرنقة ويخرج من جنسين، ذكراً وأنثى. وفراش القز لا يطير ولا يأكل. إنْ هو إلاّ أعضاء تناسلية معدّة للتلاقح لا غير. والأنثى عادة أكبر حجماً من الذكر وأطول عمراً.

يسافد الفراشُ الذكرُ الواحد عدداً من الإناث يصل إلى ست ولا تستغرق عملية السفاد واللقاح أكثر من ربع ساعة، يحرّك خلالها الذكر جناحيه دليل الإثارة الجنسية. واسم الفراش مأخوذ من هذه الحركة. يقال: «فرّش الطائر» على الشيء أي رفرف عليه. لكن ليس كل أنواع الفراش يرفرف عندما يثار

جنسياً. واعلم أنّ فراش القزّ يرفرف ولا يطير (وتقول العامة «يفرفر» لأنه أخفّ على النطق). ولعل رفرفته من غير طيران مردّها أنّ الغلمة قد أثقلته.

بعد أن يرفرف ذكر الفراش على أنثاه ويقضي منها الوَطَر، يخرّ مغشياً عليه ويقضي نحبه. تعيش الأنثى بعده ثلاثة أيام وليال تبيض خلالها بين ٤٠٠ و٨٠٠ بيضة. والبيوض أشبه بحبّات لؤلؤ صغيرة بيضاء، ثم يميل لونها إلى الرمادي إلى أن يصير أقرب إلى السواد. ولا يتعدّى طول البيضة الميلّمتر الواحد وتزن الألف منها غراماً واحداً. وبعد خمسة أيام من المبيض، تتوقف حركة البيضة وتدخل في حالة سبات تستمر خلال الصيف والخريف والشتاء لتتفتح في الربيع.

١٨٣١ ـ باريس: الأنثى هي الأصل

لم يكتفِ الصبياني بالدعوة إلى تحرر المرأة وإعادة الاعتبار للجسد على ما علّم السمعاني. قال إنّ لا أمل في حلّ أي قضية اجتماعية للشعوب والأفراد إلاّ بحلّ قضية العلاقات بين الرجل والمرأة، ذلك أن التحريمات الجنسية تعقّد المشاكل الاجتماعية. والحل؟ إباحة الحرية المطلقة للغرائز. يجب أن تتحرّر المرأة والرجل من واجب الإخلاص الزوجي، لأنه لا يراعي غرائز الطبيعة البشرية ويدفع إلى إشباع تلك الغرائز بواسطة الخيانة الزوجية أو البغاء. لمكافحة هاتين الآفتين، طالب «الأب» بتعديل قوانين الأحوال الشخصية لتجيز الزيجات

العابرة والمؤقتة. حتى إنه أباح تعدد الزيجات والحرية الجنسية المطلقة للرجل والمرأة على حد سواء. ودافع عن حق المرأة المتزوجة في إقامة علاقات جنسية خارج إطار الزواج أسوة بالرجل.

ودفع الصبياني بفكرة «الزوج» المتكون من ثنائي الرجل ـ المرأة المتساوي في الجوهر إلى أقصى النهايات. أفتى بأن الله ـ عزّ وجلّ ـ إنّما هو ذكر وأنثى. وطالب بأن تكون رئاسة الكنيسة الكاثوليكية شراكة بين رجل وامرأة.

وكما يحدث عادة في التنظيمات ذات الرأسين، ذرّ الخلاف قرنه بين بازار والصبياني. والرجلان على مقدار كبير من الاختلاف في الطبع والقصد. بازار منظّم وقائد سياسي جمهوري واشتراكي يسعى إلى الثورة. والصبياني معلّم ومبلسِم جراح وداعية تغيير اجتماعي وأخلاقي سلمي يؤمن بأن النزاعات السياسية والثورات لا تؤدّي إلى أكثر من إثارة الكراهية والعنف. بازار يوحي بالاحترام، أما الصبياني فيستدعي الوله إن لم نقل العبادة. اتسعت شقة الخلاف بين «الأبوين» وانفجرت حول موضوع المرأة. استنكر بازار أفكار الصبياني عن الحب الحرّ ونادى بالعودة إلى الأصل السمعاني للعقيدة. وقع الانشقاق وخرج بازار مخلياً الساحة للسمعاني ينفرد بالزعامة وقد رأى نفسه مختاراً من الله وتشبّه بالمسيح.

قدّسه مريدوه ولقّبوه «القانون الحيّ» و«إكسير الحب» و«كاتدرائية المحبة» و«سيّد الدنيا». قالوا «سيدنا يسوع يعيش

في الصبياني. كانت السمعانية مجرّد عقيدة. صارت الآن فرقة دينية». وباشروا البحث عن «الأم» لتكون نصفه الآخر. سعوا أول الأمر لدى كلير بازار وقد هجرت زوجها المنشقّ وظلّت وفيّة للكنيسة الأصلية. اعتذرت كلير واستمر البحث.

نسوية واشتراكية

هي الابنة غير الشرعية لأب بيروي وأمّ فرنسية. ذات عصرية، حضرت اجتماعاً للسمعانيين في حيّ سان جيرمان بباريس. سمعتهم يتحدثون عن انتظار المسيح ـ الأنثى، تجامِع «الأب» لتكوين «الزوج الأسمى». وفي الاجتماع، حيث يتركون كرسياً شاغراً للمسيح الأنثى، سمعت الصبياني يسهب في وصف الزوج المسيحياني الذي سوف يخلّص العالم.

قرأتْ أعمال السمعاني وأعجبت بها، خصوصاً هجسه بالماء، إذ كان يعتقد أن تيارات المعرفة الإنسانية ـ المال والاحترام والقوة ـ يجب أن تنساب بحرّية مثل الأنهر والشلالات لكي يتحقق التقدّم. وراقها منه أنه تخلّى عن لقب «كونت» لاعتباره إياه أدنى من لقب «مواطن».

لم يطل بها المقام بين القوم السمعانيين. لم يعجبها تراتبهم، ولا تعصّبهم الأعمى للعلوم. يريدون تحقيق نصف ما تريد: حقوق المرأة لا حقوق العمال. سخرت بنوع خاص من سذاجة آرائهم الاقتصادية والاجتماعية خصوصاً ظنهم أنّ مجرد تسليم

الصناعيين والخبراء السلطة ليديروا المجتمع كما لو أنه مصنع أو شركة يكفي لتحقيق التقدم والعدالة.

أرادت بناء «قصر العمال» فذهبتْ إلى الاشتراكية.

ظل سؤال يؤرقها: «لماذا لا أكون أنا «أنثى المسيح؟»». قطعت عهداً على نفسها أن تسعى إلى أن تكونها. لم ترق لها فكرة مضاجعة الصبياني وقد باتت تنفر من الجنس بعد زواجها الفاشل.

نسوية واشتراكية تحلم بتغيير العالم. الاسم فلورا تريستان.

خريف ١٨٣١ ـ ثورة الحرير

«ليون مدينة رمادية مثل حال عمالها»، كتبت فلورا تريستان. أزقّتها مرصوفة بحجارة بركانية مدبّبة ترهق الأرجل وتوجعها. تقوم مشاغل الحرير والنسيج على تلة تسمّى «كروا روس»، الارتقاء إليها يخطف منك الأنفاس. هناك الرجال حفاة رثّو الثياب وجوههم فارغة التعابير من تعب، يعملون من الخامسة حتى الثامنة ليلاً مع استراحة قصيرة على الغداء. أما الفتاة النساجة فتتقاضى على الساعات الأربع أو الخمس عشرة التي تكدح بها ٥٠ سنتيماً، أي ربع ما يتقاضاه الرجل أو ثلثه.

«الكانو» هو الاسم الذي يطلق على حرفيي وعمال حل الحرير وغزله وحياكته في ليون. درج استخدام المفردة كنيَةً لعمال وعاملات «التافتا»، ثم شاعت التسمية على جميع العاملين في

النسيج أو القطن أو الحرير. و«التافتا» نسيج حريري صقيل لا يزالون يتغزلون به في بلادنا في أغنية «تفتا هندي».

تجوّلَت تريستان في المبغى في حيّ «غيللوتيير». شاهَدت المومسات في عمر الثانية عشرة والرابعة عشرة وتساءلت كيف يمكنهن إثارة رجل أصلاً وهنّ كائنات من جلد وعظم؟ لم يكدن يغادرن الطفولة حتى يلتقطهن السيفلس والسلّ.

في عاصمة الحرير العالمية هذه، يقوم الإنتاج على ثلاثة «أصناف»: صنف أرباب العمل وأصحاب مشاغل الحياكة، وصنف رؤساء المشاغل، وصنف الحرفيين والعمال ــ «الكانو». أراد أصحاب مشاغل الحرير خفض كلفة الإنتاج لمنافسة النسيج البريطاني، فخفضوا أسعار «القطعة» من الحرير المنسوج. رفض الحرفيون والعمال العاملون على القطعة التلاعب بأسعار القطعة. نظموا أنفسهم في تعاونية مطالبين بتثبيت الحد الأدنى لسعر قطعة الحرير المنسوج. ولما لم يستجب أرباب العمل للمطلب، أعلنوا الإضراب يوم ٢٥ تشرين الأول، وسار نحو ستة آلاف رئيس مشغل وزميل حِرَفي وعامل في مسيرة سلمية هادئة طافت شوارع ليون بانضباط شبه عسكري.

فرض المتظاهرون على أصحاب المشاغل توقيع عقد يحدّد تعرفة موحدة لقطعة النسيج. رفض أصحاب المشاغل تنفيد الاتفاق. قامت تظاهرة ثانية وأعلِن الإضراب العام يوم ٢١ تشرين الثاني. انقلب الإضراب إلى انتفاضة. رفع «الكانو»

العلم الأسود، رمز الحداد، وعلّقوا لافتات تحمل شعارهم «نحيا عاملين أو نموت مناضلين» وسيطروا على المدينة بعدما انسحب الجنود وفرّت القيادات العسكرية. ويوم ٣ كانون الأول ١٨٣١ أعلنت السلطات الأحكام العرفية ومنْع التظاهرات. وهجم على المدينة جيش من عشرين ألف جندي بقيادة الماريشال سولت وولي العهد دوك دورليان، ابن الملك لوي فيليب. أعاد عسكر الملك احتلال ليون بالحديد والنار. قتل المئات واعتقل الألوف. ويوم ٧ كانون الأول، صدر مرسوم يلغي التعرفة الموحدة ويحظر التنظيم العمالي.

تضامنت مدن عديدة مع الثوار: سانت إتيين، غرينوبل، يين، مارسيليا، أربوا، بيزانصون، لونيفيل، وغيرها. ويوم ١٣ نيسان نظّم الجمهوريون في باريس تظاهرة حاشدة تضامناً مع عمال الحرير الثائرين. تحولت تظاهرات باريس إلى شبه انتفاضة وقعت خلالها اشتباكات دامية مع العسكر استمرّت يومين كاملين وقُمِعتْ بعنف لا يقل شراسة عن عنف القمع في ليون.

تضامن المثقفون بدورهم مع الثوار وشجبوا العنف السلطوي. رأوا في الانتفاضة فجر عالم جديد. حيّاها شاعر فرنسا الكبير شاتوبريان على أنها «الإرهاص بمجتمع جديد». وأعلن أنه «سيأتي زمن لن يمكن أن يتصوّر فيه أنه كان يوجد نظام اجتماعي يبلغ فيه دَخْلُ رجلٍ واحد مليون فرنك فيما رجل آخر لا يجد ما يشتري به عشاءه».

من جملة العاملات المعتقلات بتهمة إثارة الشغب في ليون

عاملة شابة لم يكن مضى وقت طويل على مغادرتها قريتها في منطقة الدروم.

الاسم: لويز برونيت.

صيف ١٨٣٢ ـ تاجر بريطاني في قنوبين

أثار اعتقال أسعد الشدياق ردود فعل تجاوزت تداعياتها حدود جبل لبنان الصغير. حمل لواءها المرسلون الإنجيليون البريطانيون والأميركيون ونجحوا في نشرها على العالم لما لهم من نفوذ في الصحافة، وفرضوا تدخّل الدول والقناصل في البحث عن المعتقل والعمل على إطلاق سراحه. ولما أعيتهم الحيلة أوفدوا من يستطيع استطلاع الأمر عن قرب.

صيف ١٨٣٢ وصل تاجر بريطاني إلى عكا موفداً من المرسلين الإنجيليين للتحقيق في مصير أسعد الشدياق .حظي ريتشارد تود، وهذا اسمه، بمقابلة إبراهيم باشا والتمس منه توصية إلى الأمير بشير الشهابي للمساعدة على البحث عن الشدياق. بعث إبراهيم باشا برسالة إلى الأمير الحاكم يعلمه فيها أنّ الشدياق مسجون بأمر من البطريرك الماروني لرفضه عبادة الصور المقدسة، فردّ الأمير بشير بأنّ معلوماته تقول إن السجين قد توفي. أصرّ تود على أن يتحرّى الأمر بنفسه، فحرّر إبراهيم باشا له طلباً إلى حليفه اللبناني. استجاب الأمير الحاكم لطلب الباشا المصري فوضع في تصرّف تود ستة من عسكره لمرافقته إلى قنوبين وزوّده بأمر خطي بتسهيل مهمته.

في طريقه إلى كرسي البطريركية المارونية، عرّج بيرد على بلدة تنورين الجردية، ونزل عند أحد وجهائها، الشيخ فارس أبو أنطون. فوجئ تود عندما علم أن الشيخ فارس قد قابل أسعد الشدياق في محبسه في قنوبين مرات عدة وناقشه طويلاً في شؤون خلافه العقيدي مع الكنيسة. لم يقتنع الشيخ التنوري بوجهة نظر المثقف الشاب، لكنه أبلغ الموفد البريطاني بمعارضته إصدار حكم كنسي بالسجن على امرئ لمجرد الاختلاف معه في الرأي.

عند وصوله إلى دير قنوبين، كانت مفاجأة تنتظر التاجر. وجد البطرك حبيش شخصياً في استقباله ليعلمه بأنّ أسعد الشدياق قد توفي منذ عامين. وضع البطريرك في تصرفه الكاهن بولس مسعد ليريه محبس السجين وقبره. مسعد، الذي نفى للمرسل أي دور للتعذيب في وفاة أسعد، التي عزاها إلى مرض الاستسقاء، مدلّلاً على صدق قوله بصلة القربى والصداقة التي تجمعه بالسجين. عبّر تود عن رغبته في مشاهدة قبر أسعد. قاده مسعد إليه وأبدى الاستعداد لنبش القبر. لم يجد التاجر حاجة إلى ذلك. أصرّ البطرك على تود للمبيت في الدير. اعتذر وعاد أدراجه عن طريق الساحل مروراً بأميون والبترون وجبيل.

لم يقتنع تود بحجة مرض الاستسقاء. كتب إلى إسحق بيرد يقول «دم أسعد على رأس البطرك».

وظل شبح أسعد الشدياق يرود الجبال والأودية في ذاك الجبل

ويأوي إلى كهوفها ويقضّ مضاجع رجال الدين فيها. وصار الرجل أول رمز لشهداء حرية التعبير والرأي والنضال ضد جور الإقطاع والكنيسة.

فارس له رأي

لم يقتنع فارس بحجة البطرك ولا بتشخيص ابن خاله لمرض أخيه. حمّل البطرك المسؤولية عن وفاته. وتساءل أي حق وأية سلطة يملك البطرك أصلاً ليحاسب أخاه على آرائه؟ ليس له سلطان ديني أو مدنيّ عليه. «أما الدِين فإنّ السيد المسيح ورُسُله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وإن كانوا يعتزلونهم فقط. ولو كان دِين النصارى نشأ على هذه القساوة والوحشية التي اتصفتم بها... لما آمن به أحد». وأضاف:

«... وهبْ أن أخي حاول في الدِين وناظر وقال إنكم على ضلال فليس لكم أن تميتوه بسبب هذا، وإنما كان يجب عليكم أن تنقُضوا أدلّته وتدحضوا حجّته بالكلام أو الكتابة إذا أنزلتموه منزلة عالم تخشون تبِعته... وكأني بكم معاشر السفهاء تقولون إن إهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة مَحمدة يندب عليها. لكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم أن الاضطهاد والإجبار على شيء لا يزيدان المضطهَد وشيعته إلا كلفاً بما اضطهد عليه. ولا سيما إذا علم من نفسه أنه على الحق وأن خصمه القادر له على ضلال...».

ولم يعفِ فارس القس بولس مسعد من العتاب على دوره في تلك المأساة: «وكنت أودّ لو أختم هذا العرض بعتاب أوجّهه إلى حضرة المطران بولس مسعد ابن خالي وخال أخي وكاتب أسرار البطرك، ولكني خشيت الآن من الإطالة، وفي ما قلت ما يغني اللبيب».

١٨٣٢ ـ مينِلمونطان، قرب شارع الموارنة

في الربيع، تفشّى وباء الكوليرا في فرنسا، فتطوّع السمعانيون لمكافحته والعناية بضحاياه فأبلوا بلاءً حسناً، فمات منهم عدد من الأطباء والممرضات خلال أداء مهمتهم الإنسانية.

أثارت الأفكار التي طرحتها «لُ غلوب» (الكرة الأرضية) حفيظة السلطات. قُدّم «الأب» وعدد من محرريها إلى المحاكمة. حكمت عليهم المحكمة بغرامات مالية وبإقفال الصحيفة. لجأ الصبياني مع أربعين من الإخوة والأبناء إلى ملكية له في مينيلمونطان.

في تلك القرية في ضواحي باريس، ليس بعيداً عن «شارع الموارنة» المفضي إلى «شارع لبنان»، بوابة خشب تقودك إلى ممشى تحفّ به أشجار الزيزفون وحديقة كبيرة جميلة وإسطبل للخيل يفضي إلى باحة يقوم فيها مسكن من بنايتين، منه تستطيع أن تستشرف باريس منبسطة تحتك، تلفّها سحابة من غَطيط.

في تلك المحبسة احتجب الصبياني عن مريديه ليلقي نظراته الأخيرة على العالم القديم. وعاد بعد ثلاثة أيام ليبلغهم:

ـ لم أعد أستطيع أن أكون لكم الأم التي تهدهد أطفالها وتربّيهم على رخاوة المداعبات. أنتم الآن رجال وأنا أبٌ لرجال.

عقد الجمع احتفالاً ضخماً ابتهاجاً بعودته وأخذوا ينشدون: «السلام عليك يا أبتِ، السلام/ السلام والمجد للخالق./ عندما المسيح غادر الرُسُلَ، قال لهم: «لا تناموا»،/ لكنهم ناموا/ أما أنت فقلت لنا: «اعمَلوا»،/ فعملنا، وعُدْتَ وقد أنجزنا العمل».

ثم ارتقى الصبياني مرتفعاً صغيراً من الأرض والتفت إلى الأب بارو وسأله:

ـ ماذا أنجزتم في غيابي؟

ـ أكملنا قطيعتنا مع العالم. لم نعد نكتفي برمي الشعب بالبيانات والمنشورات. نريد أن نتحول إلى «منشورات حيّة» نرمي بأنفسنا إلى الشعب. في سبيل ذلك اتخذنا قرارنا الجريء بأن نصرم كل صلة لنا بالعالم الخارجي.

ثم ألقى الصبياني خطبة أعلن فيها أن حياته السابقة قد انتهت وبدأت حياة جديدة. وقال لهم لا يكفي أن تتم القطيعة خلف الجدران. يجب المجاهرة بها. وأول الجهر أن يتميز السمعانيون بأزياء مميزة. وأعلمهم أنه صمّم لهم زيّاً جديداً. ثم خلع ثيابه القديمة ليرتدي الزي الجديد المكوّن من حذاء أسود، سروال أبيض، قميص أبيض بلا ياقة يزرّر من خلف، وعليه طرّزت بالأحمر كلمة «الأب»، وصدرية حمراء وفوقها

جبّة قصيرة زرقاء، إضافة إلى قلنسوة حمراء للرأس وحزام أسود. وقال لهم إنّ لكل لون رمزيته. الأبيض رمز الحب. والأزرق الكحلي رمز الإيمان. والأحمر رمز العمل. وقد أرسل الصبياني شَعره وأطلق لحيته للمزيد من التمّيز في المظهر. وشرح لأتباعه أن القميص يزرّر من خلف ليضطر كل منهم إلى الاستعانة بزميله لارتداء زيّه، دليل التضامن بين أعضاء الأخوية. وفيما هو يرتدي زيّه الجديد، ارتفع فوق سارية العلم الجديد لـ«كنيسة العمل»: ثلاث شرائط أفقية بيضاء وكحلية وحمراء تمثّل الدِين والعِلم والصناعة. وقال لهم:

ـ يا إخواني وأبنائي، لن أقبّلكم بعد الآن. سوف نتبادل تحيات الأبوّة والرعاية والأخوّة.

ثمّ دعا أصغرهم سنّاً إليه وأخذ يدَه اليمنى بيده اليمنى ووضع يدَه اليسرى على كتفه اليسرى وقال:

ـ هذه هي تحيّة الأبوّة.

ثمّ شبكا أيديهما الأربع وقال لهم «الأب»:

ـ هذه تحيّة الرعاية.

ثمّ وضع يدَه اليمنى على كتف زميله اليسرى ووضع ذاك يدَه اليسرى على كتف «الأب» اليمنى وقال لهم «الأب»:

ـ وهذه تحيّة الأخوّة.

ثمّ أخذ يُلبِسهم كلاً زيَّه ويقلّدهم القلادة الرمزية لكنيسة العمل المكوّنة من متوزايات ومثلّثات ودوائر ومستطيلات من الفولاذ والنحاس الأحمر، تتدلّى منها نصف كرة محفورة عليها «الأم».

رفض بعض الأبناء ارتداء الزي لأنهم لم يكونوا مستعدّين بعد للانخراط في السلك، فطلب منهم الأب أن يغادورا. وقال للباقين:

ـ لا تجزعوا، سوف يعودون.

وعندما انتهت مراسم التزيّي، ساروا وراءه في موكب ينشدون:

«هلمّوا عمّالاً وبرجوازيين

قد جَعَلنا العمل كلّنا متساوين

نقلب الأرض عاليها سافلها

نولِد الإنسان الجديد هَدْياً للعالمِين».

١٨٣٢ ـ القاهرة: البصيرة في البصيرة

في مالطة ساءت صحة فارس بسبب طعام المرسلين، ويبدو أنه أصيب بالسل أيضاً، فطالب بإعادته إلى مصر. في القاهرة عمل مع المرسلين قرابة العام قبل أن ينتقل إلى المطبعة الحكومية ويعمل في «الوقائع المصرية» الجريدة الرسمية حيث ترجم التقاير الاخبارية ومدائح الخديوي والسلطان ورجالات السلطنة وسمّى الجريدة «الممدح». ثم تركها وعاد إلى تدريس

المرسلين اللغة العربية. سكن مع المرسل ثيودور ميولر. اكتشف المرسل أن صاحبنا مصاب بمرض زهري، أو هكذا ظنّ، فطلب منه مغادرة المنزل.

سكن فارس قرب دار أحد التجار الشوام، وكانت للتاجر ابنة تحبّ السماع واللهو والطرب وترتاح إلى الغناء جداً، فإذا سمعت فارس يغني أو يعزف على الطنبور في غرفته تصعد إلى سطح دارها وتنصت إلى أن يفرغ فتنزل إلى حجرتها. لما عرف فارس أنها إنما تصعد السطح من أجله لم يكترث كثيراً أوّل الأمر، فقد كان يرفض الزواج. إلى أن جاء يوم رآها فيه تمسح محاجرها فظن أنها تمسح دموعاً مذروفة شوقاً إليه، فخرج عن بروده وأخذا يتبادلان لغة الإشارات من فوق السطوح.. إلى أن صارا يجتمعان. لكن والدة الفتاة أبت تزويجه إياها لأنه من الببليشيين الخرجيين أي البروتسطانت وهم من أعز بيوت السوقيين أي الكاثوليكيين. فقال لها إنه دخيل على الخرجيين وإنه في الأصل سوقي، فلم تقتنع. ولما أصرّت البنت على الزواج من عازف الطنبور، اشترطت الأمّ أن يتحوّل الفارياق إلى سوقي ولو ليوم واحد. ففعل.

وليلة البناء بالبنت طالبوه بالبصيرة على عادة أهل تلك البلاد. وما أدراك وأدراه ما البصيرة. ولما ذرى وهو الذي ليس يسكت عن شواذ كتب: «من أين تعلم يا ذا البصيرة أنّ تلك البصيرة التي يخضّب بها المنديل ويعقد على عَلَمٍ ايذاناً ببكارة البنت هي علامة البكارة؟ أفليس من الممكن أنً يكون ليلة الدخول

بها قد فار التنّور، وفاض المسجور أو بقيت من عقابيل، دبّج بها المنديل؟ أو يكون الرجل قد ذبح عصفوراً أو جرح إحدى أصابعه إذا كان هو الذي سبق إلى اقتطاف تلك الوردة؟ أو تكون البنت قد ادّخرت في ذلك الصوان شيئاً من الدم».

واي. واي

مينلمونطان بلا نساء

في مينلمونطان عاشوا حياة تقشّف وعمل. لم يكن بينهم نساء لأنّ «الأب» أفتى بأن ينذر الجميع العفاف ويمتنعوا عن أيّ نشاط جنسيّ. لم يفهم كثيرون كيف يتساوق هذا مع الحب الحرّ الذي يدعو إليه، فأبان لهم ذلك بقوله: «يا أحبائي، لكي يولد الإنسان الجديد من رجل وامرأة حرَّين متساويين، يجب أن نستكمل القطيعة مع النساء المنتميات إلى الماضي. إنهن إما منقادات لرجالهن، مسلوبات الإرادة، وإما متمردات تمرّداً مزيفاً ضد الأخلاق العامة والعادات البالية.

عانى المتزوجون من اعتزال النساء أيما معاناة، حتى إن بعضهم انفصل عن «كنيسة العمل» كليّاً لعدم احتمال الانفصال عن شريكته، وبعضاً آخر أخذ يخرق المنع ويتصل بمومسات مينلمونطان، وهنّ على وفرة شديدة في تلك المنطقة. انفضح أمرهم، فأنزل بهم «الأب» عقوبات قاسية وصلت حد الطرد.

تساوى الجميع في العمل. يستيقظون في الساعة الخامسة صباحاً. توزعوا الأعمال المنزلية والعناية بالحديقة والسهر على

الأمن. ولم يكن أي من الرسل يحجم عن عبء من الأعباء المعتبرة وضيعة تأكيداً على إرادته وضع حد لـ«استغلال الإنسان للإنسان». وكان بين الصحابة صحابيّ يكرّس جلّ وقته لخدمة الأب الأعظم. والأب الأعظم يؤلف كتاباً عن الإنسان الجديد، يريده مبحثاً رياضياً حسابياً عن الحقيقة، يفترِض أنّ كل المشكلات الميتافيزيقية والخلقية يمكن أن تجد حلها في معادلات جبرية أو هندسية وفي احتساب للاحتمالات بناءً على ثوابت ثلاثة: الحب والذكاء والنشاط. يقضون الليل في التأملات الجماعية والاستماع إلى قراءات من الكتاب الجديد وهم ينشدون الأناشيد.

تنفيذاً لمبدأ «المثنى هو الأصل الرجل ـ المرأة، أخذ تلامذة الرجل الذي رأى نفسه مختاراً من الله، يبحثون عن المسيح ـ الأنثى لتكون نصفه الآخر. سعوا أولاً لدى كلير بازار لتتولى تلك المهمة وقد هجرت زوجها المنشقّ وظلّت وفيّة للكنيسة الأصلية. رفضت كلير. واستمر البحث عن أنثى المسيح.

امتنعوا على الخروج من المجمّع، لكنهم كانوا يفتحون أبوابهم يومين في الأسبوع لاستقبال الوافدين من الخارج. يؤمّهم ألوف الرجال والنساء في كل زيارة. لفتت الحشودُ نظرَ السلطات التي خشيت من تنامي نفوذ المذهب الهرطوقي، فتدخّلت الشرطة لإغلاق الخلوة واعتقلت الصبياني وعدداً من الصحابة. حكم على السمعاني بغرامة مالية رمزية وبالسجن لسنة واحدة. وأصدرت المحكمة أيضاً حكمها بحلّ الأخوية السمعانية.

أيلول ١٨٣٢: شاعر وبحيرة

عمل في الدبلوماسية قنصلاً لبلاده في فلورنسا. ودخل الأكاديمية الفرنسية. وخاض غمار السياسة خلال ثورة تموز. ترشّح للانتخابات النيابية وخسر. قرر زيارة الشرق لتكون فترة نقاهة بعد معاناته السياسية. أفكاره ومشاعره مثل وترٍ مشدود يصوّب سهماً غير مرئي نحو تلك الأرض. حلم بها طويلاً. وجاء مدفوعاً بثلاثة: الشعر والحب والدِين.

هو شاعر فرنسا الرومنطيقي الكبير المكرّس، ينشد توحّد الفرد المعزول مع الطبيعة ويحوي شعره تأملات فلسفية وشطحات صوفية. وقع في غرام جولي شارل، امرأة متزوجة بعدما أنقذها من الغرق في بحيرة عند سفح جبال الألب. توفيت جولي بعد قليل، فعاد إلى البحيرة وكتب قصيدته الأشهر «البحيرة»، فلقّب «شاعر البحيرة»:

أهكذا دوماً تنقضي أمانينا
نطوي الحياة وليلُ الموت يطوينا
تمضي بنا سفنُ الأعمار ماخرةً
بحرَ الوجود ولا نُلقي مراسينا»

اصطحب معه إلى رحلته الشرقية أحبّ الناس إلى قلبه: زوجته وابنته جوليا، خصوصاً جوليا المصدورة. ظن أن سنة أو سنتين تحت تلك السماء الجميلة سوف تنشّط من صحتها بل تعافيها.

بَهَرتْه سماءُ الشرق. فتح نافذة منزله بحيّ مار مارون في بيروت

وتطلّع صوب جبل صنين يكلّله الثلج. عجب إلى أي حد تشبه جبالُ لبنان جبال «الألب» السويسرية ـ الفرنسية. خفض نظره نحو البحر. من البحر انبعث نورٌ يعمي العيون يحاكي زرقة السماء العجيبة. قال بينه وبين نفسه: لن تشاهد مثل هذه الزرقة إلّا في آسيا.

انتقل إلى جبل لبنان حيث سكن في قصر مقدّمي آل مزهر عند حافة الوادي. وكان كل يوم يجلس إلى صخرة يحدّق في الوادي الأخضر يخرج منه شلال يغذّي جدولاً صغيراً يتعثر بين الصخور. يزداد المشهد رومنطيقية عندما تداني الشمس المغيب وتبدأ لعبة الألوان أو عندما تزحف الغطيطة تدريجياً وتغطّي الوادي.

أراد الشاعر أن يُري ابنته العليلة كل ما هو جميل في الطبيعة والخَلق في هذا الشرق: أثينا والبانثيون، جبال لبنان، مدينة أورشليم، الأهرامات المصرية، الصحراء، خيام البدو، كل شيء. عن ابنته كتب «لقد وهبها الرب البراءة والجمال وأنا سوف أهبها أجمل مشاهد الدنيا. تَرى كيف ستكون عندما تبلغ العشرين؟».

لن تبلغ جوليا العشرين. توفيت في بيروت يوم ٧ كانون الأول ١٨٣٢ ولها من العمر أحد عشر ربيعاً.

هو الكاثوليكي المؤمن دفعه فضول عنيف للتعرّف إلى الإسلام. لم يخفِ إعجابه بالرسول العربي. كتب عنه يقول:

«إنه مدمّرُ الخرافات المنصوبة بين المخلوق والخالق، إنه مَن أعاد الله إلى الإنسان والإنسان إلى الله مُستعيداً فكرة الألوهة العقلانية المقدّسة ضد الفوضى التي يشيعها آلهة الكفر الماديين المسوخ (. . .) هو الفيلسوف الخطيب الرسول المشرّع المحارب، فاتح الأفكار باعث العقيدة العقلانية في طقوس عديمة الخيال، مؤسس عشرين إمبراطورية أرضية وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمد: فأي رجل أعظم منه وفق أي مقياس من المقاييس التي بها نقيس عظمة البشر؟»

١٨٣٢ ـ الجزائر: سيدي عبد القادر

كان عائداً من غزوة على وهران عندما استدعاه والده الأمير محيي الدين بن المختار الحسني إلى اجتماع مشايخ وعلماء جاءوا يبايعون سليل الإمام الحسن سلطاناً على الغرب الجزائري يقودهم ضد غزوة النصارى الفرنسيس. اعتذر الشيخ لأنه كبر ولم يعد قادراً على القيادة والحرب وتنازل لابنه. «العمر سلطان» قال «أضع أمامكم ابن الزهراء، عبد القادر». وكان ابن لالة الزهراء في الرابعة والعشرين من عمره.

٢٧ نوفمبر ١٨٣٢. تحت شجرة الدردارة الشهيرة في سهل غريس، استقبل عبد القادر بن محيي الدين بيعة قبائل آل هاشم وبني عامر والغرابة له سلطاناً على الغرب وأميراً للمؤمنين.

اكتفى بلقب أمير حتى لا يثير حفيظة سلطان مراكش فيظن أنه ينافسه على وحدانية السلطنة في تلك البلاد.

خرج الأمير الشاب لمقاتلة الفرنسيس بجيش من عشرة آلاف راجل وعدّة آلاف من الخيّالة. سيطر على مناطق واسعة في شرق البلاد في تلمسان ومسكرة ومليانة وميديا وقسنطينة. عرض عليه الفرنسيس التفاوض على أن يعترفوا له بالسيادة على منطقته وبالحرية الكاملة في تعاطي التجارة فيها، وإذ طالب بالاعتراف بسيادته على كل منطقة وهران وقسنطينة، انقطعت المفاوضات. سدّد المجاهدون هزائم موصوفة لقوات الاحتلال في معارك رأس العيون والمقطع ووادي الطافنة وتلمسان والغزوات وغيرها.

والأمير عبد القادر، في برنسه الأبيض، شبح يطارد المحتلين فوق صهوة جواده الأدهم يغير على تشكيلاتهم الدفاعية المربعة كاسحاً حرباتهم بضربات سيفه، منتصباً شامخاً هادئاً يناور لتفادي نيرانهم، مشيراً بأصبعه إلى الرصاصات وكرات المدافع تئزّ فوق رأسه أو تسقط عند قدميه. وتجده ليلاً يجوب الصحارى والواحات وزاده الوحيد حفنات من الحنطة المجروشة ينقعها في الماء ويتناولها.

أواخر ١٨٣٢ ـ ليون: «التمحور العمالي»

وقعت انتفاضة «الكانو» فيما الصبياني وصحبه لا يزالون منكفئين في مينلمونطان. لم يساهم السمعانيون المحليون فيها

لالتزامهم اللاعنف. أما سمعانيو مينلمونطان فقد اهتموا بها أيما اهتمام. وجّه الصبياني نداءً إلى سمعانيي الأرياف يقول إن ثورة تموز ١٨٣٠ لا تستحق لقب «ثورة» لأنها لم تأتِ جديداً في تغيير التنظيم الاجتماعي السائد. أما انتفاضة «الكانو» فهي بمثابة عقد يلزم الصبيانيين بالنضال في أوساط الطبقة العاملة. ودعا «الأبناء» إلى تمحور عمالي في المدينة الثائرة. وفي الذكرى السنوية الأولى لانتفاضة نوفمبر ١٨٣١، وجه ميشيل شوفالييه من مينلمونطان نداءً بعنوان «إلى ليون» دعا فيه «الأبناء» إلى الحج إلى ليون واستشهد في ندائه بكلمات الصبياني: «لقد انتهت السياسة النظرية بالنسبة إلينا وبدأت حياة السياسة العملية. إننا نمارسها في ليون، لأن أشياء جديدة تتفتح هناك». وتابع شوفالييه من عندياته: «إننا نغادر باريس، مدينة الاستهلاك والبذخ، مدينة الملذّات، والفنون الجميلة والأعياد [...] إن صدورنا الذكورية تحتاج إلى هواء مختلف، وإلى رياح أخرى لتلفح وجوهنا الكالحة؛ إننا ماضون بحثاً عن هواء نستنشقه وعن رياح تلفح الوجوه في أكبر بؤرة للإنتاج الاقتصادي تفخر بها القارة الأوروبية بأسرها. إننا ذاهبون إلى حيث تتحرك مليون ذراع على مدار أربع عشرة ساعة في اليوم من أجل هدف واحد: الإنتاج».

أواخر العام. «بعثات البروليتاريين» السمعانيين تغادر باريس إلى ليون. في ليون، نظموا حملات دعاوية بين العمال وشعارهم الرئيسي: «يجب أن يكون هدف كل المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال المادية والذهنية للطبقة الأوفر عدداً والأفقر

حالاً». استقبلهم آرليس ـ ديفور وقد كتب في «لُ غلوب» أن ممثلي عمال ليون يدافعون عن قضية جميع البروليتاريين الذين يخصّبون المزارع ويعمّرون المعامل». والتقوا في ليون عدداً وفيراً من رفاقهم من أطباء ـ بينهم كونيا، أحد مسؤولي «كنيسة» ليون ـ وشعراء وفنانين ومثقفين ومناضلات نسويات.

صارت ليون قبلة «كنيسة العمل» السمعانية. وعندما وصلها «الأب بارو» مطلع العام ١٨٣٣، كان أكثرية السمعانيين الباريسيين قد انخرطوا في العمل في الورشات والمعامل لتلقّي «معمودية العمل المأجور». والتمحور العمالي تجربة مضنية، وصفها المهندس الزراعي توشي في مذكراته: «كنت أعمل من الخامسة فجراً حتى الثامنة مساء بصفتي عاملاً يدوياً لقاء أجر يبلغ ٤٠ قرشاً يومياً. خَشُنتْ يداي، واشتدّت عضلاتي واعتاد جسمي العمل وحالت قوّتي المعنوية دون أن تخور قواي الجسدية أيام العمل الأولى».

أيلول ١٨٣٢ ـ جبل لبنان: شاعر وعرّافة

«قصرها» لا يشبه القصور بالمقاييس الأوروبية. هو مجموعة من الأكواخ المبعثرة وبينها ساحات وحدائق. لم يكن يدري أن عدداً من تلك الأكواخ يؤوي لاجئين. فـ«الليدي» قد آوت لا أقل من ٧٥ لاجئاً من أهالي عكا غادروا عندما أحكم إبراهيم باشا المصري حصاره على المدينة.

جارية لم تتجاوز الثامنة من عمرها قادت الشاعر إلى «الليدي»

التي أطلّت عليه معتمرة عمامة بيضاء وقد عصبت الجبين بعصابة كحلية وألقت على كتفها شالاً طويلاً من صوف الكشمير الأصفر فوق ثوب حريرٍ مسدل حتى القدمين. بدت له أشبه بعرّافة من عرّافات الصحراء. أخِذ بجمالها وصفاء قسماتها وأعجب بالأبّهة والأنَفة تنضحان من كل سُمّ من مسام قامتها الممشوقة.

لم تكن شديدة الودّ أول الأمر. تركته يتناول العشاء بمفرده. وأمرت له بالشراب والغليون والقهوة وفنجان ماء الزهر، على عادات تلك البلاد. بعد هبوط الليل دعته إلى حديقتها السرية بعدما قرأت حسن طالعه في النجوم. في الحديقة حيث قبر عشيقها الشاب لوستنو بادرته: «أنت حتماً شاعر. قرأت ذلك في عينيك».

دارت معظم أحاديثهما على العرافة وقراءة الطالع في النجوم والتصوّف. سألته عما إذا كان يؤمن بعودة ثانية للمسيح. أجاب بعبارات غامضة، فأسرّتْ له بأنها تنتظر المسيح الذي لم يظهر بعد، وذكّرته بكلام السيد المسيح نفسه حين قال: «إني لا أزال أتحدث إليكم بالأمثولات. لكن الذي سوف يأتي بعدي بالروح والحق سوف يحدّثكم».

ـ «لن يتأخر قدومه وسوف نشاهده بأعيننا».

ثم أخذته إلى الإسطبل لمشاهدة مهرتين لم يعلُ صهوتهما أحد. تحمل واحدة دبدبة في جسمها كأنها سرج: «هذا السرج

الطبيعي مُعدّ لأن يمتطيه المسيح العائد». وأما الثانية فمهرتها البيضاء التي سوف تمتطيها هي لتدخل عليها أورشليم وقد حرّرها المسيح العائد.

وفي ما هما عائدان إلى حديقتها السرّية، نظرت إليه ملياً وقالت: «لقد كرَهتْني النساء دائماً ربما لأن الرجال أحبّوني حبّاً جمّاً. ومع ذلك لم يحبّوني بما فيه الكفاية». ولم تكن تلك دعوة إلى الحبّ بل عبارات وداع. وقبل أن يغادر قالت له بشيء من الرقّة:

ـ «سوف نلتقي ثانية. إنك عائدٌ إلى أوروبا الآن لكنك لن تلبث أن تعود إلى الشرق. إنه وطنك».

ـ «الأحرى أنه هو وطني الخيالي»، صحح لها.

ـ «لا، هو وطنك الحقيقي. بلد أجدادك» وقالت له إنها استدلّت على ذلك من. . . قدمه.

ـ «قدمي؟».

ـ «انظر إلى قدمك، إنّ قوسها مقوّسة جداً. المسافة بين كعبك وأصابع القدم كافية لأن تجري المياه تحت أخمص قدمك عندما تطأ الأرض دون أن تتبلل. إنها قدم عربية. قدمٌ من الشرق».

لمّا غادر شاعر البحيرة قالت «ملكة الصحراء» عنه لطبيبها الدكتور ميريون: «إن مشاعره كامنة في قلمه لا في قلبه».

أيلول ١٨٣٣ ـ حلم واحد في منامين

في السجن، تراءى للصبياني أنّ سنة ١٨٣٣ سوف تكون سنة استثنائية، فمنذ ١٨ قرناً «مات على الصليب ابنُ الإنسان، محرّر العبيد الرباني». قرر تعميد تلك السنة «سنة الأم» يُستكمل خلالها تحرير البشرية عن طريق تحرر المرأة: تقف إلى جانب الرجل ليؤسسا معاً الديانة الجديدة التي بشّر بها السمعاني.

أبصر بارو مناماً يقول له إنّ المسيح الأنثى سوف تظهر في الشرق في تلك السنة بالذات. خرج على الصحابة: أعرف أين توجد الأم. قالوا: أين؟ قال: في الشرق! قالوا: في الشرق؟ قال: نعم، في الشرق، «غشاء بكارة الأرض والإنسانية !» دعاهم إلى الاستغراق في «خبل المرأة المتسامي» وتجييش «حملة صليبية روحانية» للعثور على «الأم» يزفّونها إلى «الأب» ليتكوّن منهما الزوج الذي سوف يقود «الرابطة الكونية للشعوب» العاملة لأجل خلاص البشرية. أعلن بارو تأسيس «أخوية الأم» وباشر الإعداد لرحلة الشرق بحثاً عنها.

قبل يومين من حلم بارو، أبصر الصبياني المنام ذاته في سجنه. أخذ يهذي بالمرأة إلى درجة تصوّر فيها أنّه قد تحوّل إلى امرأة. كتب إلى بارو: «لست أعتقد أني سوف أخرج من هنا مرتدياً الجلباب والنِقاب، لكنني لن أستغرب إذا تصوّرني الناس قد انقلبتُ امرأة... فيظنّون أنّ هذا الرجل الذي تحيط به غمامةٌ من نساء هو نفسه امرأة...». وضمّن رسالته قصيدة جاء فيها:

«كشحَت الشمسُ الغشاءَ الذي حجّبها به القمر.
إنّ الشرق ينفتح،
الشرق ينفتح!
سلاماً للشمس الجديدة...
زفّوا نبأ قدومي إلى صبايا الشرق.
الآن سوف يستطعن مشاهدتي
قَسَمَاً بهلال قمرهن الفُضّيّ
الذي جاء بالأمس يقبّل وجه شمسي الذهبية».

واعلم إن كنت لا تعلم أنّ الفرنساويين يؤنثون القمر ويكنّون به هَنَ المرأة أو حِرّها. وأمّا الشمس فبالمذكّر عنها يتحدثون. فأعِد قراءة القصيدة قالباً عاليها دانيها وقُل معي: سبحان من قسّم الناس أقواماً وأجناساً أجناساً وألسِنة ألسنة.

١٨٣٣ ـ لقاء في إزمير

ضمّت البعثة الأولى من الصبيانيين التي غادرت باتجاه مصر اثني عشر عضواً ينتمون إلى «أخوية الأم» نساءً ورجالاً بقيادة بارو يعاونه الطبيب كونيا. أبحروا من مارسيليا يوم ٢٢ آذار ١٨٣٣ باتجاه الآستانة. وللموعد أهمية خاصة، فذلك اليوم هو عيد الربيع الذي تكرّس في التقويم الصبياني يومَ المساواة بين الرجل والمرأة.

قبل أن يغادروا، غيّروا زيّهم. حذفوا منه اللون الأزرق الذي لن يرتدوه إلاّ بعد العثور على «الأم». أمّا الزي الجديد فيتكوّن من صدرية قرمزية لها أكمام وجلباب أبيض وسروال قرمزي مزموم وجزمة من الجلد الليّن وكفوف سوداء. إن دقّقت في الزيّ تجده مصمماً على شاكلة بزّات العسكر الصليبيين لأنّ السمعانيين رأوا إلى رحلتهم للشرق على أنها صليبية جديدة لا من أجل استعادة قبر المسيح بل للعثور على «الأم». ودعا بارو أعضاء «أخوية الأم» إلى أن يستحمّوا عشية السفر كي لا يحملوا معهم إلى الشرق أي نجاسة من نجاسات الغرب.

لم يطل بهم المقام طويلاً في عاصمة السلطنة. طُردوا منها بعد أسبوع من وصولهم. دعاهم أحد الموظفين إلى التجمع لمشاهدة السلطان يؤمّ الصلاة، فلمّا تجمعوا اعتقلهم الشرطيون ورحّلوهم عن العاصمة. عرّج الوفد على إزمير. وفي إزمير، التقوا شاعر البحيرة وقد وهبه السلطان أراضي شاسعة في تلك المدينة. تعاطف الشاعر مع مشروعهم الاجتماعي وقد تعاونوا معاً خلال فتنة ١٨٣١، لكنه فوجئ عندما سمعهم يتحدثون عن الغرض من زيارتهم للشرق: البحث عن المسيح الأنثى في الشرق؟

ـ المسيح الأنثى؟ لقد وجدتها! زرتها في أيلول من العام الماضي ١٨٣٢. إنها الليدي الإنكليزية الساكنة في جبل لبنان. عجلّوا، اذهبوا إليها.

تموز ١٨٣٣ ـ سمعان في الضيعة

بعد سماعه رواية شاعر البحيرة، حسم بارو أمره بأنّ المسيح الأنثى هي هي تلك السِتّ الإنكليزية المتنسّكة في جبال لبنان. بعث إليها بوفد من الصحابة ضم الطبيب كونيا وغرانال وطوماس أوربان.

عندما أطلّ الوفد السمعاني على منزل «الست» ألْفوا ديراً كبيراً أشبه بقلعة. بعد هطول الليل، أطلّت عليهم تماماً كما وصفها شاعر البحيرة. تحتفظ بقسط لا بأس به من جاذبيتها رغم سنيها السبع والخمسين بوجهها الأبيض وقامتها الفارعة وبالعمامة الكبيرة التي تعتمرها. أحسنتْ وفادتهم وتكريمهم. حمل الوفد من «الأب» طاقم سُفرة من الفضة الخالصة لكن «الست» اعتذرت عن عدم قبول الهدية.

وضعت في تصرفهم الخيل والأدلة للتجوال في الجبل حيث أمضوا أسبوعاً. ثم عادوا إليها في جون. في لقاء الوداع، أمرتْ لهم بالشراب والغليون والقهوة وماء الزهر على عادات تلك البلاد، ثمّ فاجأتهم بالقول إنهم سوف يعثرون تأكيداً على «أنثى المسيح». هَمهَم الجماعة مندهشين ومستفهمين ومستبشرين. أسرّت إليهم بالسبيل إلى ذلك واستحلفتهم كتمان السّر.

لم تسفِر الزيارة عن ترتيب لقاء بين «الأب» الفرنساوي وملكة الصحراء الإنكليزية. صعبتْ المصالحة بين انتظارين. الستّ

تنتظر مجيء المسيح لتزفّ إليه بما هي أنثاه، والسيّد يرى نفسه على أنه المسيح، ينتظر ظهورَ أنثاه لتزفّ إليه.

هل أفشى الوفد سرّ الست الإنكليزية إلى الصبياني؟ من يدري. كل ما ندريه أن السر بقي سرّاً!

تموز ١٨٣٣ : «نَفَس» نارجيلة في بيروت

لما نزل الوفد من الجبل إلى بيروت، التقوا الكولونيل سِيْ، المعروف بسليمان باشا، وهو العسكري السابق في جيش نابليون الذي وضع نفسه في خدمة محمد علي باشا. منحه الخديوي رتبة أميرلاي وكلّفه مهمة بناء جيشه الحديث بتجنيد الفلاحين، وأرسله للتنقيب عن الفحم في صعيد مصر. عاد سليمان باشا من «جبل الزيت» وقد اكتشف النفط بدلاً من الفحم وقدّمه إلى باشا مصر على أنه مصدر ممتاز للإنارة. ومنح الباشا سي لقب الباشوية لمساهمته في أبرز حروبه، فأشهر الفرنساوي إسلامه وتكنّى بسليمان باشا. ومن خدماته أنه قمع انتفاضة فلاحية في الصعيد ذات استلهام وهّابي وشارك في الحملة التي شنّها محمد علي على اليونانيين لصالح السلطنة، ثم عيّنه محمد علي رئيساً لأركان حرب الحملة المصرية على بلاد الشام التي قادها ابنه إبراهيم باشا. ولمّا التقاه الوفد السمعاني، كان سليمان باشا عائداً من زيارة لطرسوس برفقة الأمير بشير الشهابي.

دخّن كونيا نَفَسًا من النارجيلة مع سليمان باشا الذي تبرع بـ٩٠٠

غرش للأخوية السمعانية. ولمّا علم بنيّتهم الانتقال إلى مصر، دعاهم إلى السكن عنده في دارته بالقاهرة، وأبدى استعداده لأن يكون «واسطتهم» لدى الإدارة المصرية.

في فتح السبات وسدّه

السبات

خلال الشتاء يحفظ البَيض ـ ويسمّى «البزر» ـ في علب معدنية في أماكن مرتفعة لا تتجاوز الحرارة فيها ٨ درجات سنتيغراد منعاً لتفقيسه قبل الأوان. «بعِيد البشارة تتفرّق البذارة» يقول المثل. يقع عيد البشارة في الخامس والعشرين من نيسان. في ذلك اليوم، يبدأ توزيع البزر. وفي أيار يجري تفقيس البيض. ولكي يفقس البزر، يحتاج إلى الدفء والهواء النقي. لذا ينقل من أعالي الجبال إلى مناطق ذات مناخ أكثر اعتدالاً، لأنّه إذا كان الربيع بارداً، يزرقّ البزر ويتقيّح.

١٨٣٣ ـ في الطريق إلى الشرق

بعدما خرج من السجن مطلع آب ١٨٣٣، شدّ الصبياني الرحال إلى ليون في طريقه إلى مارسيليا. في عاصمة الحرير

والثورات، تقدمت منه عشرون امرأة من أخوية «نساء الأم» وسلّمته رئيستهن كلوريند روجيه علامة «قَطْع العزوبية» إعلانًا لانتهاء فترة العزوبية التي أعلنها «الأب» في مينِلمونطان يوم الثالث من آذار ١٨٣٢. لم تقطع كلوريند روجيه عزوبية «الأب» فقط بالعلامة. قطعتها بالعلاقة.

أيلول ١٨٣٣ غادر الصبياني إلى مصر برفقة صديقه القديم التاجر هولستِين وميشال شوالييه والمهندسين المدنيين فورنيل ولامبير والمهندسين الزراعيين أوليفييه ويوتي. حيّت صحيفة «صدى المعمل» القريبة من السمعانيين مرور الوفد بلِيون في طريقه إلى مصر. وكتبت يوم ١٥ أيلول ١٨٣٣ أن الرحلة تطمح إلى «أن تشقّ قناةً في صحراء تعبر آلاف الأميال من أجل وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، فتصير أوروبا بذلك جارة للهند وقد تقلّصت المسافة إليها». وأضافت «هوذا العمل الذي يريد الأب آنفانتان أن ينفّذه مع رجال عظيمي القَدْر، وإن كانوا شحيحي الموارد المالية».

احتلّ مفهوم الحضارة مركز الصدارة في عقيدة السمعانيين. أرادوا نشر الحضارة في زوايا الدنيا الأربع وتغطية الكرة الأرضية بشبكة من سكك الحديد ومولّدات الكهرباء ومناجم الذهب والفضة. غير أن الدائرة الحضارية الرئيسية عندهم كانت البحر الأبيض المتوسط. تصوّروا البحر الأبيض المتوسط على أنه «سرير الزوجية بين الشرق والغرب»، على حد تعبير شوفالييه صاحب نظرية «النظام المتوسطي» الذي تصوّر البحر

بمثابة السرير الزوجي بين الشرق والغرب الذي هو قرين زواج الروح والجسد في المسيحية حيث الشرق هو الجسد والغرب هو الروح.

ومصر بوابة الشرق. تراءت لهم رحلتهم إلى مصر بما هي استعادة لرحلة بونابرت عام ١٧٩٠ وتكملة لها. ورأوا إلى حاكمها محمد علي باشا على أنه مكمّل رسالة نابليون. «اليوم، يجب تلقيح مصر محمد علي»، كتب الصبياني، «لن نفكّ ألغازَ الخط الهيروغليفي لمجدها الغابر وإنما سوف نحفر على أرضها علامات ازدهارها اللاحق». ورأى أحد «الآباء»، إسماعيل عربان، أنّ خلاص مصر لن يكون إلا في التصنيع. كتب: «ما يجب تعليمه للشرقيين هو العمل، ولذلك ينبغي أن يزال من مؤسساتهم الدينية والسياسية كل ما يعوق نمو الصناعة، يجب تعريفهم على قيمة المال ليس بما هو وسيلة للمتعة فقط، وإنما بما هو وسيلة للعمل خصوصا».

ولم تكن مغامرة السمعانيين المصرية براءً من أغراض سياسية داخلية، فقد يئس الصبياني من إمكان تغيير الأوضاع الفرنسية في ظل ملكية لوي فيليب، خصوصاً بعدما غادر زميله لافِيت رئاسة الوزارة. رأى إلى الرحلة المصرية على أنها مرحلة انتقالية تمهيداً للانقضاض على السلطة في فرنسا تيمُنّاً بسابقة البونابارتي الأول عند عودته من بلاد النيل.

١٨٣٤ ـ القاهرة: تمثال للمرأة

وجد الصبياني في مشروع الخديوي المصري تأميم الأراضي وتعويض الملاك ما داموا هم على قيد الحياة تطبيقاً لفكرته عن إلغاء حق الوراثة. غير أن محمد علي رفض الاجتماع بهم. توجس منهم. وراء كونيّة تصوّراتهم لاح له شبح المصالح الاستعمارية الأوروبية التي كان يرتاب منها أيّما ريبة. أراد طردهم من مصر، لكن القنصل الفرنسي في الإسكندرية، فردينان دُ لسبس، أقنعه بالعدول عن ذلك. والقنصل متعاطف مع الصبيانيين. بل قيل إنه واحد منهم.

انسجاماً مع مهمتهم الأصلية بحثاً عن المسيح الأنثى، فكّر الصبيانيون بتشييد نصب شاهق لامرأة جبارة في منطقة الأهرامات بالجيزة تضاهي الأهرامات حجماً وجمالاً. ساروا في ذلك على غرار ثوار باريس الذين تعبّدوا للمرأة ورمزوا بالمرأة إلى الثورة، وسمّوها «ماريان»، ونصبوا لها التماثيل. أرادوا نقل الطقس إلى مصر. فتخيّلوا التمثال الجبار معبداً لعبادة الأنثى ولاستقبال المسيح الأنثى. تصوّر الفنان ماشرو، أحد أعضاء البعثة، تمثال المرأة أعلى من الهرم الكبير، حاسرة الصدر، متحدّية النهدين، منتصبة القامة، مهيبة القوام تدوس بقدم على كرة أرضية ضخمة، وتعتمر قلنسوة عاميات باريس الثائرات، وتمسك بيدها الصولجان فيما يدها الأخرى تعلو كرة ضخمة من البلّور. وفي صورة أخرى، تراءت المرأة لماشرو

مرتدية زياً شبه عسكري وقد بدت حمّالتا ثدييها أشبه بدرعين، تنفرج فتحة ثوبها عند الساقين عن بوابة المعبد.

١٨٣٤ ـ مصر: في شَقٍّ وَسدّ

طال انتظار الصبيانيين لظهور المسيح الأنثى. لم تظهر. التفتوا إلى شؤون أكثر دنيوية. فجأة، قَبِل محمد علي باشا أن يفاوض السمعانيون عدداً من الوزراء والمسؤولين في إدارته، ثمّ وافق على استقبال فورنيل. نُصِح فورنيل بأن لا يثير قصة شق القناة مع الباشا، فاكتفى بأن اقترح عليه بناء خط سكة حديد، فإذا الباشا قد أعطى امتياز بناء خط سكة حديد إلى شركة بريطانية، فاقترح فورنيل إذذاك بناء سدّ على النيل، فوعد الباشا بدرس الاقتراح.

انكبّ الصبياني على رسم التصاميم لمشروع السدّ. وضع خطة لبناء «جيوش عمالية» من الفلاحين المصريين جرياً على اعتماد الاشتراكيين الفرنسيين النموذج العسكري لتأطير العمال. وخطرت له فكرة تهديم أحد الأهرامات واستخدام حجارته لبناء السد. نُصِح بالعدول عنها حرصاً على سلامة عقله وحياته. وفي شباط من ذلك العام، لما وافق الباشا على بناء السد عند ذراعي النيل في دمياط، انتقل الصبياني إلى منطقة السد حيث ذاع صيته ونمت شعبيته بين عمال الورشة وفلاحي المنطقة فلقّبوه «سيّدنا أبو الدنيا الفرنساوي».

وعند قدوم بعثة جديدة من الصبيانيين إلى مصر أرسِلوا جميعاً إلى منطقة السد، وبينهم عدد من النساء. وكان عدد أفراد البعثة

قد ناهز الخمسة والخمسين بين رجل وامرأة، بينهم رجال أعمال ومهندسون زراعيون يريدون إنشاء مزارع نموذجية، وعلماء معادن وفنانون وصحافيون وكتاب ومستشرقون ومحامون وموسيقيون. وقد جنّ أحدهم، وهو مهندس زراعي فرحّل إلى بلاده.

القاهرة: احتفال بونابارتي

١٥ آب ١٨٣٤. وضع الحجر الأساس للسدّ على النيل في كفر منصور. أعلن ذلك اليوم عطلة لعمال السدّ لأنه صادف عيد ميلاد البونابارتي الأول. وفي القاهرة وضِع حجرُ الأساس لكلّية الهندسة.

احتفل السمعانيون بفاتح مصر الأول في حفل عشاء مهيب ترأسه الصبياني. استجلس إلى جانبه نائب القنصل الفرنسي في مصر فردينان دُ لسبس، صديق الصبياني، وسليل أسرة من الدبلوماسيين بدأ حياته المهنية في لشبونة وإسبانيا. و دُ هذا هو ابن عم دوقة دُ مونتيخو، والدة أوجيني، زوجة الأمير لوي نابليون، ابن شقيق صاحب المناسبة، نابليون بونابرت. وهو رجل واثق من نفسه حد العجرفة، أمضى فترة الثلاثينيات في مصر والإسكندرية والقاهرة، وعيّن قنصلاً لفرنسا عام ١٨٣٥ حيث أشرف على تنمية العلاقات بين فرنسا ومحمد علي وقد أخذ الخديوي يتقرّب من الفرنساويين، حاقداً على الإنكليز لأنهم حرموه من الانتصار الكبير باحتلال اسطنبول.

وبين مدعوي الشرف في الحفل الجنرال دُ بوفور ـ اسمه الكامل شارل ماري نابليون دُ بوفور دُ أوپول ـ يعرّب تسهيلاً للفظ إلى «أبو فور الهابول». والضابط الشاب الأرستقراطي الأصل عائد للتوّ من حملة احتلال فرنسا للجزائر ومفصول حديثاً إلى مهمته المصرية رئيساً لأركان سليمان باشا قائد حملة إبراهيم باشا في سورية.

إلى الثلاثة ضمّ الحفل سبعَة عشر من الصحابة السمعانيين. وفي ذلك العشاء الذي عُمّد «عشاءً نابليونياً»، استهلك المحتفلون ١٨ زجاجة شامبانيا و١٥ زجاجة نبيذ «بورغوندي» و٢٠ زجاجة نبيذ متفرق، ونمي أنّ روائح حشيشة الكيف كانت بمثابة البخور للمحتفلين.

منام السيّد

أنعظ زبرٌ معدني غليظ عظيم الغلظة يتحرك على قاعدة جبارة من العتلات والعجلات والرافعات الفولاذية وأخد ينتصب وينتصب، ثم اتجه نحو الأسفل وَعَبَر البحر المتوسط نحو الجسد الأنثوي المستلقي جنوب البحر فاسخاً الفخذين واضعاً قدماً في آسيا وقدماً في أفريقيا وبين الفخذين شقّ مختوم. وعندما ارتطم الزبر أوّل مرة بالِشق المختوم، أطلق الجسد صرخة عظيمة. ثم أخذ رأس الزبر الفولاذي المدبب ينحر اللحم الرخو نحراً فانفلقت الشفرتان وبان اللحم النيء. لم ينشقّ البحر كما أراد الرب لموسى. تمزّق الغشاء وانشقّت

اليابسة عن شفرتين غليظتين والتقى البحران وامتزجت المياه في عصف من الأمواه العاتية وتطايُر الزَبَد، وكان لالتقائهما زلزلةٌ مهولة عندما خرق الزبر الفولاذي غشاء الفرج ليلج الأنبوب النسائي. ثم أخذ الزبر يدحم دحماً، فتطايرت شظايا اللحم والبشرة وأخذ الجسد يدمى ويختلط الدم النافر منه بمياه البحر المالحة وبالمني الأخضر الذي كان يقذفه الزبر الفولاذي بلا انقطاع وهو لا يكفّ عن الطعن والسلّ تخرج مع انسلاله شظايا لحم وكتل دم متجمّد عالقة على رأسه.

لمّا أفاق من المنام، تراءى له أنّ الشقّ الكوني يقع في منطقة السويس، حيث يجب أن يتحقق أخيراً الحلم الألفي بشق قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر. كتب: «في السويس... سوف نرتكب الفعل الذي ينتظره العالم بأسره للاعتراف لنا بأننا ذكور! وفي السويس، سوف «يمتزج ماء الشرق الأنثى بماء الغرب الذكر».

كلّف مهندسيه دراسة منطقة الشق وذهب معهم لمراقبة القياسات ورسم الخرائط.

باريس: أنثى للسيّد

لانشغالهم بشقوق وسدود، تناسى سمعانيو مصر البحث عن المسيح الأنثى، لكنّ الباقين في مينِلمونطان ظلوا مشغولين في البحث.

ذات يوم، استدعي السمعانيون على عجل للحضور إلى قاعة الاجتماعات. وإذ تجمعوا، ظهرت عليهم صبية رائعة الجمال، شقراء الشعر، مرسلته على كتفيها ترتدي ثوباً أزرق يلفّ جسدها مثل آلهة الإغريق وعلى رأسها إكليل من الزهور البيضاء. عرّفت الغريبة عن نفسها أن اسمها إميلي ولها من العمر واحدة وعشرون سنة وهي عذراء، وأعلنت أنها تطلب فارساً سمعانياً يرافقها إلى مصر لتَهب عذرتها إلى الصبياني وتتعلم على يده الحبّ الجديد.. وبحركة فجائية، خلعت إميلي ثوبها وكشّفت عن جسد غضّ أبيض خلاب، فانطلقت الهمهمات جذلى من أفواه الصحابة والأبناء المشدوهين وما لبثت أن تحوّلت إلى آهات قبل أن ينطلق من حناجرهم المشرئبة احد أناشيدهم النسوية: «تعالي بيننا/ أيتها المرأة اللذيذة الأبيّة/ ننشر على الكون السلام».

علّقوا الاجتماع ليدرسوا طلب البتول. وفي الاجتماع التالي، المخصص لاختيار إميلي الفارس الذي سوف يصحبها إلى مصر، لم يتقدم من حاز على رضاها، فارفضّ الاجتماع على أن يحسم الأمر في اجتماع لاحق. وقع السمعانيون في حيص بيص، فإذا هم الباحثون عن أنثى للسيّد عاجزون عن العثور على فارس لأنثى السيّد. لم يُحسم الأمر في الاجتماع اللاحق، فما إن بدأ حتى إقتحمت القاعة امرأة عرّفت عن نفسها على أنها والدة العذراء إميلي، وسحبت ابنتها من يدها وخرجت بها وهي تعتذر نيابة عن إبنتها الطائشة أمام القوم المشدوهين.

١٨٣٤ ـ ليون: الأسبوع الدامي

بعد ٢٦ شهراً على انتفاضاتهم الأولى، عاود عمال الحرير في ليون الكرّة معلنين الإضراب العام. وقعت اعتقالات عديدة في صفوفهم، لكنهم عند بدء المحاكمات، تجمعوا حول المحكمة يوم ٩ نيسان ١٨٣٤. أطلق الجنود النار على الجمع. هكذا بدأ «أسبوع ليون الدامي» سيطر خلاله العمال على مدينتهم ونصبوا المتاريس. قاوم لا أكثر من ألف ثائر هجمات عشرة آلاف جندي مزودين بالمدفعية الثقيلة. مع ذلك، احتلّ الثوار المزيد من الأحياء فيما القوات النظامية تنسحب من حيّ تلو حيّ إلى أن احتلّ الثوار ثكنة المدينة.

حاصر الجيش المدينة وقصفها بالمدفعية. وانتقل يوم ١٢ نيسان إلى الهجوم، وفي صباح الرابع عشر منه استكمل احتلال المدينة بعدما ارتكب حمّام دم. القتلى بالمئات. في السجون قرابة ألف معتقل قدّموا لمحاكمات ضخمة استمرت من آب ١٨٣٥ إلى كانون الثاني ١٨٣٦ صدرت خلالها أحكام قاسية بحق الثوار. وسدّدت ضربة قاسية للحركة العمالية والحركة الجمهورية في المدينة.

رفض سمعانيو ليون مجدداً المشاركة في انتفاضة العام ١٨٣٤. تذرّعوا بالذريعة إياها التي أدّت إلى إحجامهم عن المشاركة في الانتفاضة الأولى: اللاعنف.

١٨٣٥ : مصر زمن الطاعون

قرر فارس قراءة النحو فأصيب بالرمد. لما برأ منه قرأ على الشيخ مصطفى. وكان مصاباً بمرض الديدان يتمعّص منه وقت القراءة والشيخ يظن أن هذا بسبب النحو.

وبعد قراءة النحو، راجعه وجع العينين، فلما أفاق رأى أن يقرأ «شرح التلخيص في المعاني» على الشيخ محمد. أصابته الحكّة فنصحه الشيخ بأن يطلي جسمه بخراء الكلاب ففعل.

قرّر أن يقرأ «شرح السلّم» للأخضري في المنطق، فشرع في قراءته على الشيخ محمود فأصابته الهيضة ـ الهواء الأصفر. بعد ثلاثين يوماً، انتشر الوباء في كل مصر. يموت به كل يوم ألوف.

سار إلى الريف ومكث فترة ثم عاد بعدما خفّ الوباء، وعاد إلى دراسة المنطق. عاوده المرض. رآه أحد معارفه من الفرنساوية، وهو طبيب مشهور في مصر، فقرّر أن يشفيه شرط أن يعلّم له ابنه العربية.

ذهب إلى الإسكندرية واجتمع بأحد البروتسطانت الذي طلب منه أن يعلّم بعض التلاميذ عنده في القاهرة، ففعل.

قرأ علم العروض على الشيخ محمد، وما كاد يختمه حتى فشا الطاعون في مصر.

حصد الوباء عمال السد بالمئات. تفانى السمعانيون في مكافحة

الوباء والاعتناء بضحاياه، وأبدوا البسالة ذاتها والغيرية ذاتها التي أبدوها في باريس عندما ضربتها الكوليرا. بقيت معظم السمعانيات في القاهرة للاعتناء بالمصابين. ومات من الوفد عدد من الأعضاء بينهم المهندس الرئيسي للسد، هوارت.

لجأ «السيد» إلى الأقصر حيث قضى جلّ وقته يتلصص على النساء، فطارده الأهالي من قرية إلى قرية حتى قرّر التعبّد أخيراً في معبد طِيبة بالكرنك.

ولمّا عاد إلى القاهرة سكن بيتاً متواضعاً في أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة ولبس الزيّ العربي واعتمر طربوشاً وأخذ يتجوّل في الأزقة الضيّقة متمنطقاً بسيف.

١٨٣٥ ـ القاهرة: العشاء الأخير

يوم ٨ شباط من العام ١٨٣٥، احتفل السمعانيون بعيد ميلاد السيّد في حفلة صاخبة تخللها الرقص وفاحت فيها رائحة الحشيش. وكان الاحتفال بمثابة حفلة وداع لمصر.

توسط سيّدنا أبو الدنيا الفرنساوي المائدة المستطيلة الكبيرة وتحلّق حوله الصحابة. لم يقل لأيّ منهم: «سوف تتنكر لي قبل صياح الديك»، لكن المشهد كان شديد الشبه بـ«العشاء الأخير» الذي أقامه سيد آخر قبل اعتقاله على يد الجنود.

عن يمين الأب استجلس **طوما أوربان (إسماعيل العربان)** المولود في ٣١ كانون الأول ١٨١٢ في غويانا من علاقة غير

شرعية بين قبطان فرنسي ومولّدة حرة من أبناء البلاد تتحدر من سلالة من العبيد السود. درس في مارسيليا وغويانا. حاول المزاوجة بين أصليه الكريولي والفرنسي، وبين ديانتيه المسيحية والوثنية. في مينِلمونطان، تميز العربان بالأشعار التي نظمها في مديح المرأة السوداء. وفي مصر، تعلّق بامرأة مسلمة فمانع أخوها في زواجها منه، فعرّضت نفسها قصداً للطاعون وماتت. حزناً عليها ووفاءً لها، قرر العربان إشهار إسلامه وتسمى إسماعيل.

وعن يسار «الأب»، جلس المهندس **هنري فورنيل** المفاوض باسم السمعانيين مع الإدارة المصرية. وتوزع الباقون على طرفي المائدة. وهذا هو الموسيقار **فيليسيان دافيد**. وصل مصر حاملاً بيانو معدنياً ونقل الموسيقى الاستشراقية إلى فرنسا. من أشهر أعماله «سيمفونية الصحراء» (١٨٤٤). عرف عنه أنه استوحى شخصية الصبياني في بعض أعماله مثل «كريستوفر كولمبس» و«موسى».

إلى جانب دافيد، استجلس **جوزيف ماشرو**، المعروف بـ«فنان البروليتاريا»، وهو مصوّر كاريكاتوري يهزأ في رسومه من البرجوازيين ورجال الدين. عمل أستاذاً لمادة التصوير في مدرسة الخيّالة في الجيزة. تراءى له أنه كان مسلماً في حياة سابقة عاشها على الأرض فأشهر إسلامه وتسمّى «محمداً المهدي» وتزوج من امرأة مسلمة، عائشة، ورزق منها ولداً وأربع بنات.

إلى يمين فورنيل جلس **شارل لامبير** المعروف بـ«لامبير بيك». وهو ابن تاجر متواضع من الشمال الفرنسي، درس في متعددة الحيل ومدرسة المناجم. عمل مهندس مناجم عند محمد علي باشا، وأسس مدرسة متعددة الحيل ومدرسة المناجم في مصر. تمتع بثقة خديوي مصر الذي عيّنه في مهمات عديدة، منها سفيراً فوق العودة لمصر في أوروبا ثم أميراً في قصره. مارس لامبير بيك تعدد النساء. هجر زوجته البطلة الجمهورية پولين رولان قبل مجيئه إلى مصر. وفي مصر عشّق على سوزان ويلكان وله منها ابن، وعلى جوديت غريغوار، وكارولين كاربونيل إلى أن تزوج من امرأة قبطية مصرية اسمها سبيخة، وولد له منها ولد سمّي سعيد ـ يوسف ـ بروسبير. لرفضه التوريث، أوصى لامبير بيك بكل ثروته للمدرسة الحربية في مصر.

بين الصحابة توزعت نساء «أخوية الأم». هذه **سوزان فويلكان**، عاملة خياطة من الأوائل. أدارت صحيفة نسوية سمعانية بعنوان «المرأة الجديدة». انفصلت عن زوجها حبّياً بعدما اعترف لها بأنه يحبّ امرأة أخرى. أسست «رابطة النساء البروليتاريات» وخاضت معركة فرض المساواة بين النساء والرجال داخل الكنيسة السمعانية. حرّضت على الرجال وإتهمتهم بأنهم يخشون النساء ويرون فيهن الفتنة والفوضى. في مصر تولعت بحشيشة الكيف والتسكع في الأسواق. درست التمريض وعملت مساعدة مع **الدكتور دوساپ** (الطبيب الفرنسي المقرّب من السمعانيين، والملقّب «ابو دقن»). وأبلت خير بلاء إنساني

خلال وباء الطاعون. رفضت مغادرة القاهرة. عملت حثيثاً لبناء مستشفى خاص بالنساء. تؤمن بأن تحرير المرأة المصرية يكون عن طريق التعليم. عشّقت على لامبير والصبياني معاً وطبّقت تعاليم «السيد» عن ممارسة الحب الحرّ والتكتم على أسماء آباء أطفالها، فسمّت ابنها على اسم ثلاثة من السمعانيين. وهذه **سيسيل فورنيل**، زوجة المهندس هنري فورنيل وقائدة «أخوية الأم» السمعانيات. وإلى جانبها **كارولين كاربونيل**، زوجة عامل نسيج من المناضلين السمعانيين، انضمت إلى البعثة في مصر هرباً من حماتها. ولدت لها ابنة من لامبير. وهي من عشيقات الصبياني .تشاهدها في حديث هامس مع **أنجيليك جافاري**، من مؤسسات أخوية «نساء الأم». ولد لها ولد سمّته على اسمي إسماعيل عربان والصبياني. **جوديث غريغوار**، ابنة غير شرعية وزوجة خياط باريسي. ارتبطت بعلاقة جنسية بسليمان باشا وولدت لها ابنة من شارل لامبير سمتها آلين ـ بروسبير ـ بينيلوب ـ غريغوار. حتى الأولاد الذين لم يولدوا من صلب سيدنا أبو الدنيا كانوا يحملون اسمه تبرّكاً. سعت جوديث إلى بناء مدرسة نسوية في مصر. إلى جانبها جلست **كلوريند روجيه**، من مؤسِّسات أخوية «نساء الأم». وصلت إلى مصر مع كارولين وجوديث عبر بيروت ودمياط بعدما عملن لفترة في الجزائر لدفع أجور الرحلة. وعرفن بارتدائهن ثياب الرجال. وها هي آخر الواصلات، **أوغاريت كوسيدير**، التي أشبعت غرائز السمعانيين العاملين في السدّ بمن فيهم سيّد الفتح والسدّ نفسه. ولم تشبع هي من السدّ.

وصل عدد أعضاء البعثة إلى ثمانين نفراً نساءً ورجالاً. وفي ذلك الحفل، افتقدوا الصحافية والمناضلة النسوية **كلير دامار** التي انتحرت مع عشيقها بيار دُ إيسار يوم انتهائها من تأليف كتابها «قانوني للمستقبل» وهو مؤلفٌ يبحث في الزواج والأبوة واللذة تدعو مؤلفته إلى الحب الحر وفترة تجربة قبل الزواج وترفض فكرة الأبوة لأنها مشكوك في أمرها ويصعب التحقق منها بدقة أصلاً. ومثلها مثل سائر السمعانيين، رفضت كلير مبدأ الملكية الفردية والإرث. تركت رسالة إلى سوزان فويلكان تطلب فيها تسليم مخطوطة الكتاب إلى المطبعة، وما من تفسير لانتحارها. راجت شائعات عن أنها انتحرت لخيبة أملها بالصبيانيين.

١٨٣٦ ـ مصر: بلا فتح ولا سدّ

ختم العشاء السرّي رحلة السمعانيين إلى مصر. أخذوا يعودون إلى بلادهم واحداً واحداً. ساد الغضب في مصر ضد الفرنسيين وانعكس ريبة من السمعانيين الذين وجدوا أنفسهم في خضمّ التنافس الفرنسي ـ الإنكليزي على مصر. وبسبب مصاعب مصر المالية، قرر الخديوي التخلّي عن مشروع بناء السد.

تحطمت منامات سيدنا أبو الدنيا الفرنساوي، وانقلبت أفكاره رأساً على عقب. صار يرى أن تحرر مصر يستلزم إبادة الجنس التركي بعملية عسكرية فرنساوية ـ بريطانية تحتل مصر. حتى إنه دعا إلى تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ أوروبية وروسية:

الآستانة وتركيا للروس، ومعها البحر الأحمر وآسيا الوسطى والصين. وللأوروبيين ــ الإنكليز والفرنسيين والألمان ــ البحر الأبيض المتوسط والهند وأفريقيا.

ترك السمعانيون منشآت ومنجزات قيّمة في مصر. صمّم سيّدنا أبو الدنيا الفرنساوي مشروع بناء نظام تعليمي متكامل على النموذج الفرنسي يمد قطاع الدولة وجهاز الإدارة بالكفاءات ويضم جملة من المدارس والكليات والمعاهد، أبرزها كلية متعددة الحيل، كلية الجسور والخنادق، كلية المناجم، كليات البحرية، والمدفعية، والهندسة العسكرية، والمعهد الزراعي والمستشفيات إلخ. تعمل جميعها تحت إشراف مجلس أعلى.

عاد السمعانيون من مصر وهم لا شقّاً فتحوا ولا فتحة سدّوا. ولم يتوفقوا بغير شقوق نسائهم وعشيقاتهم في «أخوية الأم» وشقوق بعض الجواري والعوالم والنساء المصريات من مسلمات وقبطيات.

لكن عين الصبياني ظلّت عالقة بالشق.



الفصل الرابع

عن حرير وحديد

الدودة الشرهة

بعد الخامس والعشرين من نيسان، يوضع البزر في المداخن. والمدخنة في القرية غرفة جماعية خاصة لتفقيس البزر، توقد فيها النار بحيث تكون الحرارة بين ٢٣ و ٢٤ درجة مئوية ويجري تغيير الهواء عشر مرات في اليوم. في المدخنة، يوضع البزر على لوح خشبي يسمّى «الخريطة» فيفقس خلال ثلاثة أو أربعة أيام. وتعطي أوقية البزر (٢٥ غراماً) نحو ٣٠ ألف دودة تحتاج تربيتها إلى لا أقل من طن واحد من ورق التوت، وتنتج أوقية البزر ٦٣ كيلوغراماً من الشرانق.

بعد أيام من تفقيس البزر، تُنقل دويدات القزّ من «الخرائط» وتوضع على أطباق من القصب المضفور أو الخشب مطلية بروث البقر المروّب وتُرفَع على رفوف خشبية مركزة على صقالات فوق عُمُد تسمّى «ركاز» مصنوعة من شجر الحَور أو

الصنوبر. في تلك الأطباق، تقتات الدودة من أوراق شجر التوت وتنمو. وورق شجر التوت الأبيض هو الورق المفضّل لإطعام دود القزّ. تعطي شجرة توت في حالة جيدة، يراوح عمرها الخامسة عشرة والعشرين، ما زنته ٨٠ إلى ١٠٠ كيلوغرام من الورق في السنة.

ودودة القز شرهة. تزداد شراهة كلما كان الطقس حاراً. تلتهم كميات كبيرة من أحمال ورق التوت. تصوم ثم تعاود التهام الأوراق. وهكذا دواليك مدة أربعين يوماً تلتهم خلالها ما يعادل وزنها من الورق كل يوم. تغيّر الدودة جلدها أكثر من مرة خلال دورتها هذه وهي تستهلك قسماً من الغذاء من أجل نموها وتخزّن القسم الآخر لفترة الصيام عند تحولها إلى يرقة ففراشة.

يوصي المثل الشعبي المرأة وصايا محددة لإطعام الدود على مدار الأسبوع: «ليلة الخمسة، كبّري الكمشة وليلة السِتّة، اكمشي وحطّي وليلة السَبعة، ما لها شَبعة». يتوجه المثل الشعبي إلى المرأة، لأن تربية دود القزّ ترتكز على عمل المرأة التي تتولى كافة مراحله: التدخين، التفقيس، مشق ورق التوت، نقل أحمال الورق، هَرْم الورق على المَهْرَمة (وهي سكين حادة مثبتة إلى لوح خشبي)، الإطعام، التربية، والإشراف على شرنقة الديدان على أعذاق الوزّال والبلاّن. تأكيداً على الدور الحاسم للمرأة في تربية دود القز، من أوله إلى منتهاه، يقول المثل «زهّر البلاّن وصار الحكم للنسوان».

١٨٣٧ : هدنة مع الأمير

بنى الأمير عبد القادر بن محيي الدين دولة غطّت ثلثي مساحة الجزائر العثمانية، وأنشأ مدينة «تاقدمت» عاصمة له، حصّنها وحوّلها مركزاً تجارياً لبيع الحبوب بحيث يسيطر على أبناء القبائل من خلال حاجاتهم المادية. واستقدم الأجانب والأتراك واليهود لتسيير مصانع البارود ومدابغ الجلود وتربية الخيل وصهر المدافع. وصك النقود باسمه. وقرّر توزيع الغنيمة على المهاجرين والفقراء وأن يبقي الخمس لله ونبيّه، أي للخزنة واليتامى والمساكين. وأفتى بتحريم الخمر والميسر والتبغ.

سرعان ما أدركت باريس استحالة الانتصار على الأمير، فأوفدت الجنرال توما ـ روبير بيجو دُ لا بيكونوري حاكماً عسكرياً على الجزائر مكلّفاً بمهمة مزدوجة: مقاتلة عبد القادر وعقد معاهدة معه. ولم يكن اختيار البيكونوري اعتباطياً، فالرجل خدم في حملة جيش نابليون الإسبانية وبرّز في قتال الثوار الوطنيين الإسبان فبات خبيراً في الحرب غير النظامية، أو ما يسمّى «حرب العصابات». انتهت خدمته العسكرية بعد سقوط نابليون إلى أن وفّرت له ثورة تموز ١٨٣٠ الفرصة لتجديدها. انتخب إلى الجمعية الوطنية وتميّز بمناهضته العنيفة للديموقراطية وبدوره في قمع الانتفاضات الشعبية والعمّالية. وأعيد انتخابه نائباً عام ١٨٣٧ أيضاً. والجنرال معروف بعدوانيته، فقد قتل نائباً في البرلمان في مبارزة بالسيف ذوداً عن شرف. وهو معادٍ لكل ما يمتّ للحرير بصلة لأسباب لا

تزال مجهولة، فقد اتهم بالتحريض على اغتيال الأصدقاء الباريسيين لتجار الحرير في ليون.

٣١ أيار من العام ١٨٣٧. وقّع الأمير مع الجنرال البيكونوري معاهدة في بلدة الطافنة اعترفت فرنسا بموجبها بدولة عبد القادر وسيادتها على إقليم وهران وتلمسان وقلعة مشور وجزيرة تشكون وقسم كبير من إقليم الجزائر. واعترف الأمير بدوره بملك فرنسا وبسيطرتها على مستغانم وأرزيو ومزغران وبون ومدينتي وهران والجزائر.

قال الأمير في تبرير المعاهدة إن الإنسان مصنوع من حرير وحديد. أعجبت به الصحافة الفرنساوية وهللت للمعاهدة حتى إنّ بعض الصحف شبّه الأمير العربي الملتحي ذا الوجه النحيل بالسيّد المسيح.

١٨٣٩ ـ باريس: شق قنوات وتجسير فجوات

عند عودته من مصر، انكفأ سيّدنا أبو الدنيا الفرنساوي عند ابنة عم له في «كروسون» في الجنوب الفرنسي. من هناك صار يزور ابنه الساكن قرب «نيڤير» عند والدته آديل مورلان التي ألحّت على الصبياني في يتزوجها ويستقر في مهنة محترمة. دبّرت له وظيفة مدير للبريد في مارسيليا وعرضت عليه ٢٥ ألف فرنك ليساهم في فتح شركة تجارية. رفض الصبياني العرض لكنه اعترف رسمياً بابنه آرتور دون أن يتزوج من آديل، وعيّن له ثلاثة عرابين من الصحابة. خلال إقامته الجنوبية أخذ «الأب» يتدبّر أوضاعه

المالية. أغدق عليه أغنياء التنظيم بتبرعات سخيّة وعلى رأسهم آرليس ـ ديفور والمصرفي إسحق پيرير. في شباط، عزم دعا ديفور إلى حفل راقص فخم على شرف عودة الصبياني.

مسكينة آدال مورلان على أحلامها البرجوازية الصغيرة في الاستقرار والوظيفة. سيدنا أبو الدنيا الفرنساوي يرى إلى نفسه الآن نبياً لديانة جديدة. وهي تريده موظفاً برجوازياً صغيراً. خاب في فتح وسد شرقيين ولم يفلح في تجييش جماهير غفيرة من العمال والعامة الفرنساويين لتنضم إلى «أخويات» كنيسته الجديدة. لا بأس، سوف يقلب منظوره وجمهوره رأساً على عقب. سوف يعمل على كسب الملوك إلى قضيته. يمّم شطر ذوي التيجان وقال لأتباعه: «هناك قوّتان في العالم، الأنبياء والملوك. وعليهم أن يتعاونوا بدلاً من أن يتحاربوا».

أخذ مدّعي النبّوة يبحث عن ملك يقاسمه السلطان في شراكة السيف والقلم. بدأ بإمبراطور النمسا، الأمّة الكاثوليكية الرسولية التي أناط بها السمعاني مهمة تحقيق السلام في أوروبا. أوفد إليها الشاعر هنريش هاينه الذي شارك في اجتماعات السمعانيين الباريسية. ولما لم يلق أذناً صاغية لدى الإمبراطور، أرسل مبعوثاً إلى مستشار النمسا مِترنيخ. رفض مترنيخ لقاء المبعوث، فالتفت الصبياني شطر ملك الفرنساويين لوي فيليب. كتب إلى جلالته البرجوازية داعياً إياها إلى إقامة سلطة ذوي الكفاءة، التكنقراط. ذلك أن انقلاب الصبياني على أفكاره السابقة قاده إلى الدعوة إلى تجاوز الجمهورية والملكية

على حد سواء، فلا شرعية للسيادة الشعبية ولا للحق الإلهي. الشرعية الوحيدة التي تستحق العناء والتحقيق هي شرعية الكفاءة، فيتعيّن على المليك أن يبرهن عن كفاءاته في هذا العصر الصناعي، فخاطبه في رسالته قائلاً: «كان نابليون ملكاً على الجنود فكُنْ أنتَ ملكاً على العمّال. كان الولاة الذين عيّنهم نابليون يجنِّدون العسكر، فليكن الولاةُ الذين تعيّنهم ملهمي المشاريع الكبرى المفيدة. إن آلة البخار هي الآن مبرّر شرعية الملوك».

انتهت الرسالة، مثلها مثل سابقاتها، إلى ملوك أوروبا وزعمائها الآخرين، في سلة المهملات الملكية. غير أن الصبياني ظل يحلم بأن يستدعيه الملك مستشاراً له أو أن يعيّنه سفيراً في فيينا أو الآستانة فيتيح له الفرصة لتطبيق سياسته ومشاريعه الشرقية. كل ما عرضه عليه الملك منصب وكيل محافظ في إحدى المحافظات الفرنسية. رفض الصبياني العرض وانغلق مجدداً في وحدته ومرارته. لم يطل انكفاؤه. في نهاية عام ١٨٣٩ عُرضتْ عليه عضوية «لجنة الأبحاث والتنقيب» في الجزائر. قبلها وغادر.

جُون: الستّ ملّت الانتظار

ـ من قال لك إنه سيأتي؟ أما مللتِ الانتظار؟ أفنيتِ حياتك، بدّدتِ ثروتك من أجله ولم يأت. . .

وسوس لها شيء في داخلها تلك الأسئلة وهي في حديقتها

السرّية. ومنذ ذلك الحين لم يهدأ لها بال. ازدادت تعلّقاً بكشف الطالع والسحر. توقفت عن القراءة نهائياً. قررت أنّ النجوم وحدها مصدر العلوم المتسامية. تقضي الليالي بطولها في حديقتها تحدق بالنجوم وتستنطقها الأحوال وتنام في النهارات. ظن زوارها أنها تخبلت. صارت تضرب خدمها بقضبان شائكة. غرف بيتها ملأى بالأوساخ، والسراديب يرودها عبيد سود وفي القاعات عشبيون ومنجمّون يعرضون خدماتهم. وتقوم عليهم جميعاً الوصيفة الآنسة وليامز، وهي أشبه بسجينة في جون. علقت بغرام شاب من القرية يخدمهم فأسرّت للست برغبتهما في الزواج، فانفجرت في وجهها معارضة وطردت الشاب من القصر. ذَوَتْ الآنسة وليامز كورقة خريف إلى أن ماتت.

مرضت «الست» وازدادت انعزالاً عن العالم. كانت مصدورة. هزل جسدها وانكمش، ودردتْ أسنانها، وصارت بالكاد تستطيع المشي خارج البيت مع أنها تسعى في الليل إلى حديقتها السرية التي لا يدخلها إلا هي. كانت مفلسة ومديونة لصاحب البيت فأفلس هو بدوره وانتحر ابنه شنقاً لضيق ذات اليد. ثمّ أخذت تبصق الدم ولم تعد تقوى حتى على مغادرة سريرها. ها هي على سريرها وحولها الخدم أخذوا ما ثقل حمله من أثاث. وها هم متكأكئون حولها يتربصون بلحظة تغمض فيها عينيها للإتيان على ما تبقى من ثياب وحلي وآنية وأثاث في غرفتها.

بلغ القنصل البريطاني في بيروت أن «الليدي» تحتضر، فصعد

إلى جون يرافقه المرسل الإنجيلي، المستر طمسون. وصلا عند المساء فإذا هي جثة هامدة وما حولها مسروق خلا ما يزيّن جسدها من حلي، كأن السرّاق خافوا أن يمدّوا أيديهم إلى جسد ميت. وحدها بنتٌ من القرية تبنتها «الست» وربّتها لسنوات تجرأت على أخذ ساعتها وبعض الأوراق.

صلّى المرسل على الجثة ودُفنت عند انتصاف الليل في حديقتها السرّية إلى جانب حبيبها لوستينو، حسب وصيتها. جال القنصل والمرسل في الغرف الخمس والثلاثين التي أقفلها نائب القنصل البريطاني في صيدا منعاً للسرقة فإذا هي مليئة بالزبالة والنفايات. عثروا في إحدى الغرف على نحو خمسين جرّة زيت صنع فرنسا فارغة يعلوها الغبار. وفي غرف أخرى، تكدست عشرات من أسرجة الخيل وقد أكلها العث.

أما أحصنة الستّ المدللة فاشتراها تاجر بيروتي، بما فيها المهرتان اللتان لم يركبهما أحد، الواحدة ذات الدبدبة في جسمها المعدّة لأن يمتطيها المسيح القادم ومهرة الست البيضاء المعدّة لتدخل عليها أورشليم وقد حرّرها المسيح العائد. حوّل التاجر الأحصنة المدللة إلى حيوانات جرّ وما لبثت أن نفقت من الإجهاد.

مع الوقت، صار قصر «الستّ» أطلالاً. تهدمت معظم غرفه وبيعت حجارتها إلى الأهالي. ولم يبق من «الست» غير قبرها وسط أشجار الزيتون وعليه شاهدة نقشت عليها:

«الليدي هستر ستانهوب، ولدت ١٢ آذار ١٧٧٦، توفيت ٢٣ حزيران ١٨٣٩».

١٨٤٠ ـ صبيانيات استعمارية

سكن الصبياني الجزائر العاصمة في منزل بحيّ شعبي وفي خدمته طباخ ومترجم. في الجزائر التقى أحد قدامى مريديه لويس جوردان، وسرعان ما صارت زوجة جوردان الشابة الجميلة أورطانس عشيقة «السيّد». لكن «السيّد» ما لبث أن فرّ من الجزائر العاصمة هرباً من شغف أورطانس الجامح واستقر في قسنطينة.

راودته أفكار كثيرة من وحي استعمار الجزائر وسعى إلى أن يقنع بها الجنرال البيكونوري. رفض هذا أن يلتقيه رغم تدخلات آرليس ـ ديفور والجنرال سان سير، أحد أقرباء السيّد.

لم تطل إقامة الصبياني في الجزائر. عاد إلى بلاده بعد عدة أسابيع من انتقاله إلى قسنطينة وقد أصيب بالزنطاري. قدّم مذكرة طويلة لوزير الحربية ضمنها مئات الصفحات من أفكاره عن استعمار الجزائر. رأى إلى العملية الاستعمارية على أنها تنفيس للصراعات الطبقية في فرنسا ودعا إلى إجلاء الفائض من فقراء باريس وضواحيها إلى الجزائر وتوزيع الأراضي عليهم فيها. ولم ينكر وظيفة استعمار الجزائر في حرف النظر عن المصاعب الاجتماعية والسياسية الداخلية، لكنه شدد على فكرته الأساسية في تبرير الاستعمار: إن شرعية وجود شعب ما على أرض معينة يجب أن تؤول لمن يستثمر الأرض ويزيد من

قيمتها، لا أن تؤول لمن يملك الأرض. وأضاف أن تلك الشرعية لا تُكتسب بالأقدمية. أكد الصبياني أن الجزائر فرنسية ويجب أن تبقى فرنسية ولكن بشرط حسن استثمارها. غير أنه أدان المجازر الجماعية التي ترتكبها قوات الاحتلال بحق العرب وحذّر من اعتماد أساليب الاستعمار الكلاسيكية لاستعباد الشعوب، فليس بالقمع والإخضاع العسكريين يمكن السيطرة على سكان الجزائر. بل إن «غربنتهم» هي أسلم طريق للسيطرة عليهم. وغربنة الجزائر تعني تحويلها إلى حقل اختبار للمشاريع الصناعية الكبرى ولأشكال جديدة من تنظيم العمل.

لكن الصبياني دعا فرنسا في المقابل إلى عدم الاكتفاء بتعليم العرب. عليها أن تتعلم منهم بعض الأشياء: «إذا كنا سوف نعطي العرب، إضافة إلى مبدأ الملكية الفردية تبعنا، بعضاً من الأنانية التي تعتمل فينا، فيجب ألاّ نزيد الجرعة، وعلينا أن نحترم الروح الجماعية التي خسرناها والتي قُدّر للجزائر أن تعيدها إلينا».

وختم الصبياني تقريره تحت شعار«السلام والعمل»: «لننظم السلام ولننظم العمل. هكذا يتحقق استعمار الجزائر وخلاص فرنسا في آن معاً».

١٨٤٠ : حرير الأخوين بورتاليس

يقال في فرنسا: كل طرقات الحرير تقود إلى ليون. ويقال في جبل لبنان: عندما يغيّم الطقس في ليون يمطر في جبل لبنان،

بلد الفيالج. وعندما يتعلق الأمر بمنطق الربح، تتفرع طرق الحرير من ليون إلى حيث أدنى أكلاف للإنتاج. بعيد ثورة «الكانو»، تشجع رجال أعمال من ليون على الانتقال إلى جبل لبنان لتأسيس حلالات الحرير. هناك المناخ مناسب واليد العاملة أرخص مما هي عليه في ليون، ولا خطر من ثورات ما دامت توجد سلطنة عثمانية عتيّة.

وظّفوا أموالهم في الحل والغَزْل بعدما اقتصر التوظيف على التسليف وشراء المحاصيل. عام ١٨٣٦، أسس الكونت دُ لافرته والكونت دُ لامون في حي الدحداح ببيروت حلالة بدائية من عشرة خلاقين يوقد الحطب تحتها، لحقت بها حلالات أكبر وأكثر تطوراً لشركة «الأخوين پورتاليس» في بتاتر وشركة «مورغ دالغ» في عين حمادة وشركة «الأرملة غيران وأولادها» في القريّة وغيرها.

عندما غادر الأخوان نيكولا وجورج پورتاليس فرنسا إلى الشرق قررا اختيار مهنة غير مهنة أبيهما وأخيهما البكر. شغل الأب جان إتيان ماري منصب وزير العدلية أيام البونابارتي الأول، وإليه يعود الفضل في صياغة عدد كبير من القوانين التي تتضمنها «الشرعة النابليونية». وسار البكر جوزيف ماري على خطى والده فشغل مناصب رفيعة في القضاء والإدارة ثم عمل مديراً عاماً للمطبعة الوطنية والمكتبة الوطنية، ورأس وفد التفاوض الفرنسي مع روما الذي أفضى إلى توقيع «الكونكوردا»، التفاهم الشهير الذي أنهى الخلاف المزمن بين

فرنسا والكرسي البابوي عام ١٨١٧. وتقلّد جوزيف لاحقاً مناصب وزارية عدة، منها العدلية والخارجية.

اختار الأخوان نيكولا وجورج التجارة مع الشرق. فتحا محلاً للتجارة في الإسكندرية، وبعد فترة قررا الانتقال من التجارة إلى الصناعة. وصلا ميناء بيروت عام ١٨٣٨ لإنشاء معمل لحل الشرانق وغزل الحرير في جبل لبنان. زارا الأمير بشير فلم يبدِ كبير حماسة للمشروع. فمنحهما شيخ درزي من آل عبد الملك أرضاً في بتاتر قرب بحمدون بنيا عليها معملاً، ثمّ انضم إليهما أخوهما فورتونيه الذي اشترى الحصة الكبرى من المعمل وتولى إدارته.

سكن فورتونيه بتاتر، وإليه يعود الفضل في تطوير المعمل العائلي إلى معمل حديث يعتمد أساليب الحل والغزل الحديثة خدمة لآلة الحياكة الجديدة «جاكار»، ما يقتضي اعتماد «نظام شامبون»: تفتل بموجبه العاملة خيطين متصالبين لإنتاج خيط واحد أكثر كثافة ومتانة. سدّد النظام الجديد ضربة قاضية للغزل القديم المسمى «الغزل العربي» الذي ينتج خيطاً واحداً خشناً وضعيفاً.

ومن ليون استقدم فورتونيه الأخت جيلاس، رئيسة الراهبات العازاريات، وهي أول راهبة من جنسها تدخل البلاد. أسّست له ميتماً يزوّد معمله بعاملات يتامى يعملن بالمجان. ولم تكن علاقته بالمتعاملين معه تخلو من المكر والاحتيال. يقرض

موسم الحرير للمنتجين والسماسرة سلفاً على سبيل الأمانة، بلا سند أو كمبيالة، لعدم ثقته بإمكان التحصيل. وإذ ينكر بعض السماسرة وأصحاب الأملاك أنهم تسلموا المال، يستحلفهم على الإنجيل، فإذا ارتعشت يد الحالِف، عُدّ كاذباً. والحال أن صاحب المعمل يجهّز جهازاً كهربائياً ويضعه تحت الطاولة وينفذ التيار الكهربائي إلى الإنجيل بحيث يشعر كل من يلمسه بالتيار الكهربائي فيرتعش دون أن يُعرف السبب.

لماذا فورتونيه پورتاليس يستحلف على الإنجيل؟ لأنّ أكثر العاملين في اقتصاد الحرير، زرعاً لأشجار التوت وتربيةً وحّلاً للشرانق وغزلاً للحرير وبيعاً للبزر وتصديراً للشرانق والحرير الخام وحياكةً هم من المسيحيين. بل إن استقدام المسيحيين إلى الجبل الدرزي، الذي بدأ مع الأمير فخر الدين معن الثاني، حصل أصلاً لأن أكثر قومه من القبائل العربية المحاربة تأنف العمل اليدوي. ويشهد صاحب كتاب «الحركات» الشيخ حسين غضبان أبو شقرا على ذلك بقوله إن الدروز «أخذوا يستدعون إليهم فلاحين من الطوائف المسيحية يقيمونهم شركاء بالعمولة لاعتمار الأرض واستدرار بركاتها لأن الدروز في ذلك الزمن كانوا يترفعون عن العمل والشغل بأيديهم». حتى إن الأنوثة التي يوحي بها ملمس الحرير وإقبال النساء عليه باتت مذمّة للنصارى عموماً وتعييراً لهم على فِرقتهم عن ميّزات الذكورية المتمثلة بالحرب والقتال. ومن مفاخرات الشيعة على أهل جبل لبنان عموماً ومسيحييه خصوصاً، قولهم: «يحسبون الحرب هي بَيْعَة حرير. وأيش جاب الحرب لغزل الشلل؟».

ديموقراطيات استعمارية

إلى الجزائر وفد أيضاً السيد ألكسي دُ توكفيل، السياسي والنائب في «الجمعية الوطنية» وصاحب المؤلف الشهير «عن الديموقراطية في أميركا» والرجل الذي يقول عن نفسه «ليس لي إلّا شغف واحد: حب الحرية والكرامة الإنسانية». في المذكرة التي بعث بها محب الحرية والكرامة الإنسانية إلى السلطات الفرنسية عن الوضع في الجزائر، دافع عن احتلال الجزائر بطريقة مبتكرة في فن الجدل. حاجج في أن انسحاب فرنسا من الجزائر إهانة لشرفها ولن يعني سوى تسليم الجزائر إلى «دولة مسيحية» أخرى هي إنكلترا. غير أنه ميّز بين مقتضيات الاحتلال ومتطلبات الاستعمار، فالحرب ضرورية للاحتلال أما الاستعمار فيتطلب الاستقرار.

والاستعمار عند الـ دُ يعني أن تكون الجزائر «امتداداً لفرنسا ذاتها وراء البحر الأبيض المتوسط». لكنّ عملية الامتداد هذه لا تعني الاندماج بأي حال، فالدمج مستحيل بين مسلمين ومسيحيين: «يعرف الذين زاروا أفريقيا أنّ ما من صلة وصل مع الأسف بين المجتمع المسلم والمجتمع المسيحي، وإنما هما جسمان متقابلان لكنهما منفصلان كلياً [...] إن دمج الجماعتين السكانيتين أضغاث أحلام لا تراود إلا الذين لم يزوروا المكان». فاقترح الـ دُ نظاماً من التمييز العنصري يقوم على نظامين تشريعيين متمايزين واحد للأوروبيين المسيحيين وواحد للعرب المسلمين. أما من حيث الأسلوب، فإن

الاستعمار في عرف دُ توكفيل لا يتطلّب القسر أو الغصب بل الإغراء وإحياء الأمل وإتاحة الفرص للإثراء عن طريق «تزخيم المشاعر المتولدة عن الملكية الفردية».

ومضى الـ دُ يقول إنه قبل هذا كله يجب تحقيق الغرض الأول للاحتلال وهو الانتصار على عبد القادر الذي يصفه بأنه «ابن الفوضى» و«مزيج من أمير وقديس»، على اعتبار أن أشرّ ما يوصف به إنسان في عرف النائب أن يلقّب بـ «أمير». وللتغلّب على الأمير ـ القديس، أوصى الكاتب باستخدام مزيج من الحيلة والقوة، وزرع بذور الشقاق بين عرب وبربر قبائليين، داعياً إلى استمالة البربر للمشروع الاستعماري عن طريق التجارة. ونصح بتأليب القبائل الواحدة ضد الأخرى، بل شجّع على اللجوء إلى الكذب والرياء وشراء ولاء مشايخ القبائل بواسطة المال تأميناً لنجاح أهداف الاحتلال.

باريس: ابن الأخ ورماد العمّ

لم يعرف الملك البرجوازي يوم هدوء منذ أن استوى على العرش. عجّت السنوات الأولى بالاضطرابات وتكاثرت عليه الانتفاضات والانقلابات من يمين ويسار. في الأرياف، أعلنت الدوقة دُ بيري انتفاضة «الليجيتيميين»، أنصار الردة البوربونية المخلوعة. من جهتهم، أعلن الجمهوريون واليساريون انتفاضتي «الكانو» الأولى والثانية في ليون، وبينهما انتفاضة باريس الجمهورية في حزيران ١٨٣٢ التي سحقها الجنرال موتون مخلفاً لا أقل من ٨٠٠ قتيل. وتعرّض الملك لمحاولتي اغتيال دبّتا

الرعب في الطبقة الحاكمة برمّتها وتلاهما انقلاب بونابرتي فاشل في ستراسبور في ٣٠ تشرين الأول ١٨٣٦ قاده الأمير شارل لوي نابليون بونابرت، ابن أخ نابليون والمطالب بالعرش الأمبراطوري، وقد عرف عنه إدمانه لعب القمار ومعاقرته الخمرة ومعاشرة النساء وصحبة الرعاع والسرقة. فشل الانقلاب واعتقل ابن الأخ ونفي إلى الولايات المتحدة الأميركية. وفي أيار ١٨٣٧ قامت انتفاضة جمهورية نظمتها جمعيات جمهورية سرّيّة، منها «جمعية المواسم» و«عصبة العادلين» بقيادة باربيس وبلانكي، تلتها موجة إضرابات في قطاعات النسيج واللبسة والبناء ارتفعت أثناءها المتاريس في أحياء باريس الحِرَفية والعمالية. وفوق هذه كلها، أمسكت بالبلاد أزمة اقتصادية ناتجة من تنامي الدَين العام تستخدمه البرجوازية المالية للمضاربة على سندات الخزينة ومراكمة الأرباح.

في تلك اللحظة بالذات، وافقت الحكومة البريطانية على نقل رماد نابليون بونابرت من جزيرة سانت هيلينة إلى باريس، فوجدها الملك لوي فيليب مناسبة استثنائية لتعبئة وطنية حول رمز أمبراطوري قد يفيده لتدعيم حكمه المتزعزع وحرف الأنظار عن مصاعبه العديدة. وصلت قارورة الرماد الأمبراطوري على متن الفرقاطة «الدجاجة الجميلة» ودفنت في حفل رسمي مهيب يوم ٦ أيار ١٨٤٠ في معبد «الأنفاليد».

لم تمضِ المناسبة على سلامة. استغلّها لوي نابليون بونابرت فعاد إلى باريس سرّاً وحاول انقلاباً عسكرياً عن طريق فوج

المشاة ٤٢ بمساعدة أحد الضباط النابليونيين. فشلت المحاولة وإعتقل ابن الأخ وحكم عليه بالحبس المؤبد.

عاملات فرنسيات للحرير اللبناني

عندما خرجت لويز برونيت من المعتقل، وجدت أبواب العمل مسدودة في وجهها. لم ترد ممارسة أقدم مهنة في العالم في حيّ «غيللوتيير». وجدت أمامها طريقين: إما الهجرة إلى الجزائر من ضمن هجرات ثوار «الكانو» والمعتقلين المسرّحين الذين راحوا يستوطنون الأراضي الجزائرية موعودين بالأرض، وإما قبول عرض قدمه لها المدعو دريتون، للعمل في معمل لحل الشرانق تملكه أسرة فرنساوية في جبل لبنان.اختارت لويز المغامرة والسفر إلى لبنان لتدريب العاملات اللبنانيات على تقنيات العمل الفرنسية.

خيّم النحس على رحلة العاملات الفرنساويات من أولها.

ما إن وصلت الفتيات إلى ميناء بيروت على متن الباخرة الفرنسية «هيليوبوليس»، في آذار ١٨٤٠ حتى نشب خلاف بين قبطان الباخرة ترامبولين والوكيل دريتون: تبيّن أنه قد صعد إلى الباخرة في مارسيليا ١٨ راكباً لا ١٦ حسب الاتفاق عندما اصطحبت عاملتان ولديهما البالغين ٩ و١٢ سنة من العمر. تطور الخلاف وانتهى الخصمان إلى الاحتكام للمحكمة القنصلية في بيروت لتحديد من يدفع بدلات سفر المسافرين الإضافيين.

لم يبارحهن النحس.

في الأشهر الأولى على وصولهن، قضت ثلاث منهن ضحايا وباء الطاعون. وكانت إحداهن، العاملة ماري غاي، البالغة من العمر ١٨ سنة، مديونة بمبلغ من المال لدريتون، فنشب خلاف جديد بين الوكيل وپورتاليس حول من سوف يسدّد الدين، فلجأ دريوتون مجدداً إلى القضاء مطالباً القنصل الفرنسي في بيروت السيد بوريه بأن يدفع له السيد پورتاليس الدين الذي تركته العاملة المتوفاة.

لم يبارحهن النحس.

إن هي إلا أسابيع حتى غرق جبل لبنان في الاضطرابات وانتشرت روائح البارود في أرجائه.

جبل لبنان: صيف ١٨٤٠

أول عهده، نجح إبراهيم باشا في استمالة أهالي جبل لبنان. ساوى بين المسلمين والمسيحيين في الحقوق والواجبات وحقق العدالة الضريبية بينهم وأقام المشاريع العمرانية وأنشأ مجالس شورى في المدن وأعاد تنظيم المحاكم وسهّل طرق التجار. أفاد المسيحيون من الحكم المصري أكثر من سواهم خصوصاً أن القوات المصرية وزّعت عليهم السلاح. لكن الحكم المصري ما لبث أن استفز الأهالي لمضاعفته الضرائب ثلاثة أضعاف وَفْرض السخرة في بناء الحصون وشق الطرقات العسكرية وحفر مناجم الفحم وإخضاع تجارة الحرير للاحتكار

الحكومي. لكن ما دفع الأهالي إلى الثورة أكثر من أي شيء آخر هو إعلان التجنيد الإجباري وقرار جمع السلاح. بدأوا ينتخبون الوكلاء في القرى. تعاقدوا على أن يبقوا متّحدين مثل رجل واحد وناطقين بصوت واحد، على أن يتحمّلوا معاً وبالتساوي الخسائر والتضحيات، فيوكلوا إلى أحدهم أن يمثلهم ويتعهدوا بإطاعته والقتال تحت إمرته ما دام يعمل بوحي من ضميره ويبقى مخلصاً لمصالحهم وللصالح العام.

انطلقت القومات ضد التجنيد الإلزامي في كافة أنحاء بلاد الشام. بدأت في نابلس، ثم امتدت إلى حوران ومنها نحو الشمال السوري وجبال النصيرية. وثارت جماعات من الدروز عام ١٨٣٨ في وادي التيم، وانضمت إليها جماعات من حوران فاستعان إبراهيم باشا عليهم بالأمير بشير فأنجده، بعد تردد، بأربعة آلاف مقاتل مسيحي على رأسهم ابنه خليل. وفي العام التالي، بعدما ثارت جماعات شيعية في البقاع وجبل عامل، قرّر إبراهيم باشا جمع سلاح الأهالي، ولم يوفر المسيحيين خوفاً من أن ينضمّوا إلى الجماعات الثائرة. كلّف الأمير بشير بتنفيذ المهمة في أيار ١٨٤٠. رفض المسيحيون تسليم السلاح وانقلبوا ضد بشير والحكم المصري، مع أن فرنسا لا تزال داعمة لإبراهيم باشا ولها ما لها من نفوذ وتأثير بينهم. غير أن الحكومة البريطانية احتاطت للأمر فأوفدت رجل الاستخبارات الكاثوليكي الايرلندي ريتشادر روز ليعمل على تأليب المسيحيين والموارنة خصوصاً ضد الحكم المصري، وشجعت لندن النمسا على السعي إلى الحلول محل فرنسا في حماية

مسيحيي الشرق. أما روز، فوزّع المال والسلاح بوفرة على الدروز والموارنة على حد سواء.

في الشوف، التقى أهالي دير القمر مع أهالي بعقلين على مقاومة نزع السلاح. وانعقد يوم ٤ حزيران ١٨٤٠ اجتماع في دير مار الياس في أنطلياس برعاية البطرك حبيش أعلن القومة العامة ضد بشير والحكم المصري، وتشكّلت لجنة قيادية تضم عدداً من «المناصب» المتضررين من استئثار الأمير بشير بالسلطة مع عدد من «شيوخ الشباب» يمثلون العامة، أشهرهم أحمد داغر عن جبيل ويوسف الشنتيري عن كسروان وأبو سمرا غانم عن جزين. طالب الثوار بالتراجع عن قرار جمع السلاح وإلغاء التجنيد الإجباري وإبطال العمل بالسخرة وفرض ضريبة واحدة تدفع مرة واحدة في السنة، في نهاية الموسم. وبرز لأول مرة مطلب إنشاء ديوان من ممثلي الطوائف في بيت الدين يشارك الأمير في الشورى والقرار.

انتشر التمرّد إلى البقاع وطرابلس وشمال الجبل. واشتبك مسلحو القومة وقوات الأمير والباشا في صيدا وفي المكلس والحازمية والمنصورية وبيت مري وحمانا في المتن، وبوارج على مشارف البقاع، فأعلن إبراهيم باشا الحصار على جبل لبنان. وتراجعت الموجة الأولى من القومة أمام زحف جيش إبراهيم باشا وبشير المكوّن من عشرين ألف عسكري.

لم يدم الانتصار لبشير. قررت الدول الأربع استغلال القومة في جبل لبنان مبرراً للتدخل العسكري من أجل اقتلاع الحكم

المصري من كل سورية. يوم ١٥ تموز ١٨٤٠ وجّه وزير الخارجية البريطاني پالمرستون إنذاراً لمحمد علي بسحب قواته من سورية معلناً أنّ العدالة لمصر لن تمنع بريطانيا من أن تحافظ على «هيمنتها الاقتصادية والسياسية» عليها. وجاهر الوزير البريطاني بـ«حقده» على خديوي مصر الذي وصفه بـ«الهمجي الجاهل»، معلناً تصميمه على توظيف طاقات بريطانيا البحرية والمالية للقضاء على سعي محمد علي إلى الاستقلال والتنمية الاقتصادية. ومن جهته، وجّه أميرالاي الأسطول البريطاني شارلز نايير نداءً إلى سكان جبل لبنان من أجل قومة جديدة ضد الحكم المصري فلبّوا النداء.

ردّ إبراهيم باشا بإعلان الجهاد لاستمالة مسلمي سورية عموماً، وحاول مراضاة الدروز، وخصّ سكان الجبل بإعفاء ضريبي لثلاثة أشهر. وعند انتهاء مهلة الإنذار البريطاني العثماني، في ١١ أيلول ١٨٤٠، قصفت البوارج الحربية البريطانية والتركية بيروت وصيدا وصور وجبيل وطرابلس تمهيداً لإنزال في جونيه والدامور لستة آلاف من مشاة البحرية العثمانيين وألف من البريطانيين وخمسمائة من النمساويين، بقيادة الأميرالاي العثماني سليم باشا. سقطت بيروت فدخلها الأميرالاي ستوپفورد البريطاني، فانكفأ إبراهيم باشا عن مدن الساحل واتخذ مركز قيادة جديداً له في الحدث. تشجع الثوار فشنّوا موجة جديدة من الهجمات، فهزموا العسكر المصري في بحرصاف المتن، فيما تغلّب ثوار الشوف على قوات بشير في

بقعاتة ووطى الجوز، فانسحبت القوات المصرية إلى عكا مقدمة للانسحاب النهائي من سورية.

وفي العاشر من تشرين الأول استسلم الأمير بشير عمر شهاب الثاني لوالي صيدا وقد رفض عروضاً بريطانية مبكرة للتخلي عن إبراهيم باشا لقاء ضمان استمرار حكمه. فأصدر السلطان فرماناً بتعيين سميّه الأمير بشير قاسم الشهابي حاكماً على الجبل في الثالث من أيلول. ظل بشير عمر يراهن على أن فرنسا لن تتخلى عن إبراهيم باشا وعنه، لكن في السابع من تشرين الأول، أعلنت فرنسا تخليّها العلني عن إبراهيم باشا وعن بشير عندما عقدت تسوية مع بريطانيا أبقت حكم سلالة الخديويين على مصر بعد التزام محمد علي باشا فتح بلاده أمام البضائع البريطانية وتحجيم جيشه.

نُقِل بشير عمر المخلوع بحراً إلى بيروت حيث قابل الأميرالاي ستوپفورد الذي خيّره بين المنفى في إسطنبول أو في مالطة فاختار مالطة. وفي الحصيلة «لم تَدُر الدوائر إلا على لبنان وأميره، فوق تلك التضحيات التي تحمّلها اللبنانيون في مساعدة المصريين على فتح سورية، أو في مساعدة الدولة [العثمانية] على طرد المصريين»، على ما كتب أحد الرواة المعاصرين.

دجاجة وديش

وسط هذه المعمعة، وصل فارس إلى بيروت عن طريق البحر. خطر للمرسل شلنتس أن يسافر وزوجته إلى أرض الشام لأجل

تغيير الهواء لعِلّة في صدره، فطلب من فارس أن يرافقه ففعل. التقى فارس عسكر الأهالي مخيّمين وهو في طريقه لزيارة أهله. وسرّ بالاجتماع بأهله وسرّوا به بعد طول غياب. ثم لجأ وعائلة شلنتس إلى دير مار الياس للأرثوذكس هرباً من القتال، فألفى أهالي الجوار يودِعون الدير أمتعتهم خوفاً من هجوم العسكر المصري على البيوت.

وفي الدير، خطر لفارس تأليف مقامة عن العدس. ولكي يتدبّر أمر مأكله وضيوفه، كان يذهب إلى القرية وينادي: يا من عندها دجاج للبيع تبيعني إياه. فتجيبه من لها دجاج للبيع: هذه الدجاجة السارحة مع الدجاج في الحقل أريد بيعها فاقبض عليها، فيسعى وراء الدجاج فإن ساعده الحظ على كسر ساق إحداها إو إعيائها قبض عليها. وكان عند جريه وراء الدجاجة يجري معه خاطره فيقول في نفسه «أنا أجري وراء دجاجة فهل زوجتي تجري وراء ديش؟». ثم يتوقف عن الجري ويعدّل من سؤاله فيقول «أنا أجري وراء دجاجة فهل زوجتي يجري وراءها ديش؟».

أوجاع الحرير

أخذت لويز برونيت تقارن بين عادات أهلها وعادات أهل تلك البلاد البعيدة. عجبت لاستمرار عادة وضع البزر في أكياس من الشاش تحفظها النساء بين النهدين وقد بطلت في فرنسا ودرج محلها حفظ البزر في حزام يُعقد على الخصر ويحوط بالبطن.

ولاحظت لويز أنهم في جبل لبنان يفقسون البزر على أجساد الفتيات ويرون أن عَرَق العجائز يضرّ بالبزر لأنه حامز الطعم، فيما العادة في فرنسا هي العكس تماماً، حيث الكاثوليكيون يحرّمون تفقيس البزر بواسطة أجساد الفتيات أو النساء الحائضات ويؤثرون اللواتي انقطع حيضهن من عجائز وحبالى.

استهولت العاملات الفرنسيات شروط العمل بالغة القساوة في معمل پورتاليس. صحيح أنهن عرفن الفقر في قراهن وبؤس أوضاع العمل في معامل الحرير في ليون، إلاّ أن الحالة في جبل لبنان أسوأ بكثير. تحوي الكارخانة، وهو الاسم الذي يطلقونه على معمل حل الفيالج، ٧٠ إلى ٨٠ فتاة محشورات في قاعة لا تزيد على سبعين متراً مربعاً ذات سقف واطئ لا يتعدي المتر والثمانين سنتيمتراً، وإضاءة شحيحة وتهوية عاطلة. تعمل الفتيات على ٥٠ حوضاً ميكانيكياً تنفث البخار الحارق على مدار الساعة من الفجر للنجر خلا فرصة نصف ساعة للغداء. والعمل أقرب إلى السخرة: تتقاضى العاملة أجراً يومياً قدره غرش واحد لقاء ١٣ ساعة عمل في الصيف وعشر ساعات في الشتاء، ويبلغ أجر العاملة المصنفة ماهرة خمسة قروش، علماً أن عدداً كبيراً من العاملات يأتين من ميتم الأم جيلاس ولا يتقاضين أي أجر.

دهشت لويز ورفيقاتها خصوصاً لأعمار الفتيات. في «الدروم» تبدأ البنت بالنزول إلى العمل في سن الثانية عشرة، هنا العاملات أطفال يبدأن العمل في السابعة ويغادر معظمهن بين

الثالثة عشرة والرابعة عشرة وقد جمعن ما يكفي من مال لدفع أكلاف جهاز العرس، ويسمونه «الدوطا». في رسالة إلى شقيقتها في «كري»، وصفت حياتها في المعمل. كتبت عن البخار الحارق يتصاعد من الأحواض ويلتصق بالثياب والثياب تلتصق بالجسم، وعن روائح المواد الكيماوية تمتزج باليرقات الميتة المنتنة التي تزكم الأنوف فيما الوبر المتطاير من الخيطان يملأ الخياشيم. وكتبت: «أيديهن كلها بثور بيضاء تارة أو قلوع قاسية تارة أخرى. وفي أحيان كثيرة ينسلخ الجلد ويتقيّح. لقد لقّنتهن بعض الحيل. أقول للواحدة: لا تغمسي يدك كلها في الحوض، بل لا تغمسي أكثر من إصبع أو إصبعين في آن واحد. مدّي الإصبع سريعاً وانتشلي طرف الخيط وقد بدأ يتحلل من الشرنقة، ثم بسرعة تناولي خيطاً آخر، اشبكيهما معاً وافتلي الخيطين فتلاً ثم سلّكي الخيط المدمّج في المسلكة وعلّقيه على المغزل الآلي. لا بد من بعض الألم، الشطارة أن نتحايل عليه. تعلّموا أن تتحملوا الألم». وعلَّمتُهن كيف يمزجن اليرقات الميتة مع بعض الأعشاب لصنع مرهم يهدّئ الألم ويداوي الحروق.

١٨٤١ ـ ڤاليتّا: اللغمرة

لما عاد فارس إلى الجزيرة التي عرّبها الأغالبة التونسيون، وقد اصطحب معه عروسه الشامية، وجد أهل الجزيرة منقسمين بين انعزاليين من دعاة الانتساب إلى الفينيقيين، وعروبيين يتباهون بلغتهم العربية وأصلهم العربي، فثارت حماسته لأن يسهم في

الترويج للغة العربية، فعمل أستاذاً لتلك المادة في جامعة ڤاليتا إلى جانب عمله في مطبعة المرسلين الإنجيليين ترجمة ومراجعة وتنقيحاً وتأليفاً للكتب التعليمية واللغوية والدينية. ترجم أعمالاً كنسية كثيرة. وباشر مع شلنتس مشروع ترجمة الكتاب المقدّس، لكن المشروع تعطّل بسبب نوبات الجنون التي كانت تصيب المرسل وقد تخبّل وصار يتعرّى من ثيابه ويخرج عارياً في الطرقات.

خاب أمل فارس من إمكانية تعليم سكان الجزيرة لغة الضاد، فلقّب مالطة «جزيرة البُخر» متّهماً أهلها بأنهم يتكلمون لغة منتنة. والتقطت عينُ فارس الثاقبة الناقدة لقطات ومشاهد وأصاخت أذنه النبيهة إلى أخبار وروايات ونوادر لا تحصى عن حياة القوم دوّنها وعلّق عليها جميعاً. غير أنه اهتمّ خصوصاً بالقساوسة والنساء. لاحظ تدني نسبة الجمال لدى نساء الجزيرة وكيف أن كثيراً منهن لهن شوارب ولحى صغيرة لا يحلقنها ولا ينتفنها .وأشار، للمناسبة، إلى أنّ كثيراً من رجال الإفرنج يحبّون النساء المتذكّرات. وعجب كيف أن رجال الدين يلبسون سراويلات قصيرة مزنّقة حتى يمكن للناظر أن يتبيّن ما وراءها. واستغرب انقياد نساء مالطة إلى القسيسين إلى درجة أن المالطية تؤثر قسّيسها على زوجها وأولادها وأهلها جميعاً. وأفاد أن تعلّق المالطيين بأهداب الدين يبلغ ذروته لدى المومسات «فإنك تجد في بيت كل واحدة منهن عدة تماثيل وصُوَر لمن يعبدونه من القديسين والقديسات. فإذا دَخَل إلى إحداهن فاسقٌ لِيَفْجُرَ

بها قَلَبَتْ تلك التماثيل فأدارت وجوهها إلى الحائط لكي لا تنظر ما تفعله فتشهد عليها بالفجور يوم النشور».

كتب فارس عن كل شيء في مالطة إلا عن وجود الأمير بشير عمر الشهابي الثاني منفياً فيها. سكت عن الأمير «سكوت السمك»، حسب تعبير تلميذه مارون عبود. وفي رواية أن فارساً قابل «الأمير الأحمر» المخلوع عندما رافق ضابط الاستخبارات الإنكليزية الكولونيل ماك نان ليترجم له خلال لقاء الأخير مع الأمير. ومع ذلك امتنع فارس عن ذكر الحادثة.

١٨٤١ ـ جبل لبنان: الحركة الأولى

خرج المصريون ونُفي بشير شهاب، فعاد المقاطعجية الدروز المنفيون في حوران وأخذوا يطالبون مسيحيي المناطق المختلطة بمتأخرات الضرائب ومستحقات المحاصيل واستعادة أراضيهم. رفض عامة النصارى دفع الجزية والضرائب. واستشهدوا على فقر المسيحيين بالفقراء المسيحيين المشتردين في مدن بلاد الشام وبقحل الأرض. ودعم البطرك موقفهم وأرسل إليهم «إعلامات» تطالبهم بأن ينتظموا في جماعات مسلحة وينتخبوا لكل قرية اثنين للقيادة. وعيّن البطرك الأمير ملحم شهاب لقيادة العسكر المسيحي.

وطالب «المناصب» الدروز بمشاركة درزي في حكم الجبل بعدما تكرس فيه الحكم لأمير مسيحي، فاصطدموا برفض بشير قاسم الذي ما لبث أن نصب لهم كميناً قصد اعتقالهم فأفلتوا

منه بعدما أنذرهم عملاء الإنكليز. ودعم الإنكليز «المناصب» الدروز وأمدّوهم بالسلاح. ومن جهتهم، طالب المسيحيون بتمثيلهم سياسياً في حكم المناطق المختلطة فعارضهم «المناصب» الدروز، فتصاعد التوتر بين الجماعتين، وأخذ طوبيا عون، مطران بيروت الماروني، يهدّد بطرد الدروز من «بلاد المسيحيين». وكتب القنصل الفرنسي بوريه إلى رئيس الوزراء غيزو يقول له «إن الضمان الحقيقي لنظام يلبّي مصالحنا هو أن يكسب المسيحيون ويخسر الدروز».

في أيلول، اغتيلت الأميرة حبوس أرسلان وقد جاءت لتستعيد أملاكها في الغرب الأسفل. وفي ١٣ تشرين الأول ١٨٤١ دارت اشتباكات بين دير القمر وبعقلين أوقعتْ ١٤ قتيلاً من الدروز وخمسة من النصارى. تدخلت الوساطات ونجحت في تأخير تجدد القتال شهراً واحداً قبل أن يتحرّك مسلحو آل أبو نكد مدعومين من آل جنبلاط وآل العماد، فحاصروا بشير قاسم في قصره في دير القمر واقتحموا البلدة فنهبوا وأحرقوا وأكملوا نحو الغرب وعبيه والشويفات والحدث وبعبدا. وانتقل هجوم المسلحين الدروز إلى جزين فقاومتهم وقاد الدفاع عنها أبو سمرا غانم ويوسف الشنتيري. واستنجد بشير قاسم المحاصر في قصره بالعثمانيين وبأنصاره المسيحيين في بعبدا والجوار. وهاجمت جماعات من الدروز زحلة بقيادة شبلي آغا العريان على رأس ستة آلاف مقاتل سلّحهم والي الشام، فصدّ الزحليون الهجوم وفشل المهاجمون في اقتحامها.

وكتب البطرك حبيش «إعلاماً» إلى أمراء الموارنة ومشايخهم ومقدّميهم داعياً إلى هبّة لنجدة إخوتهم في المناطق المختلطة، فجمعوا رجالهم فأمدّهم البطرك بالمال والسلاح والذخائر وارد النمسا. وتحركت قوة من ٤٠٠ مسلح مسيحي بقيادة أبو سمرا غانم من جزين لغزو باتر ونيحا في ١٦ تشرين الأول، فأعملت فيهما النهب والحريق. وهجم يوسف الشنتيري على شرقي صيدا على رأس ٣٠٠ مسلح فقتل ٣٢ درزياً في عهدة نعمان جنبلاط. وطالب الدروز بنعمان جنبلاط أميراً مشاركاً في حكم الجبل شرطاً لفك الحصار عن بشير قاسم ووقف المعارك.

وبعد أيام بدأ الهجوم الدرزي المضاد ضد بكاسين والدبّية بقيادة سعيد جنبلاط، الأخ الأصغر لنعمان، وانضمّ إليه حليفه خطار العماد. في المقابل، تحرك غندور السعد على رأس ٥٠٠ مقاتل مسيحي من بعبدا لفك الحصار عن الدير، فقطع عليه الأمير يوسف عبد الملك الطريق وصده في رشميا. وحاصر عبيه مسلحون مسيحيون قادمون من الحدث وبعبدا بقيادة الأمير عبدالله الشهابي، شقيق بشير عمر، على أمل رفع الحصار عن دير القمر. لم تتمكن القوى المسيحية من إنجاد دير القمر ونصارى الشوف. وحقيقة الأمر أن «المناصب» المسيحية لم تتحمّس لحرب البطرك. آثر آل بللمع والخازن والدحدح وحبيش الدفاع عن الامتيازات المشتركة للمقاطعجية جميعاً. ثم إن الذين لبّوا نداء البطرك كانوا منقسمين أيضاً بين مناصب وعاميين وبين أنصار بشير قاسم (الثالث) وأنصار عودة الأمير بشير عمر (الثاني) من المنفى.

بلغ الانحياز العثماني إلى جانب المسلحين الدروز وتباطؤ المسؤولين في التدخل لفك الحصار عن دير القمر وإنقاذ بشير قاسم، درجة دفعت قناصل الدول، بمن فيهم القنصل البريطاني، إلى تدبيج مذكرة إلى الباب العالي، يحتجّون فيها على ارتكابات العسكر العثماني، فقررت إسطنبول أخيراً إيفاد مصطفى باشا مزوّداً بصلاحيات واسعة لإعادة الأمن إلى الجبل وعزل بشير الثالث.

فكّت قوات عثمانية الحصار عن بشير قاسم ونقلته إلى بيروت حيث تنحّى عن الحكم أمام مصطفى باشا مطلع العام ١٨٤٢. وفي ١٦ كانون الثاني، استدعى المبعوث العثماني وجهاء الجبل وأبلغهم نهاية إمارة جبل لبنان وحكم آل شهاب وتعيين عمر باشا النمساوي حاكماً على الجبل، وهو ضابط عثماني من أصل كرواتي شارك في الحملة العسكرية على إبراهيم باشا. وتكبّد المسيحيون القسط الأوفر من ضحايا تلك الحوادث، إذ قضى فيها لا أقل من ٣٠٠ نفس.

١٨٤١ : الجزائر: الأمير يعلن الجهاد

لم تصمد معاهدة الطافنة. انهارت بعد عامين من توقيعها عندما حاصر الفرنسيس قسنطينة ووهران وسيطروا على القبائل الثائرة فيها. حاول الأمير اختبار الوسائل الدبلوماسية. اتصل بالسلطنة العثمانية وبالإنكليز على أمل دعمه. كانت لندن مسرورة لتعثّر الاحتلال الفرنسي للجزائر، لكنها لم تكن مستعدّة لاستعداء

باريس. اكتفت برفض الاعتراف بالجزائر الفرنسية. لم يلقَ الأمير أي صدى لاهتمام من أي طرف خارجي، فعاد إلى المقاومة وأعلن الجهاد.

في باريس، صوّتت «الجمعية الوطنية» على احتلال الجزائر بالكامل، وقررت الحكومة إعادة البيكونوري إلى الجزائر. وصلها الجنرال في تشرين الأول ١٨٤١ على رأس جيش من مئة وعشرين ألف عسكري ومهمته هذه المرة إسداء الهزيمة لعبد القادر بأيّ ثمن.

عدّل البيكونوري من استراتيجيته تعديلاً جذرياً. منع الاتجار مع القبائل التي لا تخضع لقانون هدنة الفرنسيس. وأجبر الخاضعين للهدنة على وضع شارة حديدية بيضاء على صدورهم كتب عليها «عربي خاضع». عسكرياً، كان مقتنعاً بعدم جدوى تعقّب الثوار. وجد البديل في استراتيجية «الأرض المحروقة». وجّه إلى قواته أمراً يقول فيه: «ليس الهدف مطاردة العرب. هذه مهمة مستحيلة التحقيق على كل حال. الهدف هو منع العرب من أن يزرعوا وأن يحصدوا وأن يرعوا مواشيهم... وأن يفيدوا من استثمار حقولهم. اذهبوا كل سنة وأحرقوا لهم محاصيلهم، أو أبيدوهم عن بكرة أبيهم». فأحرقوا الدوائر واقتلعوا أشجار التين والزيتون وأتلفوا المحاصيل واختطفوا النساء واغتصبوهن. وبعد كل غزوة كان الجنرالات يوزعون على جنودهم الغنائم من المسروق من القبائل، فتفشت اللصوصية بين الجنود.

عام ١٨٤٢ بدأت قوات البيكونوري تحتل قلاع الأمير قلعة بعد قلعة في بوغاز وتازه وسعيدة ومعسكر إلى أن دهمت عاصمته تاقدمت بقوة من عشرة آلاف جندي. وجدوها خاليه وقد أمر الأمير بإخلائها من السكان ونقل القطع الحربية المهمة ومصانع الأسلحة. نسف عسكر الفرنسيس القلاع والبيوت والمسجد بالمتفجرات، وأحرقوا المحاصيل الزراعية ومخازن الحبوب. وأحرقوا قلب عبد القادر عندما أحرقوا له كتبه وبينها المصحف والإنجيل والتوراة ومؤلفات ابن خلدون وابن عربي ومخطوطات نفيسة ومؤلفات عن الإمبراطور نابليون.

ابتكرت مخيلة الأمير «الزمالة»، عاصمة متنقلة، بل دولة متحركة، على ظهر الجِمال. يصل عدد سكانها إلى نحو سبعين ألف نسمة بينهم ١٢ ألف مقاتل راجل وألفا خيّال وأربعمائة حارس نظامي. تتوسطها «الدائرة» وفيها خيام الأمير وعائلته ومعاونوه المباشرون وخيوله وحرسه الشخصي المكون من ثلاثين عبداً أسود، وفرسانه الذين يرتدون السترة الحمراء والسروال الأزرق مع بُرنسين أحدهما أبيض والآخر رمادي. وحول «الدائرة» دُوّارات، كل دوّار من ثمانية إلى ثلاثين خيمة ومَضْرب موزعة على المعاونين المباشرين والمجاهدين وأبناء القبائل الحليفة، عربية وبربرية. وضمت «الزمالة» مكتبة الأمير ومخطوطاته والأرشيف والإدارة ومسجداً مثمّن الأضلاع صممه الأمير نفسه على هندسة مسجد الصخرة في القدس، ومصانع الأسلحة ومخازن الذخيرة والمؤن الحربية. وفي «الزمالة» أيضاً محترفات صياغة الذهب يتولاّها الصاغة اليهود، وجهاز

القضاة. وتعقد «الزمالة» سوقاً أسبوعية يجري خلالها تبادل المنتجات والمحاصيل مع القبائل التي تلقاها في طريقها.

كل شيء سريع في «الزمالة». تضرب خيامها بلمح البصر، فتشاهدها عن بعد مدينة قائمة بذاتها، ثم تشيل مضاربها خطفاً كلما دنا الخطر فإذا هي قافلة لا أول لها ولا آخر. بسرعة تتحرك خلال الليل. وبسرية تختار خط سيرها وتناور لتضلل الفرنسيس وعسسهم المحليين.

١٨٤١ ـ جبل لبنان: إضراب في المعمل

لم تكتف لويز وزميلاتها بملاحظة بؤس الأوضاع في الحلالات، ولا اكتفين بالاحتجاج. عندما لم ينفع الاحتجاج، حرضن العاملات على الإضراب. اتهمهن دريفتون بـ«زرع الفرقة»، فهربت لويز برونيت وثلاث من زميلاتها والتجأن إلى أسرة درزية في بتاتر. ثم ما لبثن أن نزلن إلى بيروت. تدخّل پورتاليس لدى القنصل بوريه طالباً إلقاء القبض على لويز وحبسها إلى حين تسفيرها لتكون «عبرة لسواها من العاملات» وحتى «لا تمارس البغاء في بيروت».

اتفق صاحب المعمل والوكيل ولو لمرة ضد تمرّد العاملات المشاغبات. غير أن الخلاف ذرّ قرنيه بينهما من جديد. نشب النزاع على المال هذه المرة أيضاً، حول من يدفع أكلاف تسفير لويز برونيت إلى بلادها. رُفع الأمر مجدداً إلى المحكمة القنصلية ودامت الدعوى شهوراً عديدة، إلى أن قضت

المحكمة بأن يدفع «السيد پورتاليس وشركاه» أكلاف سفر «البنت لويز» إلى فرنسا.

بعد حادثة التمرّد وفرار لويز برونيت وزميلاتها الثلاث، أخذت العاملات الفرنسيات تغادرن المعمل الواحدة تلو الأخرى إلى بيروت بانتظار العودة إلى بلادهن. قضين أوقاتاً صعبة في المدينة. واضطر القنصل الفرنسي إلى التدخل غير مرة لتسهيل سفرهن. وفي ٢٠ آذار ١٨٤١، بعث القنصل بوريه إلى السيد بلومين، قبطان السفينة البخارية «لَكْسيون» (العمل) يدعوه فيها إلى نقل السيدة مادلين روش وابنها جوزيف لأنهما «موجودان على الأسكلة دون أي مورد رزق».

عندما دبّ خلاف تالٍ بين پورتاليس ووكيله، أقدم صاحب المعمل على طرد الوكيل. ولم يبقَ في المعمل غير عاملتين من العاملات الفرنسيات. وفي رسالة بتاريخ ٢٨ آب ١٨٤١، كتب نيكولا پورتاليس باسم أخيه فورتونيه إلى القنصل بوريه يطلب منه إلزام دريتون قبل سفره بأن يتعهد بإبقاء الفتاتين في المعمل فبدونهما لا يمكن أن يستمر العمل فيه. وختم پورتاليس رسالته راجياً القنصلَ أن يخلّصه من «رجل لم يأتنا منه غير المضايقات والمصائب».

١٨٤٢ فكرة المستشار النمساوي

كان الهمّ الرئيسي لعمر باشا، منذ أن تسلّم حاكمية جبل لبنان، الحيلولة دون عودة الإمارة الشهابية التي يتمسك بها أكثرية

المسيحيين. نجح في أن يلفّ حوله المقاطعجية المسيحيين والدروز المتضررين من حكم آل شهاب، من آل دحدح وبللمع وعماد وأرسلان وغيرهم، إضافة إلى عدد من الأمراء الشهابيين ممن استبعدهم بشير عمر وبشير قاسم. واعتمد عمر باشا بنوع خاص على الأمير بشير أحمد بللمع وعيّنه نائباً له.

عدّ الدروز زوال الإمارة الشهابية بمثابة انتصار لهم، فلم يكونوا مستعدين لتلقّي الأوامر من الأتراك. فمال عمر باشا نحو الموارنة. لم ينجح في الحالتين. استعدى الدروز ولم يحظ بتأييد أعداد وازنة من المسيحيين. في ٦ نيسان، أقدم على اعتقال أبرز الزعماء الدروز: نعمان وسعيد جنبلاط، أحمد وأمين أرسلان، ناصيف أبو نكد، حسين تلحوق، وداود عبد الملك وغيرهم. وأخذ رجاله يشجّعون النصارى على المطالبة بضم لبنان إلى ولايات الدولة وحجّتهم أنّ الدروز لن يقبلوا بحاكم مسيحي على جبل لبنان.

وسعى عمر باشا إلى استرضاء عامة الموارنة بتعيين أبي سمرا غانم قائداً للجيش ويوسف الشنتيري مساعداً له والشيخ فرنسيس الخازن حاكماً على كسروان، وأخذ يضيّق على الدروز. فثار عليه دروز الجبل في الجرد ثم في وادي التيم، وانضم إليهم دروز من حوران بقيادة شبلي العريان. دُعي الموارنة إلى الانضمام إلى الثورة، فرفضت المناصب المسيحية رغم ضغوط مارسها القنصل الفرنسي عليهم ليفعلوا. وحاصر شبلي العريان بيت الدين، واشترط لفك الحصار الإفراج عن

الزعماء الدروز وتأمين جبل لبنان ضد التجنيد ونزع السلاح والإعفاء من الضرائب لثلاث سنوات. وكان الزعماء المسيحيون مجتمعين في أنطلياس لتقرير الموقف من نجدة الدروز في عصيانهم عندما فكّت قوات عثمانية الحصار عن بيت الدين وانسحب مسلحو شبلي العريان. وانتهى الأمر باستدعاء السلطان لعمر النمساوي إلى اسطنبول في نهاية العام.

تشاورت الدول الخمس مجدداً في مصير جبل لبنان، فإذا مندوبوها منقسمون بين دعوة عثمانية إلى إعادة بسط سلطة السلطنة على جبل لبنان وبين تمسك فرنسا باستعادة الإمارة الشهابية المسيحية. تفتّق ذهن المستشار النمساوي الأمير كليمنس ميترنيخ عن حل وسط يقضي بتقسيم الجبل بين المسيحيين والدروز. قبل مندوبو فرنسا وإنكلترا الاقتراح فوراً، ثم وافقت عليه باقي الدول الخمس فكلّف أسعد باشا والي صيدا بتنفيذ المهمة. وفي السابع من كانون الأول ١٨٤٢ جرى تقسيم جبل لبنان إلى قائم مقاميتين تفصل بينهما طريق بيروت ـ دمشق، قائم مقامية جنوبية مختلطة (مع أن عدد مسيحييها يزيد بضعف على عدد الدروز فيها) يحكمها أمير درزي، وعاصمته بعقلين، وقائم مقامية شمالية، تكاد أن تكون مسيحية خالصة، يحكمها أمير ماروني من غير أسرة شهاب، وعاصمته بكفيا. وفي مطلع كانون الثاني ١٨٤٣ أطلق أسعد باشا سراح أحمد أرسلان وعيّنه قائم مقام على القائمّقامية الجنوبية، وعيّن الأمير حيدر اللمعي، قائم مقام على القائمّقامية الشمالية. وشاء العثمانيون تحجيم القائمّقامية المارونية فسلخوا عنها مقاطعات

جبيل والبترون والكورة والجبّة وضمّوها إلى طرابلس وعيّنوا عليها حاكماً عثمانياً.

١٥ حزيران ١٨٤٦. وقف النائب دُ ملفيل في مجلس النواب الفرنسي معارضاً تقسيم لبنان. قال: «إن أعوانكم وأصدقاءكم يا حضرة وزير داخلية فرنسا كانوا منذ بضعة أيام يقولون «ينبغي أن نجعل لبنان مثل سويسرا». أما أنا فجُلّ ما أبغيه ألاّ تجعلوه كبولونيا!». في ذلك العام، تعرّضت بولونيا لعملية التجزئة الرابعة بضم جمهورية كراكوفيا إلى النمسا. وقد عرفت قبل القرن التاسع عشر ثلاث عمليات تجزئة، كل مرة باقتطاع أراض منها لصالح دولة من الدول: النمسا وبروسيا وروسيا.

الدكطر الألماني في باريس

إلى باريس، نهاية ١٨٤٣، وفد دكطر ألماني شاب تخرّج للتوّ من جامعة يينّا في مادة الفلسفة. ومع أنه كان ينوي تعليم الفلسفة في الجامعة، ما لبث أن توجه صوب الصحافة للترويج لأفكاره الراديكالية والقيام بالأود، وقد تزايد اهتمامه بالقضايا السياسية والاجتماعية. غير أن السلطات البروسية سرعان ما أقفلت الصحيفة الليبرالية «راينيخ زايتونغ»، التي كان يموّلها صناعيون ألمان، بسبب الكتابات الاقتصادية للدكطر الشاب.
إلى باريس، اصطحب الدكطر عروسه جيني، ابنة البارون فون فستفالن، الموظف الرفيع في الإدارة البروسية، وقد تزوجا مطلع العام.

في باريس، خالط الدكطر عمالاً وحرفيين ألماناً مهاجرين يدينون بنزعات مسيحية مهدوية، وتعرّف إلى ابن الصناعي الألماني فريديرك الملائكة، ونشأت بين الرجلين زمالة فكرية ونضالية وصداقة عمر. نقل الدكطر إلى الملائكة معارفه الفلسفية النقدية وخبرته الأولية في أثر المصالح الاقتصادية على السياسة وحرية الرأي. وقد اكتشف أنّ «الخطر الأكبر على حرية الصحافة هو المال». ونقل ابن آل الملائكة خبرته المباشرة في ظروف معيشة العمال الإنكليز. وفي باريس عام ١٨٤٤ دوّن الدكطر مجموعة من الأطروحات الاقتصادية والفلسفية بلور فيها مفهوم استلاب العمل في ظل الرأسمالية يقول فيه «يزداد فقر العامل بازدياد الثروة التي ينتجها وبازدياد نتاجه قوة وتنوعاً. وطرداً، يصير العامل نفسه سلعة ينخفض سعرها بقدر ما يتزايد عدد السلع التي ينتجها». وتطلّع الدكطر في كل الأطروحات إلى قيام مجتمع يحقق الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج يصير فيه البشر أحراراً لتنمية طاقاتهم في تعاونيات إنتاج.

لم يطل الأمر بإقامة الدكطر في باريس. بناءً على طلب من السلطات البروسية، اعتقلته السلطات الفرنسية وطردته من فرنسا.

سقوط «الزمالة»

بالصدفة عثرت فرقة كشافة متقدمة من الفيلق الفرنسيسي على «زمالة» الأمير عبد القادر، جنوب بوغار قرب عين الطاجين. وفي يوم ١٦ أيار ١٨٤٣ سقطت «الزمالة» ولم يكن الأمير فيها.

حاصرتها القوات الفرنسية بقيادة دوك أومال، ابن الملك لوي - فيليب، ونائبه الليوتونان ـ كولونيل أبو فور الهابول. وقع خلاف بين القائد ونائبه. لم ينصح أبو فور بالهجوم على «الزمالة». كان يخشى أن تتكبد قواته خسائر جسيمة. وتخوّف من أن يكون الأمير دبّر حيلة لتطويق القوة الفرنسية خصوصاً بعدما تبيّن أنه خرج من «الزمالة» على رأس فرقة من الخيالة. استهجن القائد نظرية نائبه. قال «إني أنتمي إلى جنس من الرجال ليس معتاداً على التراجع. عليكم بالهجوم». نجح الهجوم. قتلت قوات الفرنسيس ٣٠٠ مجاهد. وأسرت ٦ آلاف واستولت على أربعين ألف رأس غنم ونهبت أهراء الحبوب والذهب. وصادر الجنود من خيمة عبد القادر أشياء كثيرة قدّم بعضها إلى الإمبراطور، أما الباقي فأحرق بما فيه ما صادروه من كتب الأمير.

وصرم جند الفرنسيس ٦٠٠ أذن، وقد قضتْ عادةٌ عسكرية بمنح مكافأة عشرة فرنكات على صرم أذنَي كل مقاوم عربي قتيل. من جهته، سعى عبد القادر إلى القضاء على عادة تصفية الأسرى بقطع الرؤوس فمنح مكافأة مالية لكل مجاهد يأتيه بأسير حيّ من الفرنسيس.

فرّ الأمير إلى الحدود مع سلطنة مراكش، معقل الأدارسة، وأعاد تنظيم قواته، وأخذ يغير على قوات الفرنسيس. تسرّع البيكونوري في طمأنة باريس إلى أنّ عبد القادر قد انتهى مع أن القبائل البربرية كانت لا تزال تقاوم في الوسط الغربي بقيادة الشريف بو معزّة الذي صمد مجاهدوه أمام جيشين للفرنسيس

أرسلا لاحتلال مستغانم وأوليانسفيل. وحرب البيكونوري تعني الإبادة. كتب الضابط الشاب مونانياك يقول إن شن الحرب على العرب يعني «قتل كل الرجال الأكبر من ١٥ سنة، وأسر النساء والأطفال وشحنهم على عمارات بحرية إلى جزر مركيز أو سواها. بكلمة: علينا إبادة كل ما يزحف عند أقدامنا مثل الكلاب». وسياسة الأرض المحروقة باتت تعني أيضاً حرق البشر. هكذا نفذ الجنرال پيليسييه تعليمات الجنرال البيكونوري. يوم ٢٠ حزيران ١٨٤٥، لجأ أبناء قبيلة «أولاد رياح» إلى مغاورهم في القنطرة، فأمر الجنرال بخنقهم بالدخان ويسمّونه «التدخين» بلغتهم العسكرية، مع أن القبيلة استسلمت ووعدت بدفع فدية لقاء الإعفاء عنها. وشهد شاهد عيان من الفرنسيس أن ألسنة النيران التي أوقدها الجنود ليلاً على فوهات المغاور ارتفعت إلى حد ستين متراً. داخل المغاور ألف وخمسمائة رجل وامرأة وطفل وعجوز ومعهم ماشيتهم والخيول. هلكت قبيلة «أولاد رياح» عن بكرة أبيها. وصف شاهد العيان المشهد: الكل عراة. والكل جثث متفحمة. دماؤهم على أفواههم. وكثيرون قضوا تحت حوافر الخيل والماشية الهاربة.

١٨٤٥ ـ جبل لبنان: الحركة الثانية

قسمة الجبل والأهالي شيء وتحقيقها شيء آخر. لم يكن ترسيم الحدود عند طريق دمشق موفّقاً، فالمنطقة الشمالية مسكونة من المسيحيين بالكامل خلا جماعات من الدروز تقطن

عدداً من قرى المتن، فيما المسيحيون ضعف عدد الدروز في المنطقة الجنوبية. خطرت في البدء فكرة تبادل سكان بين المنطقتين، ثم جرى التخلي عنها لاستحالتها بسبب الاختلال الكبير بين الحالتين، فطالب المسيحيون بشمول مسيحيي المناطق المختلطة تحت سلطة قائم مقام مسيحي. رفض الدروز الاقتراح بحجة أن القسمة جغرافية وليست سكانية. طال الخلاف حول هذه النقطة وأحيل إلى قناصل الدول. وافق الإنكليز على مبدأ القسمة الجغرافية، وعارضها الفرنساويون. أما الروس فدعموا مطالبة الروم الأرثوذكس بإنشاء قائم مقامية ثالثة خاصة بهم.

أرسل الباب العالي خليل باشا مطلع ١٨٤٣ لتسوية الأمور، فأكد المبعوث التفسير العثماني عن أن القسمة جغرافية وليست سكانية، وأنّ كل قائم مقام مسؤول عن رعاياه. لكن خليل باشا عيّن وكيلين، واحد للاهتمام بمصالح الدروز في المتن وواحد للاهتمام بمصالح المسيحيين في المناطق المختلطة. وقرر منح الحكم الذاتي لدير القمر المتحررة من عهدة آل أبو نكد على أن يكون لها وكيلان درزي وماروني خاصان بها. واسترضاءً للأرثوذكس المطالبين بقائم مقامية خاصة بهم، أفتى خليل باشا بأن الأمير حيدر بللمع هو قائم مقام الموارنة وليس قائم مقام عموم المسيحيين. أثارت الفتوى احتجاج الأمير ولم ترضِ الأرثوذكس.

رفض الدروز الترتيب واجتمعوا في ٢ شباط ١٨٤٥ في

المختارة للتداول، فدعا البطرك المسيحيين إلى الهجوم على المختارة بقيادة آل شهاب ومعهم قادة مشايخ الشباب، غانم والشنتيري وغندور السعد، فأحرقوا ١٤ قرية في طريقهم نحو عاصمة آل جنبلاط قبل أن تصدّهم القوات العثمانية. بدأ الهجوم المعاكس من المسلحين الدروز بتواطؤ واضح من السلطات العثمانية. وامتدت الاشتباكات إلى ساحل بيروت والمتن والغرب والشحار والجرد والشوف. هاجم مسلحون دروز مسيحيي حاصبيا وراشيا بتحريض من محمد باشا والي الشام، فهرب المسيحيون إلى زحلة وقطع عليهم دروز راشيا الطريق ونكلوا بهم، فخرج مسلحو زحلة خارج بلدتهم على جاري عاداتهم لملاقاة المسلحين الدروز، وصدّوا الهجمة على بلدتهم وهاجموا بدورهم قرنايل. وشاعت أخبار أن ذلك الانتصار بمثابة الأعجوبة لم يصنعها أهالي «جارة الوادي» وحدهم بل شملت العناية الإلهية. قيل إن السيدة العذراء، شفيعة زحلة، أنقذت المدينة من هجوم المسلحين الدروز، إذ أطلقت طيوراً سماوية ذرّت الرمل في عيون المهاجمين.

لم يكن أهالي زحلة يريدون الحرب. قضيتهم الرئيسة هي التحرر من سيطرة مقاطعجية آل بللمع. وفي ذلك العام ١٨٤٥ كتبوا رسالة إلى القنصل الفرنسي في بيروت يقولون فيها: «إن الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الإقطاع، فإنهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي... الواقع أنه ما دام للرؤساء مطامح وامتيازات وإعفاءات، فلن يتمكن لبنان من أن ينعم بالسلام، فهذه الامتيازات والإعفاءات ممنوحة للدروز من

قبل أمير الجبل، لقاء خدمات يؤدّونها له، وهو يسحبها منهم متى يشاء (. . .) من الممكن أن يعقد الصلح بين الفلاحين الدروز وبين المسيحيين لكن ليس مع قادتهم الذين يريدون دوماً أن تكون لهم امتيازات وصلاحيات على إخواننا، ذلك هو الأمر الأكثر استحالة .ولا مراء أن لبنان لا يتمتع بالراحة ما دام لزعمائه امتيازات وإعفاءات».

أوفد الباب العالي وزير خارجيته شكيب أفندي لمعالجة الأزمة. وصل إلى بيروت في ١٤ أيلول ١٨٤٥ وسارع إلى إجلاء كل الأوروبيين من جبل لبنان، وأعلن وقف القتال الثاني من حزيران. وعلّق المطران الدبس قائلاً إنه «لولا توسُط رجال الحكومة في محلات كثيرة لأضرّ النصارى بالدروز أضراراً كثيرة».

ووزع شكيب أفندي ألفَي كيس للموارنة على سبيل التعويض عن خسائرهم في المواجهات الأخيرة، ثم احتجز القائمّقامين وعدداً من الأمراء الشهابيين والزعماء الدروز. وعزل شكيب أفندي أحمد أرسلان وعيّن أخاه أمين قائم مقام عن الدروز مكانه، لكنه أبقى على الأمير حيدر بللمع في منصبه خشية أن يؤدّي عزله إلى تجديد البحث في تعيين أمير من آل شهاب. والأهم أنّ شكيب أفندي أمر بتجريد الأهالي من السلاح وتشدد في تطبيقه على المسيحيين، متهماً إياهم بالمسؤولية عن الحركة الأخيرة. إلى درجة أن القناصل في اسطنبول احتجوا على الانحياز، بمن فيهم القنصل البريطاني، فأخذ يوازن بين الجماعتين.

أعلن شكيب أفندي نهاية إمارة جبل لبنان وكرّس قسمته إلى قائم مقاميتين، وأنشأ مجلساً لكل قائم مقامية يعاون القائمّقام في إدارة شؤونها يتكوّن من اثني عشر عضواً، اثنين عن كل من الطوائف الست الرئيسية، يختار أعضاءه وجهاءُ الطائفة ورجال الدين شرط موافقة والي صيدا عليهم. وحصرت جباية الضرائب بالمجلس، على أن تتخذ قراراته بالإجماع وعند الخلاف يُحتكَم إلى والي صيدا. وأعلن نظام شكيب أفندي أيضاً نهاية النظام المقاطعجي، واعتبر القائمّقامين موظفين عثمانيين، وجرّد المقاطعجية الباقين من صلاحياتهم في جباية الضرائب وممارسة القضاء.

لا شيء يمشي في جبل لبنان. الحزب الحنبلاطي يريد سعيد جنبلاط للقائمّقامية بدلاً من أحمد أرسلان، ومشايخ كسروان من آل الخازن وحبيش لا يعترفون بحكم الأمير حيدر بللمع على إقطاعاتهم.

وفارس يراقب أحداث بلاده ويتألم. هاجم امتيازات المقاطعجية على عامة الأهالي فقال «إن رأس الفقير ليس بأضيق ولا بأصغر من رأس الأمير، وإن يكن هذا أكبر عمامة وأغلظ قذالاً» وناشد الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة «جرّبوا مرة . . . أن ترفعوا فَرْق المذاهب من بينكم، فذلك أدعى لكم إلى الحظ والسرور. . . اعلموا، هداكم الله، أنّ فرق الآراء في الأديان لا يمنع من الإلفة والمخالة» .وطالب بإلغاء الامتيازات الإكليركية والمقاطعجية، ودعا إلى الفصل بين الكنيسة والدولة، وإلى ممارسة العقلانية في الدين.

١٨٤٥ ـ باريس: في تغيير زيّ

عاودت الصبياني مناماتُ الشق. شَق خطوط سكة حديد هذه الخَطْرة. حلم بخط يخترق فرنسا من الشمال إلى الجنوب عبر باريس وليون ومارسيليا، فبادر إلى تأسيس «شركة الاتحاد من أجل سكة حديد باريس ـ ليون» برأسمال قدره ٦٠ مليون فرنك. ساهم في الشركة بنك ديلامار الباريسي وبنك دافيد سولومون اللندني ومجموعة مصرفيين من ليون على رأسهم صديقه آرليس ـ ديفور. عرض ديفور على الصبياني إدارة الشركة فقبل المنصب. وانصبّ همّه على توسيع الشركة لتصل إلى المتوسط، دوماً المتوسط. وما لبثت أن اندمجت «شركة الاتحاد» هذه مع شركة أسسها رئيس الوزراء السابق، المصرفي السمعاني لافيت ومعه مجموعة من المصرفيين الفرنساويين على رأسها المصرفي روثشيلد. ارتفع رأسمال الشركة الجديدة إلى ٢٠٠ مليون فرنك فرنساوي. هكذا ولدت شركة «پي. إل. إم» ـ PLM «شركة سكة حديد باريس ـ ليون ـ مارسيليا».

لم يكتف الصبياني بإدارة أكبر شركة لسكة حديد فرنسية. عمل على تأسيس صناعة لقاطرات سكك الحديد وحافلاتها، وقد كانت تستورد قبلاً من بريطانيا، فأسس بشراكة ارليس ـ ديفور مصنعاً لإنتاجها في پيراش، إحدى ضواحي ليون. وتمشياً مع هجمة رأس المال لتحويل الماء إلى سلعة، أسس الصبياني أيضاً «شركة مياه ليون».

استبدل السيد زيّه. نزع زيّ مينيمولطان الرهبني المتقشف

وارتدى بدلة رجال الأعمال البرجوازية. في لوحة زيتية كبيرة رسمت له، بدا مرتدياً الزي الأكثر تعبيراً عن ارتقائه الاجتماعي وموقعه الجديد، يضع يده على ثلاثة كتب، الإنجيل والقرآن وتعاليم السمعاني.

غير أن تغيير موقع الأب الطبقي والفكري لم يغيّر كثيراً في علاقاته النسائية. باع لويس جوردان أملاكه في الجزائر وانتقل إلى باريس لتكون زوجته أورطانس قريبة من عشيقها. كتبت أورطانس لـ«الأب» من مارسيليا تقول «أنا كلّي لك. سيدي، إني أستطيع الآن أن أهبك حبي، هذا ما يريده لويس... لقد آثر التضحية بنفسه على التضحية بي». استقر آل جوردان في باريس وعلّقا في غرفة نومهما صورة لمريم المجدلية الخاطئة برفقة السيد المسيح. وبعد فترة من اقامتهما الباريسية، ولد لهما ابنٌ سمّياه على اسم «السيّد». هل كان ابن أورطانس من لويس أم كان ابناً لـ«الأب»؟ من يدري؟ بل من يهتمّ؟ لا المجدلية باحت بالسرّ ولا «السيِّد» اهتمّ بأن يعرف أصل إن كان هو الأب أم لا.

١٨٤٥ ـ موارنة إلى الجزائر (١)

بعد حوادث الأربعينيات، فكّر عدد من موارنة جبل لبنان باللجوء إلى الجزائر. اتصلوا بالقنصل الفرنسي في الإسكندرية لغرض العمل هناك مزارعين أو جنوداً. كتب القنصل في شهر أيلول ١٨٤٥ يبلغ حكومته بالأمر. أحال وزير الخارجية الطلب إلى وزارة الحربية، فكلّف وزير الحربية مستشاره دراسة المشروع. وتحفظ المستشار عن الأثر السلبي لإسكان مسيحيين عرب وسط

سكان مسلمين، ولم يخفِ خشيته من أن يستغلّ المسيحيون المطرودون من بلادهم على أيدي المسلمين حماية فرنسا لهم للانتقام من المسلمين الحزائريين. إلى هذا، شكك المستشار في القدرات القتالية للمسيحيين، والدليل أنهم كانوا أوفر عدداً من الدروز ومع ذلك خسروا في المجابهات الأخيرة. أما الحجّة الأهم التي سوف لا تنفك ترددها وزارة الحربية، فهي أن الموارنة هم الحلفاء الأشد إخلاصاً لفرنسا في سورية، وهي سوف تحتاج إليهم في حال تفكك السلطنة العثمانية.

لم يقتنع الوزير بتحفظات مستشاره، فأحال الأمر على الجنرال البيكونوري، فلم يلق لديه هو أيضاً أي حماسة للمشروع، خصوصاً أن البيكونوري اعتبر أن المسيحيين المهاجرين هم من فئة الفقراء وسوف يشكّلون عبئاً مالياً على الدولة الفرنسية. بناءً عليه، رفض وزير الخارجية إعطاء التأشيرات لطالبيها من موارنة جبل لبنان، مشدداً على مخاطر إسكان «مسيحيين في الجزائر يتكلمون اللغة ذاتها للمقهورين ويرتدون الأزياء ذاتها ويتشاركون وإياهم في الهمجية».

١٨٤٦ ـ باريس: عود إلى شق

جدد الصبياني البحث في مشروع شق قناة السويس. كلف لامبير ولينان وضع الدراسات والتصاميم اللازمة. وكان يعتقد أن سكة الحديد التي منح الباشا امتيازها إلى الأخوين غالاواي، رجلي الأعمال البريطانيين من أصل اسكوتلندي، سنة ١٨٣٤ لن تحل مشكلة النقل بين المتوسط والمحيط الهندي لأنها لن

تستطيع نقل السلع الثقيلة التي سوف تظل تنقل بحراً عبر رأس الرجاء الصالح. ووجد في شاعر البحيرة نصيراً لمشروعه. وكان هذا قد وقف على منبر الجمعية الوطنية في العام ١٨٤١ مرافعاً عن فكرة تبنّي شق القناة وأعلن: «الطبيعة أقوى من التنافرات القومية البائسة، سوف تتواصل أوروبا والهند بالرغم منكم عبر السويس؛ لن تفعلوا غير تأخير هذه النعمة العظيمة التي يغدقها علينا القدر؛ سوف يتعانق العالمان ويحيي واحدهما الآخر إذ يتلامسان عبر مصر».

العام ١٨٤٦ عقد اجتماع في منزل الصبياني في شارع النصر من الدائرة التاسعة بباريس حضره آرليس ـ ديفور ورجال أعمال من ألمانيا وإنكلترا أسفر عن تأسيس «شركة دراسات قناة السويس» برأس مال قدره ١٥٠ ألف فرنك فرنسي، على أن يكون مركزها في بيت الصبياني. افتتح الصبياني الجلسة بخطاب طويل عرض فيه تضحيات جماعته منذ العام ١٨٣٣ في سبيل القناة، وختم بعبارة تعبّر عن التحول العميق في رؤية السيد للمشروع «أيها السادة، لم تعد قناة السويس نظرية فلسفية ولا هي مسألة سياسية. إنها صفقة تجارية».

ولّى زمن السرير المتوسطي والبحث عن المسيح الأنثى وتخصيب مصر. حتى الفن وَضعه الصبياني في خدمة التجارة. حتى إنه كلّف الموسيقار فيليسيان دافيد أن يستغلّ دوراته الموسيقية في النمسا وألمانيا في الدعوة إلى مشروع قناة السويس.

الفصل الخامس

تشريق ـ تغريب

الشرنقة

بعد المفطر الرابع، تبلغ الدودة ٧ ـ ٦ سنتيمترات طولاً وتصير جميلة مثل نقناقة صغيرة بيضاء مخضرّة. وتبلغ ذروة نشاطها عندما تبدأ بالنهوض على قوائمها الخلفية وتشرئب برأسها إلى أعلى. هذا هو الإيذان بأنها باتت جاهزة للتشرنق والسُّبات، فتبدأ بالتحرّك صعوداً، فتضع لها النساء أعذاق الوزّال أو البلّان ترقى عليها.

وما إن تستقر الدودة على عذق من الأعذاق حتى تأخذ في تحريك رأسها بطريقة دائرية في كل الاتجاهات وتريل رغوة من غدّتين لُعابيتين في أعلى جسمها. تفرز غدة إفرازاً لُعابياً بلون الذهب أو الفضّة يصير خيوط حرير متينة عندما ينشف. وتريل الغدّة الثانية مادة صمغية للصق الخيوط بعضها ببعض. تنسج

الدودة الخيوط حولها في شكل مخروطي وهي تتلوى داخل نسيج يزداد كثافة إلى أن تنام على حرير وقد أسلمت الروح.

تستغرق عملية تشرنق الدودة من يومين إلى ثلاثة أيام. ويكون لون الشرانق (الفيالج) منوّعاً بحسب أنواع الدود الذي يصنعه، ومنه الأبيض الفضي والوردي الشاحب والأصفر الشبيه بلون بَشَرَة الإنسان والذهبي والأخضر. ويبلغ وزن الشرنقة بين غرام واحد وأربعة غرامات.

الدكطر الألماني في بروكسل

قضى الدكطر الألماني ثلاث سنوات في منفاه في بروكسل. خلالها، زار إنكلترا حيث تدير أسرة الملائكة معملاً لغزل القطن في مانشستر. وفي بروكسل طورّ نظريته التي سمّيت «المادية التاريخية». في العام ١٨٤٥ كتب سجالاً ضد المفكر الاشتراكي الفرنسي برودون بعنوان «بؤس الفلسفة». وفي العام ١٨٤٧، أنجز وفريدريك الملائكة تأليف كتاب نقدي بعنوان «الإيديولوجية الألمانية». وفي ربيع ذلك العام، انضم الزميلان إلى «عصبة العادلين» وهي فرع لتنظيم سابق يدعى «عصبة الصعاليك»، والعصبة جمعية سرّية ثورية أسسها في باريس عمال وحرفيون ألمان مهاجرون. في الصيف، تبنّت العصبة «العقيدة الشيوعية النقدية» فأعلنت التزامها «إطاحة البرجوازية وإقامة سلطة البروليتاريا والقضاء على المجتمع القديم القائم على التناقض الطبقي وتشييد مجتمع جديد بلا طبقات ولا

ملكية فردية». وفي مؤتمرها الثاني في لندن في نوفمبر من ذاك العام تسمّت العصبة «العصبة الشيوعية» وكلّفت الدكطر وزميله كتابة إعلان مبادئ للتنظيم الجديد. وضع الملائكة المسوّدة الأولى على شكل ٢٥ سؤالاً وجواباً بعنوان «تعاليم الماركسية» مكتوبة بلغة تعليمية مبسّطة موجهة بالدرجة الأولى إلى العمال. ثم قرّ الرأي على صوغها على شكل بيان إعلان مبادئ صاغه الدكطر بعنوان «البيان الشيوعي».

١٨٤٧ ـ الأمير في الأسر

لاقى البيكونوري ـ وقد سيم «ماريشالاً» ـ صعوبات جمة في مواجهة مجاهدي الأمير يغيرون على قواته عبر الحدود المغربية، فاعترف في يومياته في ٢٤ نوفمبر ١٨٤٥ باستحالة صدّ ضربات عدو سريع ومثابر «يعرف مواقعنا ونجهل مواقعه». وأردف، هو الخبير في قمع انتفاضات الشعوب، «يجب أن يقال لصالح عبد القادر إنه لا يوجد بلد عرف انتفاضة بهذا القدر من التخطيط والتنظيم المحكمَين، مثلما عرفها بلدُه». وختم قائلاً: «على المرء أن يكون ساحراً ليخمّن حركات عبد القادر، وعلى جنودنا أن تنبت لهم أجنحة ليستطيعوا إلقاء القبض عليه». سعى البيكونوري إلى مجاراة أسلوب الأمير القتالي فشكّل «الفرق الطيارة» لمطاردة المجاهدين، لكن لم ينبت لجنوده أجنحة. كتب عبد القادر إلى البيكونوري مؤكداً أنّ أسلوب تفادي المجابهات ليس من قبيل الجبن بل الحيلة: «عندما تتقدمون نتراجع، وعندما تتراجعون نُغِير عليكم. نحن

الذين نختار موقع المعركة والزمان حسب ما يلائمنا». وختم متوعّداً جيش الفرنسيس الجرّار بأنه سوف ينهكه ويناوشه ويدمّره جندياً جندياً، ويترك للمناخ الصحراوي أن يتكفل بالباقي.

خشي سلطان المغرب من وجود عبد القادر داخل حدوده. توجس من أن الخاسر إمارته في الجزائر قد يسعى إلى حكم مراكش. ومارست فرنسا ضغوطاً شديدة على السلطان ليقاتل عبد القادر بذاته. تمنّع السلطان أول الأمر، فأمر البيكونوروي بقصف طنجة، وأردف القصف بهجمات على قوات السلطان فهزمه في معركة إزلي في ١٤ آب ١٨٤٤. وأجبره على توقيع معاهدة يعتبر فيها عبد القادر «خارجاً على القانون». نال الماريشال لقب «دوك» على مأثرته. وانتهى الأمر بأن تولّت القوات المراكشية والقوات الفرنسية محاصرة قوات الأمير.

قاتل الأمير الجيشين وانتصر عليهما في معركة سيدي إبراهيم في ٢٣ أيلول ١٨٤٥. وحاول الأمير خرق الحصار وتمرير «الدائرة» نحو السلامة. خرق الحصار على رأس خيالته، وأخذ يناور بحصانه على عادته ليتفادى الرصاص، فسقط تحته ثلاثة أحصنة وهو يقاتل. لكن «الدائرة» أفلتت من قبضة «جيش المخزن» المراكشي لتقع في كمين نصبه الجيش الفرنسي.

دنت لحظة الحقيقة. الانتحار أم الاستسلام؟ رفض الأمير فكرة القتال حتى آخر رجلٍ. اختار الاستسلام. قال: يجب إفساح المجال أمام مَن سوف يجدد المقاومة من بعدنا، فسئل:

الاستسلام لمن؟ للفرنسيس. انتفض عدد من قادته معارضاً الاستسلام للفرنسيس، فقال لهم: أن أسلّم نفسي لعدوّ حاربته وانتصرت عليه وقبلت هزائمه خير من أن أقدّم رأسي لُمسلم خانني وقت الشدّة. لكن كيف الوثوق بالفرنسيس؟ قال: إني أثق بالبيكونوري. لكنه ليس هنا. وكان «الدوق» قد استقال من مهماته الجزائرية وعاد إلى بلاده. البيكونوري قاسٍ، قال، ولكنه صاحب كلمة. لست أدري إذا كان يمكن الوثوق بالجنرال لامورسيير الذي يتعقبنا منذ أشهر. نجرّبه.

جَرّبه. بعث إلى لامورسيير برسول يقترح الاستسلام. ردّ الجنرال بأن أرسل سيفه دليلاً على منح الأمان، فعاد رسول الأمير إلى الجنرال حاملاً رسالة من الأمير ومعها ختمه الخاص.

٢٣ ديسمبر. مقام سيدي إبراهيم

تقدم الأمير يحيط به قواده والحرس شاقاً طريقه وسط العسكر الفرنسي. أدّى له الجنرال لامورسيير التحية العسكرية وأفسح له ليمر إلى المسجد. صلّى أمير المؤمنين ركعتين في المسجد وخرج وهو يعرُج قليلاً فقد كان جريحاً في ساقه.

حضر الدوق دومال، ابن الملك لوي فيليب، وبرفقته رئيس أركانه الليوتنانت ـ كولونيل أبو فور الهابول. قال الأمير للدوق إنه قاتل الفرنساويين لأنه ظن أن تلك هي مشيئة الله. ولكنه اكتشف أن زملاءه متعَبون والمغاربة يريدون تسليمه لفرنسا،

فأيقن أن مهمته قد انتهت وأن الله عزّ وجلّ يأمره بأن يسلّم سلاحه. سلّم الأمير سيفه للجنرال لامورسيير وأهدى له فرسه الدهماء وطبنجته. قَبِلها الجنرال ضمانة لتوقيف الحرب ورمزاً لنسيان الماضي. أبلغ الدوق الأمير أنه لن يكون أسيراً، فطلب الأمير أن يُنفى إلى عكا في فلسطين أو الإسكندرية في مصر. وعده الدوق خيراً.

بعد ظهر ذلك اليوم، أبحر الأمير وحاشيته من مرفأ وهران على ظهر سفينة رست في مرفأ طولون. رافقه أبو فور وإسماعيل عربان السمعاني، وقد بات المترجم العسكري لبعثة الفرنسيس الحربية في الجزائر. تذرع الفرنسيس بأن الترتيبات مع الدولة المستقبلة سوف تستغرق بضعة أيام، فأنزلوا الأمير وصحبه إلى الشاطئ حيث أسكنوهم قلعة لامالغ.

حنث الفرنسيس بوعدهم. وقف شاعر البحيرة خطيباً في «الجمعية الوطنية» مطالباً بإبقاء الأمير في الأسر في فرنسا، لأن وجوده في الشرق سيكون أشد خطراً على فرنسا من وجوده طليقاً في الصحراء الجزائرية، فتقرر بقاء الأمير سجيناً في الأراضي الفرنسية. اقتيد إلى القلعة البحرية في طولون حيث أودع برفقة حاشيته المكونة من ٧٩ شخصاً بمن فيهم والدته لالة الزهراء ونساؤه الثلاث. رافقه إسماعيل عربان وكان سجّانه لبعض الوقت. ولما تأكد الأمير من أن لا عودة عن قرار منعه الانتقال إلى الإسكندرية أو عكا، التمس الإذن بالسفر إلى مكة المكرّمة لممارسة فريضة الحج. لم يأته جواب على طلبه.

شباط ١٨٤٨: ربيع الشعوب

هبّت رياح الحرية على مدن أوروبا والأرياف مع إطلالة ذلك الربيع الذي سمّي «ربيع الشعوب».

بدأت الانتفاضات بثورة أهالي پاليرمو الإيطالية على حكم آل بوربون في ١٢ ديسمبر. ولحقت بها باريس بعد شهر، ثم كرّت المسبحة فلحقتها ميلانو والبندقية ونابولي وفيينا وپراغ وبودابست وكراكاو وبرلين وكولن. تأثر بها أكثر من خمسين بلداً وصولاً إلى البرازيل. تعددت العوامل التي أطلقت الثورات قدر ما تعددت الأهداف والقوى المشاركة فيها. أبرز العوامل نتائج الثورة الصناعية ـ من بطالة وفقر وهجرة مدينية وظروف عمل قاهرة ـ والتوسع الرأسمالي الذي أخذ ينخر بنية الأنظمة الملكية الاستبدادية ويطرح قضية توحيد الأسواق المحلية.

هي ثورات ديموقراطية تطالب بالملكيات الدستورية أو بإعلان الجمهورية واعتماد الاقتراع العام وتأمين حرية الصحافة والرأي والاجتماع. وهي أيضاً ثورات دارت مدار المسائل القومية. عرفت المقاطعات الإيطالية والإمارات الألمانية والمجر وسويسرا وإرلندة، نزعات انفصالية ـ كما في صقلية ضد حكم البوربون وفي نزعة المجر للانفصال عن النمسا. وشهدت في المقابل نزعات قومية توحيدية طرحت تحقيق الوحدة القومية الألمانية والإيطالية، أو نزعات مركزية مثل إعادة تجميع الكانتونات السويسرية في إطار كونفدرالي. وانتشرت الانتفاضات الفلاحية المعادية للإقطاع ونجحت في إلغاء القنانة

في النمسا وبروسيا. وقامت انتفاضات عمالية في فرنسا وبلجيكا وبريطانيا خرجت من صلبها تيارات اشتراكية لا تكتفي بالمطالبة بتحسين مستوى معيشة العمال وشروط عملهم بل تدعو إلى تنظيم اجتماعي جديد قائم على الحرية والمساواة. عن الطابع الاجتماعي البارز في «ربيع الشعوب» كتب الدبلوماسي والسياسي الفرنسي، صاحب كتاب «الديموقراطية في أميركا»: «المجتمع منشطرٌ الى شطرين: شطر المحرومين يوحّدهم الحسد، وشطر المالكين يوحّدهم الرعب».

في فرنسا، انطلقت الشرارة من قرار حكومي بمنع «حفلات الغداء السياسية» التي ابتكرتها المعارضة للتحايل على إلغاء حرية الصحافة وتحريم الاجتماعات السياسية، فتحولت المطاعم إلى أندية لنقد النظام الملكي والمطالبة بالإصلاح. انطلقت تظاهرات الاحتجاج في شوارع باريس يوم ٢٢ شباط. هتف المتظاهرون بسقوط رئيس الوزراء غيزو، وحاصروا قصره فاشتبكوا مع قوات «الحرس الوطني». سالت دماء وارتفعت المتاريس في الأحياء. في اليوم التالي استقال غيزو، فتوجه المتظاهرون صوب مبنى وزارة الخارجية. أطلق الجيش النار على المتظاهرين فسقط منهم خمسون قتيلاً. ردّت الجموع الهائجة بمحاصرة القصر الملكي، فارتعب الملك لوي فيليب وفرّ من قصره إلى إنكلترا.

شاعر البحيرة هو أبرز شخصيات الثورة. هو الذي اختار العلم المثلث الألوان وأعلن قيام الجمهورية أمام مبنى بلدية باريس

يوم ٢٣ شباط. وهو الذي ترأس «الحكومة المؤقتة» وصار الحاكم المنفرد لفرنسا لثلاثة أشهر على الأقل.

حققت الثورة مكاسب فعلية في أشهرها الأولى. زِيد عدد الذين يحق لهم الترشح والانتخاب إلى تسعة ملايين ذكر. وتفجّرت التعبيرات عن حرية الرأي بصدور لا أقل من ٤٧٩ مطبوعة قبل أفول العام. وتكاثرت الجمعيات الجمهورية والاشتراكية وتأسست نقابات للعمال وجمعيات للنساء تطالب بحقهن في الاقتراع والترشّح أسوة بالرجال. وصدر في فرنسا أول تشريع أوروبي يضمن «حق العمل» وافتُتحت «المحترفات الوطنية» التي وفّرت العمل لأكثر من مئة ألف عاطل من العمل في باريس وحدها، أدارها يساريون ووفّرت التعليم المجاني والضمانات الاجتماعية. وأنشئ «البرلمان الصناعي» برئاسة لوي بلان، ممثل العمال في اللجنة التنفيذية للثورة، وغرضه تنظيم العلاقات بين الصناعيين والعمال، واتخذ مقرّاً له أحد القصور الملكية.

٢٣ أبريل. أدّت انتخابات «المجلس الوطني التأسيسي» إلى مجلس يهيمن عليه «حزب النظام» الملكي بجناحيه، الليجيتيميين (ممثلي كبار ملاك الأراضي) والأورليانيين (ممثلي الأرستقراطية المالية)، وانتهج المجلس سياسات محافظة رغم معارضة النواب الاشتراكيين والجمهوريين الراديكاليين. ومع أن المعارضة في «الجمعية الوطنية»، فرضت على الثورة أن تعلن نفسها «جمهورية ذات مؤسسات اجتماعية»، ما لبثت الأغلبية البرلمانية أن نجحت في إقصاء ممثلي العمال لوي بلان

وأوغست بلانكي عن «اللجنة التنفيذية» للثورة (الوزارة عملياً) ورفضت إنشاء وزارة للعمل.

الانتفاضة العمالية

ثار عمال باريس على «المجلس الوطني التأسيسي» في ١٥ أيار ونصبوا المتاريس وأعلنوا «حكومة مؤقتة» شعاراتها «حرية، مساواة، أخوة». قَمَع «الحرس الوطني» الانتفاضة بعنف واعتقل قادتها أوغُست بلانكي وآرمان باربيس وفرانسوا راسباي. وأكمل «حزب النظام» الردة بإغلاق «المحترفات الوطنية». في ٢٣ حزيران، نزل ١٧٠ ألفاً من عمال باريس إلى الشارع احتجاجاً، وانتصبت المتاريس مجدداً. حَشَد قائد الجيش الجنرال أوجين كافينياك ١٢٠ ألف جندي ضد الانتفاضة العمالية، واضطر إلى ثلاثة أيام من القتال الدموي على المتاريس للتغلّب أخيراً على مقاومة عمال باريس. والجنرال من جنرالات احتلال الجزائر.

ثار العمال وحيدين في انتفاضة حزيران. تكالبت عليهم الأرستقراطية المالية والبرجوازية الصناعية والطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة والجيش و«الحرس المتحرك» وكبار المثقفين والقساوسة والأرياف. تحالفوا جميعاً ضدهم باسم «الأمن والنظام» في مقابل «حزب الفوضى». قضى في المجزرة ثلاثة آلاف من العمال الثائرين، واعتقل عشرات الألوف. وانقسم اليسار بين جناح شيوعي من دعاة الثورة العمالية، يضمّ أتباع بلانكي، وجناح من السمعانيين دعاة تسليم السلطة إلى

أرباب الصناعة والخبراء. أدان السمعانيون الانتفاضة العمالية لرفضهم المبدئي للعنف.

كوفئ كافينياك بتعيينه رئيساً للدولة في ٢٨ حزيران ١٨٤٨، الا أنه سقط سقوطاً مدوّياً في الانتخابات الرئاسية في العاشر من كانون الأول من ذاك العام أمام لوي نابليون بونابرت، ابن أخ نابليون الأول والمطالِب بالعرش الإمبراطوري، الذي نال ٥،٥ ملايين صوت مقابل ١،٥ مليون صوت للجنرال.

فوجئ لوي نابليون نفسه بانتخابه رئيساً للجمهورية الفرنساوية الثانية بثلاثة أرباع أصوات الفرنسيين مقابل لا أكثر من ٠,٢٨٪ من الأصوات نالها شاعر البحيرة. تكاثرت الشكوك في أهلية الوريث البونابارتي للترشح أصلاً حسب الدستور، فقد تخلى عن جنسيته الفرنساوية وحمل الجنسية السويسرانية، ثم إنه خدم دولة أجنبية إذ تطوّع في لندن شرطياً للمساهمة في قمع حركة «الشارتريين» العمالية التي كانت تطالب بالحق في الاقتراع العام. لكن سياسات بونابرت التي وصفت بأنها «كل شيء لكل الناس» كانت جلّابة لتأييد كل أصحاب الامتيازات، كبيرها والصغير، تتلخص في فرض الأمن والاستقرار، وتشكيل حكومة قوية، وتعزيز الوحدة الوطنية وبعث الأمجاد القومية بإحياء المؤسسات والطقوس والرموز العائدة إلى عهد عمّه، نابليون الأول. صوّت له أنصار «حزب النظام» ظناً أنّ ولايته سوف تكون مرحلة انتقالية نحو استعادة النظام الملكي. وانحازت إليه البرجوازية والبرجوازية الصغيرة وقد أفزعتهما

الانتفاضة العمالية فرأتا فيه القائد الوحيد القادر على قطع الطريق على ثورة شيوعية. واستثار بونابرت الحنين إلى المغامرات النابليونية العسكرية، فانحاز إليه الجيش وصوّت له الفلاحون بكثرة تعبيراً عن غضبة الأرياف الدفينة ضد استئثار باريس بالسلطة والثروة والامتيازات.

مهما يكن، أسفرت الانتخابات النيابية عن جمعية وطنية يسيطر عليها «حزب النظام» بما هو تحالف حزبَي ملّاك الأرض وأرستقراطية المال، وذراعه العسكرية الجنرال شارغرنييه الذي تولّى قيادة الفوج الأول في الجيش و«الحرس الوطني» في باريس، بعد تصفية جناحه الديموقراطي. وكان الحزبان يتنافسان من أجل استعادة البيت الملكي لواحد منهما، بيت بوربون أو بيت أورليان.

بنهاية العام كانت الردة المضادة للثورة قد عمّت أوروبا كلها.

في حب الشعب

وقف شاعر البحيرة عاجزاً أمام اندلاع أعمال العنف في ١٥ مايو، وعارض انتفاضة حزيران العمالية بشدة، وانسحب من واجهة الأحداث. عزا الدكطر الألماني النفوذ الاستثنائي الذي حظي به الشاعر إلى أنه لم يكن يمثّل أية قوة فعلية من قوى المجتمع أو الثورة بل «مثّل الانتفاضة العامية بأوهامها وشِعرها ومضمونها الخيالي ورطانتها». أما الشاعر فتساءل في مؤلفه «عن الإلحاد في أوساط الشعب»: «لماذا أنا ديموقراطي مع

أني لم أولد في صفوف الشعب؟ بل لماذا أحب الشعب؟ وأجاب: لأني أؤمن بالله. أحِب الشعب لأني أومن بالله. لكن الشعب جاهل، جره التنويريون، جماعة الاقتصاد السياسي، والعلماء إلى الإلحاد».

اتهم الشاعر قادة ثورة ١٧٨٩ بالإلحاد، وحتّم أن الثورات الملحدة لا بد أن تنتهي بالإرهاب والدم. ولم يستثنِ أحداً من التهمة: الاشتراكي المثالي فورييه، دعاة المذهب الطبيعي، الشيوعيين، الصناعيين، الاقتصاديين والإرهابيين. نموذجه للسلطة السياسية هو أن تحكم الأرستقراطية في ظل الديموقراطية وفي إطار من الاحترام المتبادل بينهما. خاطب ثوار ١٨٤٨ الماديين والحواسيين والاشتراكيين والشيوعيين وجميع أنصار عقائد «اللحم والدم» قائلاً: أنتم عبيد للرفاهية والغرائز. وأهاب بهم «ابحثوا عن الله. تلك طبيعتكم وفيها مكمن عظمتكم. ولا تبحثوا عنه في هذه المذاهب المادية. ليس الله في الأسفل. إن الله في الأعلى!».

جارى السمعانيون شاعر البحيرة في إدانة الانتفاضة العمالية، وحجّتهم الدائمة رفض العنف، مع أن السمعاني أعلن تأييده لكافينياك. وبعث برسالة إلى شاعر البحيرة يلومه فيها على خلطه بين الاشتراكيين والشيوعيين من جهة والسمعانيين من جهة ثانية. فردّ الشاعر: «أرجو المعذرة، لم يكن أبعد على قلبي من أن أصدع قلبك». وَقْلب الصبياني يحب الشعب على طريقته. اختزل المنجزات المطلوبة من الثورة بتعليم الأطفال

وتأمين التقاعد للعجز، وحذّر من المحاولات المتسرعة لزيادة أجور العمال وتحسين علاقات العمل والمساس بالملكية الفردية لأنه لن ينجم عنها غير الفوضى. ووصل عدد من السمعانيين إلى البرلمان وانتخب أحدهم، دوشيز، رئيساً للجمعية العمومية وعيّن آخر، هيبوليت كارنو، وزيراً للتعليم الرسمي. رفض الصبياني أن يتبوأ أي منصب رسمي واكتفى بإصدار صحيفة جديدة «التسليف» ركز فيها على أهمية التسليف العقاري ونزع السلاح. رأى إلى تطور المال والتسليف والنقد الورقي والمصارف على أنه سوف يؤدي تدريجاً إلى إلغاء انفصال البشر عن الأشياء، ورأس المال عن العمل، والإنسان عن الإنسان. بل رأى إلى التسليف على أنه خير دليل على ثقة الإنسان بالإنسان: أن تقرض شخصاً يعني اعترافك بأنه إنسان «خيّر». والإنسان الخيّر هو إنسان مكتفٍ مالياً.

رد عليه الدكطر الألماني ناقضاً: «التسليف يحوي أقصى درجات انعدام الثقة بين البشر، وهو يعني قياس قيمة الإنسان بالمال، تقييمه بما يساوي مالياً». عاشت الصحيفة سنتين ثم أقفلت.

ربيع الدكطر الألماني

«هناك شبح يهدد أوروبا هو شبح الشيوعية».

هكذا كتب الدكطر الألماني في مطلع «البيان الشيوعي». ومقولته الرئيسة أنّ تاريخ كلِ المجتمعات القائمة هو تاريخ الصراع بين الطبقات، بين مستغِلّين ومستغَلّين وبين المضطهَدين

والمضطهِدين. غير أن الجديد في المجتمع الرأسمالي أنه يبسّط التناقضات الطبقية، ويدفعها إلى ذروتها، إذ إنه أنتج طبقة من العمال المأجورين لن تستطيع التحرر إلا إذا حررت المجتمع برمّته بواسطة الثورة الشيوعية التي سوف تقوّض المجتمع الطبقي وتنهي استغلال الإنسان للإنسان وتمهّد لاضمحلال الدولة. وخلص الدكطر في بيانه إلى أنه ليس للعمال ما يخسرونه غير قيودهم، فيما ينتظرهم عالم جديد يقع في متناول اليد. وختم بنداء «يا عمال العالم اتحدوا!».

صدر «البيان» في شباط ١٨٤٨ قبل أيام من اندلاع «ربيع الشعوب». خلال ذاك «الربيع» أعاد الدكطر إصدار صحيفته بعنوان جديد «داي نيو رانيخ زايتونغ» فلاقت رواجاً كبيراً. ولما طرد من بروكسل لجأ إلى باريس الثورة وحضر انتفاضة يونيو العمالية فيها، لكن أعيد طرده منها في ربيع ١٨٤٩ فعاد إلى كولن ولم يكد يستقر فيها حتى انتصرت الردة المضادة للثورة فطرِد من بلده وسحبتْ جنسيته البروسية. انتقل الدكطر منفياً إلى لندن حيث عكف على تحليل أسباب فشل ثورات «ربيع ١٨٤٨» في كتابيه «الصراعات الطبقية في فرنسا» و«١٨ برومير للوي بونابرت». أما فريدريك الملائكة، فشارك في الانتفاضات العمالية في ألمانيا، فاستحق لقب «الجنرال» في عائلة الدكطر.

حبيس الربيع

ألغت ثورة شباط ١٨٤٨ الفرنساوية الرقّ وطمحت إلى تحرير شعوب أوروبا، لكنها كرّست عبودية الجزائر.

عيّنت السلطات الفرنساوية جزار الجزائر قائداً لقواتها المسلحة، وتمرّد «الحرس الوطني» على تنفيذ أوامر البيكونوري فأعفي من منصبه وعُوّض عليه بانتخابه عضواً في «المجلس التأسيسي». قدّم البيكونوري اقتراحاً بالانسحاب من العمق الجزائري والاكتفاء بالسيطرة على الساحل والمرافئ والمدن التي تخدم الأغراض التجارية، فلم يلقَ اقتراحه آذاناً صاغية لدى الثوار.

خلال الثورة، جدّد عبد القادر المطالبة بإطلاق سراحه. لم يلقَ تأييد أحد من الثوار، وخصوصاً مثقفيهم والأدباء. في طليعة المعارضين كتور هيغو، شاعر فرنسا الكبير والروائي والمنافح عن حقوق الإنسان وداعية إلغاء العبودية وحكم الإعدام ونصير العدالة الاجتماعية. إلى هذا كله، عرف عن هيغو دفاعه عن حق شعب بولونيا في تقرير المصير والحكم الذاتي. ومع ذلك، عارض صاحب «البؤساء» و«أحدب نوتردام» التخلي عن أي شبر من أرض الجزائر. قال «يجب الاحتفاظ بالجزائر كلها لأننا سوف نحمل إليها الحضارة». أمّا العالِم الكبير آراغو، عضو أكاديمية العلوم وبروفسور الهندسة التحليلية في كلية «متعددة الحيل» وصاحب نظرية «موجات الضوء» و«مغنطة الحديد»، فشغل منصب وزير الحربية والبحرية، قبل أن يعيّنه صديقه شاعر البحيرة رئيساً للجنة التنفيذية للجمهورية، أي ما يوازي رئيساً لمجلس الوزراء. رفض آراغو هو أيضاً أي تغيير في وضع عبد القادر. أما شاعر البحيرة فظل متمسكاً بموقفه السابق على منبر «الجمعية الوطنية» حيث اعتبر أن وجود الأمير في سورية أخطر على فرنسا من وجوده في الصحراء الجزائرية.

ودعا زعيم ثورة «ربيع الشعوب» إلى إنشاء «حلف حضاريّ مقدّس» يقيم انتداباً جماعياً للغرب على الشرق ويوكَل فيه إلى كل دولة أوروبية حُكم جزء من أجزاء السلطنة العمثانية. ولم يشذّ اليسار الاشتراكي عن الإجماع الاستعماري: طالب باستقلال بولونيا وسكت عن احتلال الجزائر، هذا عندما لم يؤيده تأييداً.

كل ما سمح به ربيع الشعوب نقْل الأمير وحاشيته إلى قصر آمبواز الأوفر راحة من قلعة طولون البحرية.

موارنة إلى الجزائر (٢)

عام ١٨٤٧ قام الصحافي بوديكور بمسعى جديد لتوطين موارنة في الجزائر. تبادل المذكرات والرسائل مع غير وزارة. طوي الموضوع مع قيام ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، لكن خلال الثورة شرّعت «الجمعية العمومية» الجمهورية إنشاء قرى زراعية للمعمرين الباريسيين في الجزائر ورصدت ٥٠ مليون فرنك لهذا الغرض. غير أن تجنيد المتطوعين من أبناء ضواحي باريس العمالية واجه صعوبات جمة بحيث بقيت قرى بناها سلاح الهندسة في الجيش الفرنسي غير مأهولة بالكامل. اغتنم بوديكور المناسبة ليعاود طرح موضوع الاستعانة بالموارنة اللبنانيين على استعمار الجزائر. دبّج مذكرة جديدة بتاريخ ٢٧ أيلول ١٨٤٩ أسهب فيها بالحجج لصلاح مشروعه. أولاً، إن توطين المعمّرين الموارنة أقلّ تكلفة من توطين المعمرين

الأوروبيين. ثانياً، يمكن وضع الفلاحين الموارنة تحت وصاية رجال الدين الموارنة على أن يبنى لهؤلاء ديرٌ خاص وهم «ليسوا أقلّ قدرة على الاستعمار من رجال الدين الفرنسيين». ثالثاً، الموارنة تجار أكفاء، يمكن لألف أو ألفين منهم أن يؤلّفوا شبكة تجارية من الناطقين بالعربية تغطي الجزائر من الساحل للصحراء، فينافسوا التجار اليهود الذين تتوجس منهم السلطات الاستعمارية لصلاتهم الوثيقة بالإنكليز. رابعاً، سوف يعود المعمّرون الموارنة بالفائدة على مسيحيي لبنان لأنّ احتكاكهم بالمؤسسات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر من شأنه أن يجعلهم يتخلّون عن المؤسسات الإقطاعية وأن ينفتحوا على مؤسسات أكثر انسجاماً مع الحضارة الغربية.

١٨٤٨ ـ لندن زمن الثورات

وصل فارس إلى لندن في أيلول ١٨٤٨ لمساعدة الدكطر لِي على ترجمة الكتاب المقدّس بدعوة من «جمعية نشر المعرفة المسيحية». حين نزل عاصمة الإمبراطورية وهو مصرّ على لبس الجلباب واعتمار الطربوش، كانت المدينة تزيل بقايا انتفاضة شعبية قادها «الشارتريون» (العريضيون)، الحزب العمالي الداعي إلى الاقتراع العام، يرأسه فيرغُس أوكونور، ذلك المسمّى «أسد الحرية».

دعا العريضيون إلى مسيرة شعبية إلى البرلمان يوم ١٠ نيسان لتسليم النواب عريضة وقّع عليها ستة ملايين بريطاني وتحتوي

على ستة مطالب: الاقتراع العام للرجال، سرّية الاقتراع في صندوق، إلغاء شروط المُلكية على الترشح والانتخاب لمجلس العموم، تعويض مالي للنواب، دوائر انتخابية متساوية، وانتخابات نيابية سنوية. الطابع الغالب على الحركة هو الطابع العمالي. علّق الدكطر الألماني على حركتهم: الاقتراع العام يعادل تسلّم الطبقة العاملة للسلطة. وأكدت الطبقة الحاكمة البريطانية رأيه فأعلنت حال الطوارئ على اعتبار أن العريضيين يخطّطون للقيام بثورة والاستيلاء على الحكم. وبلغ الهلع في القصر الملكي حد تهريب الملكة فكتوريا إلى إحدى الجزر الملكية. منعت المسيرة إلى البرلمان واستدعي دوك والنغتن مع وحدات من الجيش والشرطة الخاصة إلى العاصمة استعداداً للقمع. اكتفى قادة الحركة بمهرجان شعبي حاشد في مشاعات كننغتن وذهب وفد منهم لتسليم العريضة إلى مجلس العموم.

حلّ فارس في قرية پيرلي ليكون على مقربة من الدكطر لي الساكن مدينة كمبردج يدرّس العربية في جامعتها. استغرب فارس أن يلقى فلاحي إنكلترا أشقى وأفقر حالاً من فلاحي بلاده بل وجدهم «أشقى خلق الله» قاطبة. أجرى أبحاثه فاكتشف أن شقاء الفلاحين عائد إلى احتكار «الأمراء والأشراف» للأرض. وفي أثناء إقامته في القرية البائسة فُجع فارس بوفاة طفله ابن السنتين من مرض صاعق لعدم توفر الطبيب والدواء، فانتقل للسكن في كمبردج وسعى إلى التدريس في جامعتها فلم يوفّق، ولا هو وُفّق في التدريس في أوكسفرد مع أنه كان حائزاً الجنسية البريطانية.

ولما درس أحوال لندن، شهق وقال «يا ليت شعري، متى نصير نحن ولد آدم بشراً كهؤلاء البشر؟ متى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا؟». وتراءى له أنّ أساس التمدن في تلك البلاد هو إعلاؤها قيمة العمل، وخلص إلى أنه «يكون التمدن عند الذين ليس عندهم صنائع أنكى وأضرّ وأدهى وأمرّ». واكتشف أن العمال والصناع هم حجر الزاوية في التمدن والحضارة مع أنهم محرومون من خيراتها. فتساءل مستهجناً «كيف بُني هذا العالم على الفساد؟ كيف يشقى فيه ألف رجل بل ألفان ليسعد رجل واحد؟ فقد يكون له قلب ولا رحمة، ويدان ولا عمل، ورأس ولا رشد ولا نهيّة». وعاين ظروف معيشة العمال في أحياء لندن الفقيرة، فلاحظ اكتظاظ السكن وانعدام الشروط الصحية، واكتشف دور الفقر في المآسي الاجتماعية من جرائم وحوادث انتحار وانتشار البغاء وحوادث الإجهاض بين المراهقات. وعارض الإحسان وتقديس فضائل الفقر في الديانات.

وتوصل فارس إلى نتيجة تقول إن دولة للعمال والفلاحين أسلم حالاً من دولة للأغنياء، فسلك طريق الاشتراك.

١٨٥٠ ـ موارنة إلى الجزائر (٣)

٩ سبتمبر ١٨٥٠. طرح الأب بول جان عازار، النائب الأسقفي الماروني لصيدا، مشروعه لتوطين موارنة في الجزائر. حاجج كما يلي: يمكن للموارنة أن يكوّنوا صلة وصل مثالية بين المعمّرين الفرنساويين والأهالي لأنهم عربيو اللسان مثل السكان

الأصليين. ولما كانوا مسيحيين كاثوليكيين مثل المعمّرين، يمكن الاعتماد عليهم بأن يكونوا رعايا طيّعين للإدارة الفرنسية في الجزائر، خاضعين لسلطتها، محترمين لقوانينها وسهلي الانقياد لمشيئتها. «وهذا ما لا تستطيع أن نتوقعه من السكان المعادين مثل العرب أو النازعين إلى الاستقلال مثل البربر أو المتقدمين مثل الفرنسيين»، حسب قول الأب عازار. لكن على العكس من بوديكور، رأى الأب بول جان عازار أن نقطة القوة عند الموارنة هي تمسكهم بتنظيمهم الإداري والعسكري والديني الإقطاعي. وأضاف أن الموارنة يجيدون زراعات ليس يعرفها السكان الأصليون مثل تربية دود القزّ وزراعة التبغ [كذا!] والزيتون [كذا!] وتجفيف الفواكه [كذا!] وتربية المواشي [كذا!] وزراعة الحبوب [كذا!]. تخفيفاً للأعباء المالية عن الإدارة الفرنسية، اقترح الأب عازار أن يهاجر في البداية عدد من المزارعين الموارنة المتوسطي الحال على نفقتهم، وأن تكتفي السلطات الاستعمارية الفرنسية بتقديم الأرض والتسليفات الضرورية لتغطية أكلاف أول موسم زراعي لا غير.

لقيت مذكرة عازار ترحيباً من الجنرال دوما، مندوب الجزائر في وزارة الخارجية، فكتب إلى وزير الحربية مؤيداً المشروع دون تحفظ. أحال هذا بدوره المشروع إلى الحكومة التي أقّرته وأحالته للتنفيذ وبدأ البحث الجاد في الأماكن التي سوف يستقر فيها المهاجرون الموارنة. بقي أن تستحصل وزارة الخارجية على موافقة السلطات العثمانية على سفر الرعايا الموارنة. عجز القنصل الفرنسي في الآستانة عن إقناع الوزراء العثمانيين

بالأمر. ولما كان الإمبراطور يفاوض العثمانيين بشأن القدس، لم يشأ أن يفقد ودّ الباب العالي بسبب مسألة ظل يعدّها ثانوية. وهكذا استبعد مشروع الأب عازار الذي صدر قرار بطرده من الأراضي الفرنسية عام ١٨٥١ بتهمة الاحتيال. ولما عاد إلى لبنان أخذ يجمع المتطوعين للهجرة بحجة أنه مكلّف رسمياً من الفرنساويين، فصدر عن القنصلية في بيروت نفي رسمي لمزاعمه. أمّا الحيثيات التي بُنيت عليها تهمة الاحتيال على الأب عازار فلا تزال طيّ الكتمان.

انقلاب الثاني من ديسمبر

لم يخيّب البونا بارت الظن في جدارته بفرض «الأمن والنظام».

ما إن تسلّم الرئاسة حتى أمر بنفي ١٥ ألفاً من ثوار انتفاضة يونيو العمالية، وأعلن حلّ «الحرس الوطني المتحرك»، وألغى «النوادي» والحرس محورَي قوة اليسار الجمهوري والعمالي. في ذكرى انتفاضتهم السنوية، أعلن اليساريون والاشتراكيون انتفاضة ضد البونا بارت احتجاجاً على الانقلاب في سياسته الإيطالية من دعم الجمهوريين الوحدويين إلى محاربتهم لمنع ضم الدول البابوية إلى إيطاليا الموحدة. ولم يخفَ على أحد أنّ الدافع إلى الانقلاب هو تملّق البونا للكنيسة واليمين الملكي الكاثوليكي. رفع اليسار شعار «العدوان على الجمهورية الرومانية عدوان على الجمهورية الفرنسية»، ونزل جمهوره إلى

الشارع وانتصبت المتاريس. قُمِعت الانتفاضة بواسطة الجيش وأعلن الرئيس الأحكام العرفية وشنّت الشرطة حملات اعتقال واسعة، ودهمت المطابع الجمهورية وأمعنت في تخريبها.

أكتوبر ١٨٤٩. بعدما أفقد البونا بارت «الجمعية الوطنية» سلطتها على الوزارة، عيّن حكومة جديدة دون رئيس. سمّيت الحكومة «حكومة أبو فور الهابول» لأن هذا ترأس فيها فريقاً من رجالات البونا من دون أن يسمّى رسميا رئيساً لها. شغل منصب وزير الدفاع للتوكيد على أن البرجوازية، حفاظاً على سلطتها، استبدلت شعار «الحرية والمساواة والأخوة» بشعار «المُشاة والخيالة والمدفعية»، على حد تعبير الدكطر الألماني. وكان الهابول بعد دوره في احتلال الجزائر وإسقاط «زمالة» الأمير عبد القادر، عيّن حاكماً على محافظة وهران ثم على مستغانم وتلمسان. وانتقل بعدها للسياسة بوصفه أحد أبرز قادة الردة على الثورة حيث انضمّ إلى كتلة «الليجيتيميين» في الجمعية التشريعية قبل أن ينحاز إلى بونا بارت.

خصّص أبو فور معظم وقته وإمكانات وزارته لتطوير أجهزة العسس والاستخبارات. عيَّن الدركي مخبراً على نائب مدير الشرطة، ونائب مدير الشرطة مخبراً على مدير الشرطة والاثنين على رئيس البلدية والمحافظ. ونظّم شبكات تجسس لم تعرفها فرنسا من قبل، وصولاً إلى أصغر عشّ في آخر قرية نائية. هدّد قادة الجناح اليساري من الثورة بالقمع إذا سوّلت لهم أنفسهم التظاهر في الشارع مرة أخرى. ودعم كل الإجراءات المعادية

للشعب، بما فيها القانون الشهير ضد معلّمي المدارس. غير أن البونا بارت ما لبث أن عزل وزير دفاعه في نهاية العام ١٨٥٠ في محاولة لتحميله كل موبقات الحقبة الأولى من رئاسته. وجاء عزل أبو فور بمثابة تنازل أيضاً لصالح الجنرال شانغارنييه، قائد الجيش وآمر «الحرس الوطني» في باريس والزعيم الفعلي لـ«حزب النظام» الذي كان يضغط للتخلص من الهابول. هكذا انفرد شانغارنييه في أن يكون «الطفل المعجزة للخواف البرجوازي»، على ما سمّاه الدكطر الألماني، وبطلها المخلّص من الثورة العمالية. وعوّض الرئيس على أبوفور بمنحه وشاح جوقة الشرف وإعادته إلى السلك العسكري وترقيته.

على الصعيد الداخلي، اهتم بونا بارت بالتصنيع وتنفيذ المشاريع الكبرى، وأحاط نفسه بالمستشارين ورجال الأعمال السمعانيين. وكان الرئيس الجديد لفرنسا قد قرأ السمعاني وهو في المعتقل واستهوته أفكاره عن القدَر والتقدم والصناعة، وتبنّى نظريته القائلة إن التاريخ يصنعه رجال عظام. وآمن البونا بأن القدر يختار بعض الرجال ليكونوا قادة لمسيرة الجنس البشري، وظنّ نفسه واحداً منهم.

سنّ الرئيس الأمير دستوراً جديداً وأعاد العمل بالاقتراع العام. لكن نشب نزاع عنيف بينه وبين «الجمعية الوطنية» عندما سعى إلى تجديد ولايته المحددة دستورياً بأربع سنوات غير قابلة للتمديد. رفضت أكثرية النواب تعديل الدستور، فلجأ إلى

ميليشياته المنضوية في «جمعية العاشر من ديسمبر» تعج بالدهماء والرعاع وحشو العامة من جنود مسرّحين ومتخرجي سجون ونشّالين وسَرَقة وقوادين ومقامِرين ومتشرّدين ومُجرمين صغار وعيّارين ومتسولين، ومَن على شاكلتهم. كان هؤلاء جمهور تظاهرات التأييد التي تهتف «يعيش الإمبراطور»، والرجل لا يزال رئيساً للجمهورية، ومنهم تشكلت عصابات البلطجية والشبيحة تقاتل اليساريين والجمهوريين في الشوارع ـ بحماية البوليس طبعاً.

استغلّ البونا شلل «الجمعية الوطنية» والتضارب بين جناحيها الملكيين لتنفيذ انقلابه ليلة ١ ـ ٢ ديسمبر ١٨٥٢. عزل شانغارنييه واستخدم أموال عشيقته الإنكليزية هارييت هاوارد لرشوة كبار الجنرالات وتمويل الانقلاب، وألقى القبض على قادة الكتل البرلمانية. وفجر يوم الثاني من كانون الأول، أمر قواته باحتلال الساحات العامة ومبنى «الجمعية الوطنية» ودارت ميليشيات «العاشر من كانون الأولى» على الشوارع تلصق ملصقات تعلن حل «الجمعية الوطنية» و«مجلس الدولة» وفرض حالة الطوارئ في باريس الكبرى.

وصف الدكطر الألماني انقلاب الثاني من ديسمبر بأنه انتصار للبونا بارت على «الجمعية الوطنية» وإنتصار للهيئة التنفيذية على الهيئة التشريعية وانتصار للقوة الفاقدة للكلمات على قوة الكلمات. من جهته، نَعَت الروائي الكبير إميل زولا بونا بارت بـ«الأحمق» وعلّق فكتور هيغو قائلاً «أول خطأ ارتكبته فرنسا هو

اعتباره أحمق، والثاني هو اعتباره عبقريا». قالها الشاعر الكبير وسلك طريق المنفى.

١٨٥٣ فارس في باريس

ضاقت الدنيا البريطانية بفارس. ومع ذلك، أتم ترجمة «كتاب الصلوات»، وبعده «العهد الجديد» من الكتاب المقدس، ثم الكتاب المقدس كاملاً في عشرين شهراً. كثرت خلافاته مع الدكطر لِي على الترجمة. اتّهَم لِي فارس بأنه يعتمد على لغة القرآن وتراكيبها فيما هو يؤثر كل ما هو عبراني أو سرياني. زهقت روح فارس المتمردة من طهرانية البيليشيين، فقرر الانتقال إلى باريس. على الحدود، شك الأمن الفرنساوي بأنه جاسوس بريطاني، ففتشوا حقائبه وقلبوا محتوياتها رأساً على عقب، ولم يعثروا على شيء.

سكنت الأسرة في باريس الدائرة التاسعة. وفي باريس، التقى فارس مدرّسي اللغة العربية ومستشرقي ذلك الزمان. وتعرّف إلى الشيخ مرعي الدحداح المقيم في مارسيليا، لكنه خاصم صهره رُشَيد الدحداح، صاحب صحيفة «برجيس باريس» المعروفة بقربها من الدوائر الرسمية الفرنسية. وعلى عادته في كل بلد، دبّج فارس قصيدة في مديح الأمير لوي نابليون وهو لا يزال رئيساً للجمهورية. وسعى فارس إلى لقاء شاعر البحيرة، مقصد جميع القادمين من جبل لبنان. حمل إليه رسالة توصية من الشيخ مرعي وكاتَبه، فلم يجبه الشاعر على رسالته،

فعلّق غاضباً: «مع أنك لو كتبتَ إلى الصدر الأعظم في دولة الإنكليز لأجابك لا محال بالسلب أو الإيجاب».

ويا له من عالم صغير! زار فارس في شقته الباريسية الجنرال الدوق أبو فور الهابول. وكانت زوجة فارس قد تعرّفتْ الى شقيقة الجنرال في حفل. ولما مرضت الزوجة، وكثيراً ما كانت تَمرض، وحار في أمرها طبيباها النطاسيان النمساويان، اقترح أبو فور أن تشاور صهره ليدوس، الطبيب العُشْبيّ علّ أعشابه تفيدها. لم تفد اعشاب صهر الجنرال، وتبيّن أن أجوره وأسعار أعشابه مرتفعة جداً، فاستغنى آل فارس عن خدماته بعدما نقدوه نصف ثمن الأدوية الذي طلبه، فانقطع الهابول عن زيارتهم. أخيراً، أرسل فارس زوجته إلى الآستانة برفقة ابنه سليم للاستشفاء والنقاهة.

باريس: ١٨٥٢ ـ الأمير إلى الشرق

تبدّلت أحوال عبد القادر عندما انتخب الأمير البونا بارتي رئيساً للجمهورية الفرنسية.

١٦ أكتوبر ١٨٥٢. زار الرئيس الأمير السجين في آمبواز وأعلن له «جئت لأخبرك بحريتك». وقال له «إن استيلاء فرنسا على الجزائر وقع بإرادة الله سبحانه تعالى» ثم دعاه إلى زيارته في باريس. لمّا لبّى الأمير الدعوة كان الرئيس لوي نابليون قد صار إمبراطور الفرنسيس بونابرت الثالث. أوفد الإمبراطور إسماعيل عربان لمرافقة الأمير وقد عيّن عربان مستشار

الإمبراطور الشخصي للشؤون العربية. استقبل الإمبراطور الأمير العربي بحفاوة، وأحسن وفادته في قصره في «سان كلو»، وصرف له راتباً شهرياً مقداره ٣٠٠ ألف فرنك فرنسي، وأهدى إليه سيفاً رافضاً أن يغادر فرنسا دون سلاح. «لم أعد من الذين يستخدمون السيوف»، قال الأمير. ومع ذلك كرر تعهده بأنه لن يعود إلى الجزائر ولن يشهر السيف في وجه فرنسا أبداً، ثم استأذن الإمبراطور للمغادرة إلى الشرق فأذِن له. وقبل أن يغادر الأمير فرنسا، قصد باريس ومكث فيها لأشهر، وحضر احتفال تنصيب «سلطان الفرنسيس» وزار كاتدرائية نوتردام والمكتبة الوطنية وقبر البونابارتي الأول، واستعرض حرس الشرف على صهوة جواد أبيض هدية من الإمبراطور.

وصادف أن فارس كان في باريس خلال زيارة الأمير وقد أفرغتْ حياة التبطل والتسكع والقمار ما في كيسه، فاضطر إلى استئجار غرفة صغيرة في بناء عال، فيها يأكل ويشرب ويطبخ وينام ويكتب ويستقبل زواره. وكان الأمير قد حاز نسخة من «الساق على الساق» أهدتها له «مدام بشار»، فكتب إلى فارس في ٨ محرم سنة ١٣٧٢ هـ. «قد أبدعت في هذا الكتاب مما أعجزت فيه مَن قبلك ومن بعدك...». ونظم الفارياق قصيدة في مديح الأمير المجاهد تحيّي جهاده ضد الاستعمار الفرنسي يقول فيها: «لا تخشَ من بأسٍ فربّك قاهرٌ / بدعائك الميمون جيشَ الجائرِ». سُرّ الأمير بالقصيدة مع أن قهر جيش الفرنسيس الجائر لم يعد على جدول أعماله، فاستدعى المادح لزيارته وقابله بغاية الاحترام وكافأه بوسائل الأمراء في الإكرام.

وغادر الأمير فرنسا عن طريق البحر من مارسيليا إلى بروسة. زار إسلامبول المحروسة، واستقبله السلطان عبد المجيد في الأيام الأولى من العام ١٨٥٣ وأكرم وفادته وأقطعه أراضي واسعة في بشليك دمشق.

موارنة إلى الجزائر (٤)

محاولة استيطانية أخرى تولاّها تاجر فرنسي في القاهرة هو السيد والماس الذي توجه إلى نابليون الثالث شخصياً بمذكرة طويلة شرح فيها أن ضمان استقرار الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو نمو عدد ووزن السكان المسيحيين فيها: «آن الأوان لأن نستخدم، ولو على سبيل التجربة، العنصر الديني والخلقي لضمان الازدهار الاستعماري وإحياء أوروبا الفاسدة والمنحلّة خلقياً. لن نستطيع هنا الاعتماد على العرب لأن ديانتهم تجعل منهم، ولأمد بعيد في المستقبل، معادين لفرنسا. ولما كنا لا نستطيع التفكير بإبادتهم، لأن في ذلك تكراراً للأهوال التي ارتكبها الإسبانيون في أميركا، وجب جرّهم إلى الحضارة جرّاً مثلما جرّت روما المسيحيةُ البرابرةَ إلى الحضارة وجعلتهم يعتنقون المسيحية في القرون الوسطى. وسوف يكون مسيحيو سورية خير وكلاء لنا، جاهزين لإتمام مثل هذا التحويل، وبإدخالهم إلى أفريقيا، سوف تخدم فرنسا مصالحها ومصالح الحضارة في آن معاً».

لم تحظَ الرسالة بعين عطوف من لدن الإمبراطور.

بولس في زي جديد

عندما تصاعد الدخان الأبيض من مدخنة مجمع المطارنة في دير ميفوق، انطلقت تظاهرات في كسروان تهتف لـ«بطريرك المساواة والحرية والعدل». لقد انتخب المطارنة أخيراً بولس مسعد بطركاً للطائفة المارونية.

هي مسيرة طويلة قادت ابن مدرسة عين ورقة إلى أرفع منصب كنسي في الطائفة. عام ١٨٤١، رسمه البطرك حبيش مطراناً على طرطرس، ثم عيّنه في دير مار جرجس ـ علما قبل أن يجعله نائباً بطركياً في شؤون الروحانيات. وعند وفاة البطرك في ٢٣ مايو ١٨٤٥، اجتمع المطارنة في دير ميفوق لانتخاب خلف له، ومال أكثرهم إلى بولس مسعد الذي تحلقت حوله كتلة من المطارنة المعادين للأسر المقاطعجية وبينهم مطران بيروت طوبيا عون. كاد مسعد أن يفوز لولا تدخل المشايخ الخوازنة وإصرارهم على انتخاب واحد منهم، فانتخب المطران يوسف الخازن. وعند وفاة البطرك الخازن انتخب مسعد بالإجماع يوم ١٢ نوفمبر ١٨٥٤ وجرى تثبيته من قبل الحبر الأعظم بيوس التاسع يوم ٢٣ مارس ١٨٥٥، لكنه رفض تسلّم البيعة التي كان الخوازنة يخلعونها على البطاركة حسب التقاليد الجارية. ثم قَبِلها على مضض بعد تدخل وجهاء الطائفة، إلا أنه لم يرتدِها مرة واحدة طوال حياته.

ومعلومكم أنّ بين مسعد والمشايخ قصة أزياء تعود إلى حادثة وقعت لوالدته في كنيسة عشقوت. جاءت مرة إلى الكنيسة

ترتدي الطنطور، فتقدمت منها شيخة من شيخات الخوازن وصفعتها على خدها قائلة «هذا الزي ليس لك فاذهبي واستبدليه». لم ينسَ بولس مسعد الحادثة.

والبطرك الجديد، كما وصفه جبرائيل القرداحي بلغة ذلك الزمان «شيخ قصير القامة، قوي البنية، رقيق الحاجبين، جميل اللحية والعارضين، أبيض اللون، مهيب المنظر، نقيّ الجيب، متوقّد الفؤاد، صحيح الفكر، ثاقب الرأي، أبيّ يؤثر المنيّة على الدنيّة، متين الوداد، طويل الباع في علوم كثيرة ولا سيما التاريخ... خبير بفنون السياسة، يضع كل أمر موضعه، حكيم متدبّر لا يأتي من الأمور إلاّ ما استطاع إليه سبيلاً... قليل الكلام محكمه مأمون التنديد».

حاول البطرك الجديد عدة إصلاحات، أبرزها تعزيز شأن الكنيسة وتقويتها على حساب السلطات الزمنية بين الموارنة. أراد إضعاف سلطة المشايخ، فأفاد من الخطي هميون السلطاني الذي أصدره السلطان العام ١٨٣٩ والذي يزيد عملياً من صلاحيات الهيئات الملّية وسلطاتها ودعا إلى مجمع بلدي اتخذ جملة من القرارات تحكم سيطرة الإكليروس على المجتمع، تمت كلها تحت شعارات حفظ الإيمان والاحتراس من أعداء الكنيسة الرومانية المقدسة، وتحريم معاشرة المبشرين الإنجيليين، وقد أمر الرقيم البطركي بوجوب اعتبارهم «ذئاباً خاطفة» وإخراجهم من البلاد و«عدم اقتناء كتبهم ورسائلهم الحاوية على تعاليم باطلة وأقاويل مشككة». وأنشأ مسعد مطبعة

بأحرف عربية اشتريت عام ١٨٥٥ من أوروبا بمبلغ ٧٥ ألف غرش، وأودعها دير سيدة طاميش، لكنه فرض رقابة مشددة لرجال الدين على الكتب وألزم بأخذ إذنهم المسبق لنشر أي كتاب. وعيّن عدداً من أقربائه أساقفةً على الطائفة. وفي عهده، وضعت الكنيسة يدها على الرهبانيات.

١٨٥٣ ـ باريس ـ اللغمرة

وقال فارس الشدياق: المرأة لغة. عاينوا جمال النساء على اختلاف أنواعه وأنصتوا له «له نطق ونداء ودعاء وإشارة ورمز». وتساءل: كيف لي إعراب المرأة وتصريف افعالها؟ كيف أتكلم أنثى الكلام؟ حار في امره إلى أن أدرك أن عليه أن يصير امرأة. صار امرأة ليكتب ذاك الكتاب «عشت برهة من الدهر امرأة حتى امكن لي معرفة سرائرهن. ثم مسخني الله تبارك وتعالى رجلاً».

«الساق على الساق فيما هو الفارياق».

قال: حبلتُ بهذا الكتاب لأشهر ثلاثة وتوحّمت عليه وولدته. وغرضي منه غرضان: «ابراز غرائب اللغة وذكر محامد النساء». وعن النساء أشهد أنهن «زخرف الكون... وعلق القلب... وروح الروح... وجنة الجنان... وصفاء الدم ولذة الحواس». وعن اللغة، أشهد أن اللغة أنثى. فيجب أن يعاد تأنيثها. «وإن اللغة إنما وضعوها استبداداً منهم بالنساء وافتئاتاً كما هو دأبهم في غير ذلك. مع أن اللغة أنثى، ولو كانت من وضع النساء ـ وهو الأولى إذ كل إنتاج ووَضْعٍ لا بدّ له من

ماهية أنثوية ـ لكُنّ وضعنَ ألفاظاً تدلّ على مَن لا يفكّر في غير امرأته». اللغة هي المرأة ـ اللغة. وهي اللغمرة.

وفارس ـ المرأة الذي عاد الله فمسخه رجلاً، ازدوج: صار فارياقاً وفارياقية. تدور الحوارات بينهما دون توقف. يسألها: «اصدقيني في ما تقولين: هل لذة المرأة حين تنظر إلى جسم الرجل كلذّة الرجل حين ينظر إلى جسد المرأة؟ فتجيب: «هما سيّان ولعل الأول أعظم». يلعب الفارياق على الكلمات فيما الفارياقية تطالب بحق.

ـ «ما أعجل النساء!»

ـ «وما أحبهن للإبطاء!»

يسرف في وصف النهدين. تستوقفه الفارياقية: «لو جئتَ بكلمة تدلّ على التقامهما أو قفطهما لكانت خيراً من كثير من هذه الصفات». يعترف بأنه لم يعثر بعد على الكلمة المناسبة في «قاموس» الفيروزابادي، وقيل إنه حفظه عن ظهر قلب.

ويتطرقان إلى حب الزوج غير زوجته وحب الزوجة غير زوجها لأنهما يرفضان استخدام تعبير الخيانة الزوجية. يسّلم الفارياق بحق الزوجة في أن تتزوج أو أن تعاشر عدة رجال، مع أن الفارياقية تؤكد له أنها ليست تجد اللذة إلا في الحلال. ويسخران معاً من النفاق القائم على إدانة المرأة المتزوجة إن هي أحبت غير زوجها فيما يُعذَر الزوج إن هو فَعَل، بل تُلام الزوجة وحدها على فِعل الزوج. وتتبسط الفارياقية في أسباب معاشرة الزوجة

غير زوجها، وعلى رأس الأسباب التي تجتهد بها إهمال الرجل وعدم ثقته «بوفاء حق زوجته» والفيصل هو اللغة:

ـ «أليس أنّ صاحب «القاموس» الذي تستشهد بكلامه في كل مشكل نسواني قد قال «الرجل هو كثير الجماع». . فإذا كان الزوج غير رجل فأنّى له أن يحوز عنده امرأة لا يؤدي لها حقها؟».

يتبرّم الفارياق شِعراً من عدم شبع النساء في طلب النكاح: «تكون غالطة في كل مسألة/ وليس تغلط يوماً أنْ تقول: كفى»، فتردّ عليه الفارياقية: «إنكم معشر الرجال أبداً لهجون بالسدّ»، فيأتيها بالتي هي أحسن: «كما أنكن معاشر النساء أبداً لهجون بالفتح».

ويعنّ على بال الفارياقية أن تملي على الفارياق «كتاباً في حقوق الرجال والنساء»، كأن كل ما أملته عليه ليس فيه كفاية.

١٨٥٤ ـ عود إلى الشق

ما إن وضعت ثورة الـ٤٨ أوزارها حتى اعتزل الصبياني السياسة وتفرّغ لأعماله المالية والصناعية. تفتّق ذهنه عن فكرة إنشاء شركة مساهمة جديدة لتمويل مشاريع طويلة الأمد. باشرت الشركة أعمالها العام ١٨٥٠ بمساهمة الأخوين بيرير وموّلت مشاريع بناء خطوط سكك الحديد ومشاريع البارون هوسمان لتحديث باريس. والأخيرة أزيلت بموجبها الأحياء الشعبية في

وسط باريس وأجلي الحرفيون والعمال والفقراء منها نحو الضواحي، وتم شقّ جادات عريضة في طول العاصمة وعرضها. وكان الغرض الستراتيجي الأبرز من ذلك منع إقامة المتاريس والسماح للآليات الحربية باقتحام الأحياء. ومن جملة مشاريع الصبياني أيضاً، تأسيس شركة خطوط نقل جديدة بواسطة «الأومنيبوس» في باريس، وترأس مجلس إدارتها. و«الأومنيبوس» عربة نقل جماعية ذات طبقتين تجرّها الأحصنة.

وخطا مشروع شق القناة خطوة جديدة عندما انعقد التعاون بين ديفور والصبياني ودُ لسبس. عقد الثلاثة اجتماعاً في منزل الصبياني تسلّم خلاله صاحب البيت كل الدراسات والتصاميم الخاصة بالمشروع والتي وضعتها «جمعية دراسات قناة السويس». وفي مطلع ١٨٥٥، كتب الصبياني إلى آرليس ـ ديفور يرشّحه رئيساً لمجلس إدارة شركة قناة السويس، فاتصل آرليس ـ ديفور من جهته بالإخوة بيرير، المعروفين أيضاً بتأيد الأفكار الصبيانية، من أجل تأمين مساهمتهم في تمويل الطور التنفيذي من المشروع.

وكان الصبياني يقضي وقته بين آديل مورلان، وقد انتقلت إلى باريس، وأورطانس جوردان، حتى إنه كان يلتقي هذه الأخيرة في بيت الأولى، ما أثار الغيرة والحسد بين المرأتين، الواحدة تطالبه بالزواج والثانية المتزوّجة بالاستئثار. أخيراً، هرب من أتباعه ونسائه وقال «إنكم تضجروني جميعكم وجميعكن». سكن ليون عام ١٨٥٢، فعادت أورطانس جوردان إلى زوجها لكنها

دعت السيد إلى السكن في بيتها الزوجي عندما يعود إلى باريس. وكتب له زوجها لوي: «الناس تسميني لوي. لك وحدك، يا سيدنا، أنا اسمي لوي ـ أُورطانس. عندما جئتَ إلى بيتنا في الجزائر، عشقتَ أورطانس في لوي ولوي في أورطانس».

١٨٥٦ ـ عبد القادر في بلاد الشام

وصل الأمير بحراً إلى ميناء بيروت يوم ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٦ بعد سنتين أمضاهما في بروسة قطعتهما زيارة واحدة لباريس عام ١٨٥٤. في طريقه إلى دمشق، لقي استقبالاً حافلاً من أهالي جبل لبنان. تجمهروا على طريق دمشق يحيّونه على جاري عاداتهم بإطلاق البارود احتفالاً بالضيوف. وأخذوا يهزجون له وينشدون قصائد التأهيل والمديح يتقدمهم أمراء آل أرسلان وعدد من «مناصب» الجبل.

فور وصوله إلى دمشق، زار الأمير ضريح سيدنا الشيخ محيي الدين بن العربي للتبرك.

في بلاد الشام، عقد الأمير عبد القادر صلات وثيقة مع كثيرين. في جبل لبنان انعقدت صداقة بينه وبين هنري تشرشل، الأرستقراطي البريطاني الملقّب «شرشر بك» الذي حارب نابليون في إسبانيا والبرتغال. اشترك الرجلان في الاهتمام بالزراعة وحب ركوب الخيل والحماسة لمشروع شق قناة السويس، لكنهما اختلفا في السياسة. فشرشر يمثّل المطامع

البريطانية في المنطقة، والأمير داعية استقلال بلاد الشام. وقد دوّن شرشر بك محاوراته مع الأمير في كتاب بعنوان «حياة عبد القادر، سلطان العرب في الجزائر» صدرت في لندن عن دار تشابمان هِلّ المشهورة في العام ١٨٦٧. وفي بلاد الشام تعرّف الأمير إلى شاهين أبكاريوس، نزيل مرجعيون، الذي يقال إنه هداه إلى مذهب من يسمّون «البنّائين الأحرار».

١٨٥٦ ـ دور المعكرونة في التاريخ

تجدد البحث في شق القناة بعدما اغتيل الخديوي عباس في تموز ١٨٥٤ وخلفه على العرش أخوه محمد سعيد المعروف بولائه لفرنسا. تلقّى فردينان دُ لسبس الخبر متأخراً في الريف وهو في حال إحباط وقد عزم على التقاعد. فبعد خدمته في مصر، عيّن قنصلاً في برشلونة، وخلال ثورة يوليو ١٨٤٨، عيّنه شاعر البحيرة سفيراً فوق العادة في مدريد. ومطلع عهد البونا بارت عيّنه الإمبراطور سفيراً في روما مكلفاً بمهمة إحلال السلام في مدينة محاصرة من الجيشين النمساوي والفرنساوي وبينهما قوات الجمهورية الرومانية حديثة الولادة بقيادة ماتزيني وغاريبالدي. وكان البونا لا يزال متردداً تجاه البابا: هل يحافظ على سلطته في روما أم ينحاز إلى الجمهوريين ويسلّمهم المدينة؟ فمن طرف، النمسا تريد سحق الجمهورية وإعادة الحكم للباباوات في روما. ومن طرف آخر، الجنرال أودينو، قائد الحملة الفرنساوية، يريد سحق الجمهورية وطرد النمساويين. فلا عجب إن فشلت التسوية التي عقدها دُ لسبس لحل الأزمة، فحمّله الإمبراطور مسؤولية

الفشل، فاستقال من السلك الخارجي وانزوى في مزرعة وكيلاً لامرأة أرستقراطية. وزاد من سوء حاله فقده زوجته وابنته جرّاء مرض الحمى القرمزية.

عند سماعه نبأ تولية محمد سعيد، غادر دُ لسبس المزرعة للفور نحو باريس. ومصدر حماسته لتولّي الخديوي الجديد يتعلق بالبطن أكثر من أي عضو آخر في الجسم. كان ابن الخديوي محمد علي سميناً فوق العادة. زاد وزنه على مئتي رطل إنكليزي وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره، فعهد محمد علي باشا إلى عدد من مستشاريه وأعضاء حاشيته مهمة نَهْي الولد عن الأكل. والمعروف أن الولد يشتهي أطباق المعكرونة بنوع خاص. بعدما يئس الأب من السيطرة على وزن ولده، عهد به إلى القنصل الفرنسي، علّه ينجح. وقد كان الخديوي يعرف والد القنصل آرتور دُ لسبس الذي خدم هو أيضاً قنصلاً لفرنسا في ديوانه ويثق به، فوعد الابن، فردينان، ببذل ما يستطيعه للمساعدة على خفض وزن الصبي. وسرعان ما نشأت صداقة بين القنصل وابن الخديوي. جمع بينهما ولعٌ مشترك بركوب الخيل. نجح القنصل في خفض وزن الصبي بضعة أرطال، لكنه أخذ يغضّ النظر عن تمرير وجبات المعكرونة الدسمة لمحمد سعيد.

كتب دُ لسبس لصديقه وتلميذه آكِل المعكرونة، فدعاه الخديوي إلى زيارة مصر، حيث استقبله بحفاوة بالغة. لسنا ندري إن كان أولم له على المعكرونة أو لا، لكنه أهدى إليه فرساً من تربية

قبيلة عنزة السورية واصطحبه في رحلة صيد. في الصحراء، شاهد فردينان قوس قزح في السماء فقرأه علامة تدعوه إلى مفاتحة الخديوي بشأن القناة. فعل. لكنه قلب المشروع رأساً على عقب، جعل منه مشروعاً مصرياً خالصاً، فيما أراده السمعانيون مشروعاً أوروبياً. أقنع الباش مهندس الخديوي بأن القناة سوف تعزز استقلال مصر وتقوّي مناعتها تجاه العثمانيين، ولن تسمح لقوة أوروبية واحدة بالسيطرة على المشروع بل تضعه تحت وصاية الدول الأوروبية مجتمعة. إلى المجد الشخصي الذي سوف يناله سعيد في بناء القناة، أشار الباش مهندز إلى أن القناة سوف تجعل مصر مركزاً للتجارة العالمية بين شرق وغرب يدرّ من المداخيل والثروات أضعاف أضعاف ما توفره المحاصيل النقدية بما فيها القطن.

هكذا حاز دُ لسبس وحيداً امتياز شق القناة. وأسس لها شركة باسم «الشركة العمومية لقناة السويس البحرية»، مدة امتيازها الحصري عشر سنوات تبدأ بعد إتمام بناء القناة، وتقع كل أكلاف بنائها على الشركة. تتقاضى الحكومة المصرية ١٥٪ من أرباح الشركة السنوية ويعود ١٠٪ منها للمؤسسين وتوزع ٧٥٪ على المساهمين.

وقعت القطيعة بين الصبياني ودُ لسبس مع أن الأخير وضع الأول في عداد مؤسسي الشركة الجديدة. لكن الأعمال هي الأعمال. جنّ جنون الصبياني، لكنه لم يستسلم. أكثر من المساعي لدى الإمبراطور لإقناعه باعتماد مشروع «مجموعة

الدراسات» بدلاً من مشروع دُ لسبس على اعتبار أنه الأسبق زمنياً. تناسى الصبياني أن لغريمه حظوة كبيرة عند الإمبراطور وهو ابن عمة الإمبراطورة. في نهاية ١٨٥٥ أبلغه أحد المستشارين أن الإمبراطور أخذ علماً باعتراضاته لكنه يعتقد بأنه لا ينبغي أن يتدخل في هذا الأمر.

١٨٥٧ ـ دِين جديد وزوجة جديدة

عندما كان الفارياق في باريس وفد باي تونس إليها، وأرسل له قصيدة مديح. عند عودته إلى بلاده، أرسل له الباي بارجة تنقله إلى تونس، حيث أسهم في إنشاء جريدة «الرائد». رافقت الفارياق إلى تونس زوجته الإنكليزية التي تزوجها بعد وفاة زوجته الشامية في الآستانة. وفي تونس أشهرَ فارس إسلامه على يد مفتي الحنفية محمد بيرم الرابع، وتسمّى أحمد فارس وتكنّى بأبي العبّاس.

تعددت التفسيرات لسبب إقدام فارس على هذه الفعلة. قيل إنها تكريس للملاءمة بين ثقافته وهويته الدينية. وقيل بل لدافع بحثي إذ يسهل عليه دخول المساجد بحثاً عن مخطوطات التراث لو كان على الدين الحنيف، لأن بعض رجال الدين يمنعون دخول المساجد على غير المسلمين. وقيل بل هي خيبة أمل بالمسيحيين، كاثوليكيين وبروتسطانتيين. وقيل بل سعياً وراء وظيفة دسمة في اسطنبول. وإن سئِل كاتب هذه المدوّنات أجاب: ما تعبّد الفارياق إلا «لها». وما ديانته إلا اللغمرة.

١٨٥٨ ـ باريس: حلم الإمبراطور حلمان

بعدما استقر في الفيحاء، أخذ الأمير يستجلب فلاحين جزائريين لفلاحة أراضيه الواسعة. لم يقتصر الأمر على جماعته من الصحراويين أتباع الطريقة القادرية، بل استجلب أيضاً القبائليين من أتباع الطريقة الرحمانية وشيخها بوكبرين. وسريعاً ما تحول المهاجرون إلى جيش من نحو ألف وخمسمئة من المقاتلين الأشداء.

حار الحاكم الفرنسي في الجزائر في أمر الهجرة الجزائرية إلى دمشق وفاتته الحكمة من غض نظر الحكومة في باريس عما يفعله رجل دفعت الإمبراطورية الغالي والنفيس من المال والرجال لكسر شوكته، فكتب إلى وزير الدفاع يتساءل «هل هي في نوايا الإمبراطور أن يمكّن عبد القادر من لعب دور ما في الشرق؟ في مثل هذه الحالة، علينا أن نترك الهجرة تمضي في حال سبيلها. أما في الحالة المعاكسة، فيتعين علينا أن نضع حداً لها. أية مصلحة لنا في أن نساعد على استعادة الإسلام لسلطته؟». لم يأته جواب من باريس. ولا هو درى أن مسألة الأمير عبد القادر صارت من أسرار الدولة الفرنسية وباتت من الأهمية بحيث إن الإمبراطور كان يتابعها شخصياً.

إمبراطور الفرنسيس أبعد نظراً من مرؤوسيه. ومثله مثل سائر المتسلطين لا يعطي سرّه لأحد.

زار الجزائر فوقع في سحر الشرق مثلما وقع عمه البونابارتي

الأول في سحر مصر عندما غزاها، حتى شاع أن العم ظهر لابن الأخ في المنام وقال له: عليك مهمة تاريخية: أن تحوّل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة فرنساوية. فأطلق الدعوة إلى «المملكة العربية». تبنّى الفكرة التي يقول بها إسماعيل عربان، مستشاره للشؤون العربية. والمملكة العربية مملكتان. واحدة مغاربية حيث لم يكن الإمبراطور مقتنعاً بأنّ الاستيطان سوف يحقق غلبة الأوروبيين في الجزائر، فآثر تحويلها إلى محمية تستغلها كبريات الشركات الفرنسية بدعم من جيش الاحتلال والأعيان المسلمين المحليين. فأصدر أمراً إمبراطورياً بمدّ شبكة سكك حديد في الجزائر ودعم مشروعاً بريطانياً لتصنيع البلاد، ودعا الرأسماليين الفرنسيين إلى الاستثمار في مناجم الحديد في بون، فسمح للجزائريين بالخدمة في الجيش والإدارة العسكرية والهجرة إلى فرنسا ومنحهم الحق في التجنّس شرط القبول بقانون الأحوال الشخصية الفرنسي المدني، وغيّر نظام ملكية الأرض إلى الملكية الفردية مثلما اقترح الصبياني وصاحب «الديموقراطية في أميركا».

وفي المشرق، طمح ابن الأخ في بناء مملكة عربية تابعة لفرنسا تمتد من الشام إلى الجزيرة العربية، مملكة «تتبنى شرعة نابليون والنظام العشري الفرنسي وتؤمن بفصل الروحي عن الزمني» وتكون لها عاصمتان، سياسية في بغداد ودينية في مكة المكرمة. فكّر البونابارتي الثالث أن تفصل تلك الدولة الموالية لفرنسا بين مصر والأناضول، وتشرف من خلال فلسطين على

الضفة الشرقية للسويس، في مقابل السيطرة البريطانية على ضفتها الغربية، في مصر.

لم يكن مستغرباً أن يقع اختيار الإمبراطور على الأمير عبد القادر ملكاً لمملكته المنشودة. كتب مستشار آخر للإمبراطور يدعى إدوار آبو، باسم مستعار، أبلغ محاججة في أهلية عبد القادر لذلك الدور فقال «إنه سُنيّ من حيث إسلامه بما يكفي لتطمين السكان المسلمين، وهو متحضّر بما فيه الكفاية لكي يقيم العدل بين الجميع، ثم إنه يرتبط بفرنسا بعلاقات الاعتراف بالجميل ليدافع عن المسيحيين ويخضِع القبائل المشاغبة المستعدة دوماً وأبداً لتعكير صفو الأمن والسلام في آسيا الصغرى» .وختم آبو نصّه بوصلة من الكرم الكولونيالي إذ قال «إن تتويج عبد القادر أميراً على سورية سوف يكون مكافأة نبيلة على الخدمات التي أسداها سجينُنا لنا».

وبونا بارت يعرف أنّ عبد القادر زاهد في المملكة العتيدة، ففي أغسطس ١٨٥٦ أوفد إليه الجنرال فلوري لاستمزاج رأيه، ورافقه إسماعيل عربان. أبلغ الأمير الرسولين أنّ مهمته السياسية الدنيوية قد انتهت، وأنه مصمّم بقوة على أن يتفرغ للصلاة والدراسات الدينية في الأيام الباقية له على هذه الأرض. لم ييأس الإمبراطور. أخرج الدعوة إلى العلن. عام ١٨٥٨، صدر في باريس منشور بعنوان «عبد القادر إمبراطوراً على العرب» يدعو إلى إقامة مملكة عربية مستقلة عن السلطنة العثمانية

يسكنها ١٢ مليوناً من «الدروز والموارنة والمتاولة والنصيرية... إضافة إلى الروم والكلدانيين، تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي ومن البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي وعلى رأسها الأمير عبد القادر». وطالب المنشور أيضاً بـ«الفتح الفوري لمضيق السويس مع منح جميع الأمم حق الملاحة فيه». لم يكن يتطلب الأمر كبير تفكّر لإدراك الصلة بين شق القناة وإنشاء المملكة.

هلّلت الأحزاب العلمانية لمشروع المملكة العربية وقد عثرت في عبد القادر على «المستبدّ العادل» الذي تحلم به للشرق، يبني «سكك الحديد ويشقّ القنوات التي تقرّب أوروبا من الهند ومن الصين وأقيانوسيا».

١٨٥٨ ـ لندن: أزمة رأسمالية شخصية

كان العام ١٨٥٨ عام الأزمة الاقتصادية العالمية. لم يجنِ الدكطر الألماني فائدة تذكر لتنبّؤه بأزمات الرأسمالية. بل دفع غالياً ثمن تلك الأزمة بالذات وقد زادت أوضاعه المعاشية تردياً.

بدأت الأزمة في نوفمبر في أميركا وكان من أولى نتائجها خفض الشرفيات التي يتقاضاها على مقالاته في صحيفة «ذي نيويورك دايلي تريبيون» إلى النصف. ولمّا كانت الشرفيات تعادل مجموع دخله، انخفض دخله إلى النصف، فوقع صاحبنا في ضائقة مالية ما بعدها ضائقة. وعاني الجنرال ملائكة صعوبة لدفع الخمسة جنيهات شهرية للعائلة، فقد غرّمته إحدى

المحاكم بمبلغ مئتي جنيه لأنه ضرب بطرف مظلّته وجه رجل نعته بـ«أجنبي قذر» فكاد أن يقتلع له عينه.

في ذلك الشتاء القارس، أصيب شيخنا بقحّة لن تفارقه باقي حياته. ووجدت الأسرة نفسها بلا مال وحتى بلا فحم للتدفئة. حجّاب المحاكم يطاردون ربّ الأسرة لعجزه عن دفع إيجار البيت، والباعة والتجار يتكأكأون عليه ويحاصرون منزله مثل قطعان ذئاب جائعة تطالب بتسديد الفواتير. صرف الدكطر أيامه يسعى لاستقراض المال، يقترض من مرابٍ ليفي ديون مرابٍ ويستلف من تاجر ليسدّد فواتير تاجر. رهَن أثاث بيته إلى أن اضطر إلى رهن أحذية بناته ووصيفتَي زوجته لتغطية عجزه عن دفع الإيجار لمدة سنة. أرسل لائحة بديونه إلى الجنرال في مانشستر فإذا هي بلغت ١٣٣ جنيهاً، منها ٣٠ جنيهاً للمرابين وأكثر من ٣٢ جنيهاً ديوناً للجزّار والخبّاز والبقال وبائع الحليب الذي لم يقبض ثمن بضاعته منذ سنة كاملة. وكما العادة، لو لم ينجده الجنرال بمبلغ من المال، لقضت الأسرة جوعاً.

لم تقضِ الأسرة جوعاً، لكنها قضت عيد ميلاد تعساً في ذلك العام.



العاميـة

قسمة المحصول

«بحزّير [حزيران] بيطلع موسم الحرير»

لـم يكـن معظـم الفلاحين الذين يتولّون تـربية دود القز يحلّون الشرانق بل يبيعونها. بعد ثمانية أيام من تشرنق الديدان، يجري خنق الشرانق بغمسها خلال ١٥ دقيقة في ماء بحرارة ترواح بين ٧٥ و٩٠ درجة مئوية. هكذا تذوب المادة اللاصقة فيها وينحلّ خيط الحرير الذي يراوح طوله بين ١٥٠ و٢٠٠ متر للشرنقة الواحدة. ثم تنشر الخيطان لتنشف في الهواء الطلق وتغزل على شكل شلل. واعلم أنّ ١٢ كيلوغراماً من الشرانق، أي ما يوازي ١٢ ألف شرنقة تعطي كيلوغراماً واحداً من الحرير الخام.

هنا تبدأ قسمة المحصول. تذهب الحصة الأولى من الشرانق للمقاطعجي، صاحب الأرض. يأخذ المقاطعجي نصف

المحصول في مقابل ضمان الفلاح الأرض المزروعة أشجار توت. وهذا غيض من فيض التزامات الفلاح تجاه المقاطعجي. يجب عليه دفع الضرائب، ومنها الفردة والميري، يجبيها المقاطعجي لصالح الأمير الحاكم وهذا لصالح الوالي والوالي لصالح السلطان. وكلٌّ واحد يقتطع منها حصة له. يتأخر الفلاح في دفع الضريبة فيبلى بالحوّالة، عسكر السلطان، أو بعسكر الأمير، يعسكرون عنده ويعيشون على حسابه إلى أن يفي بالتزاماته المالية.

هكذا تنضاف إلى الضرائب والرسوم أشكال البلص المختلفة: إعالة العسكر والنواطير والخدم التابعين للمقاطعجي وكلها من كيس الفلاح.

ضرائب وبلص. وفوقها سخرة. كأن كل هذا العمل شبه المجاني لا يكفي. الفلاح مجبور على أن يمارس عدداً من الأعمال المجانية بالكامل كبناء قصور المشايخ والأمراء وتعبيد الطرقات، أو في الخدمة المنزلية لنسائه أو بناته في بيوت المقاطعجية.

ضرائب وبلص وسخرة. وفوقها إكراميات ومعايدات ورسوم مختلفة. في الأعياد، الفلاح مضطر لأن يقدّم للشيخ وأولاده هدايا من الصابون والسكّر والتبغ والقهوة. وبما أن هذه كلها لا تنتجها أرض جبل لبنان، على الفلاح أن يتدبّر المال اللازم لشرائها. ومن أين؟ يستدين من السمسار والتاجر والمرابي بفوائد فاحشة.

ومن الإكراميات «رسم النكاح». لم يكن الفلاح ملزماً بأن يعايد المقاطعجي في أعياده وأفراحه فقط. كان المقاطعجي يتلقى المعايدات والإكراميات في أفراح الفلاحين أيضاً. يزوّج الفلاح ابنه أو ابنته، فإذا هو يقدّم الهدية للمقاطعجي. فالشيخ الذي يملك السلطة المطلقة على حياة الفلاحين، يمدّ سلطانه على الجسد. وتقضي عادة قديمة أن يحتفظ المقاطعجي لنفسه بحق الليلة الأولى، أو ما يسمّى «حق المفاخذة»، عند زواج المرأة العامية. فإذا هدية الفلاح المتزوج للمقاطعجي تعويض له عن عدم ممارسته ذلك الحق. بهدايا أو بدون هدايا، كثيراً ما كان المشايخ يمارسون «حقهم» في التفخيذ والتلييل على هواهم، قبل ليلة الدخلة وخلالها وبعدها.

ضرائب. بلص. سخرة. إكراميات. معايدات. رسوم. وفوقها جميعاً الاحتقارات. كان على الفلاح وسائر العاميين الوقوف عندما يمر الشيخ وتقبيل يده عندما يلتقونه، وكان محرّماً على العامة أن يرتدوا ثياباً معيّنة خاصة بالمشايخ والأمراء ليبقى ملبسهم مميّزاً عن ملبس المشايخ. وقد حرّم على نساء العامة اعتمار «الطنطور» على رؤوسهن لأنه حكر على الشيخات والأميرات.

ومع ذلك، يصرّ المقاطعجي على مخاطبة الفلاح بقوله «يا شريك». ما أغربها من شراكة! يتنهد الفلاح ويردّد المثل: «الشِركة ما فيها بَرَكة».

هذا ما يقدّمه الفلاح إلى المقاطعجي بالإضافة إلى نصف غلّة

الحرير. أما ما تبقى فيذهب إلى السمسار والمرابي والتاجر. السمسار يقرض الفلاح الحنطة والبذار وبزر القز والمال. وتصل فوائده إلى ٥٠ في المئة للموسم الواحد. ومعظم الأحيان، يستردّ السمسار دَينه حريراً، بأدنى من السعر المتداول، وإذا عجز الفلاح عن تسديد الدين، فإما أن يضاعَف الدَين للموسم القادم وإما أن يستعين السمسار والتاجر الذي يعمل لصالحه بعسكر المقاطعجي لإلزام الفلاح المديون بالدفع أو التنازل عن أرضه، هذا إذا كان الفلاح مالكاً للأرض. ولم يكن. كتب فقراء لبنان العرضحالات إلى السلطنة يبيّنون فيها أن ٣/ ٤ الأراضي هي ملك المشايخ والأمراء والأديرة، وأنّ ٩٠من هذه معفاة من الخراج. وذهبوا إلى حدّ التهديد بالعصيان.

العامية

هي سنة نزل فيها غضب الرب. البرد يقصّ المسمار. والمطر حبال ومزاريب. ونزل ثلج ما عرفته هاتيك الجبال من وقت طويل. جاء آذار وثلجاته الكبار. وزخّ البَرَد: كل حبة قدّ البيضة. راح آذار. جاء نيسان أوحش منه. هجّ الرعيان من الجرود. نفقت قطعان الطرش. جاءت الذياب وهجمت على الضيع. والعواصف تشلّع كعاب الجوز والسنديان. جرفت السيول أكواخ دود القز. أكواخ تهدمت، وأكواخ ازرقّ فيها الدود وقيّح.

سنة غريق وسنة حريق. كانت سنة الـ٥٨ سنة جفاف. ما قدر

أحد يعوّض الموسم الجديد. مرضت دودة القز بفرنسا. ما جاءت بذار من فرنسا. تلف موسم حرير عام أول والعام، موسم ما قام أصلاً لأن الفلاحين ما لقيوا من يبيعهم بذار. «شلّة حرير على جلّ بلّان»، مثل ما يقول المثل.

فتكت الأمراض بالزيتون والعنب. ولكن ما أرحم ظلم الطبيعة قدّام ظلم الإنسان.

ودبّ الخلاف بين المناصب الموارنة على الحكم في قائمّقامية النصارى عند تعيين الأمير بشير أحمد خلفاً للأمير حيدر عند وفاة هذا الأخير. انقسموا بين مؤيد لبشير أحمد ومؤيد لبشير عساف. دعا مشايخ كسروان إلى اجتماع يوم ١٥ آذار ١٨٥٨ في زوق الخراب لتحريض العامة ضد القمائمّقام الجديد. عرض العامة مطالبهم: أن لا يكون إلا حاكم واحد من آل الخازن على كسروان، ولا يعود لسائر أفراد العائلة من امتيازات عليهم، وإلغاء الاحتقارات (الاحتكارات). رفض المشايخ.

الأول من أيار في بحنّس، بدأ الفلاحون بحمل السلاح وانسحب بشير أحمد إلى بيروت. الأول من تشرين الأول ١٨٥٨، عقد اجتماع لأهالي عجلتون والقرى المجاورة وتعاهدوا على العصيان وإنتخبوا عنهم صالح جرجس صفير وكيلاً أول، وهو قاضٍ خدم في زحلة يحظى بدعم من الياس المنيّر، المرابي والتاجر الكاثوليكي الثري في زوق مكايل، وانتخبوا داوود محبوب القاموع وكيلاً ثانياً.

عُقدت اجتماعات في عجلتون وكفرذبيان لمصالحة المشايخ

والأهالي لم تسفر عن نتيجة. كانون الأول ١٨٥٨ تجمّع المشايخ وفي نيّتهم الزحف على الزوق. ظهر «شيوخ الشباب» وصدّوهم وقد اتخذوا لأنفسهم الزيّ الموحّد المميز. يرتدي الواحد منهم سروالاً أبيض راخياً فوقه قميصاً أبيض واسعاً أشبه بتنّورات الأرنأووط ويكسو ساقيه بطماق من الجلد الأحمر وعلى رأسه لبّادةٌ ملفوف عليها منديل يَزما تقليداً لعُقال البدوي.

بدأت المشاحنات العنيفة بين الطرفين. في ١٨ كانون الأول ٥٨ قُتل من الأهالي الياس الزخّ على يد المشايخ. وقُتلت بعده امرأتان عاميتان. وانهالت شكاوى الأهالي على بكركي من قرى غدير، جعيتا، بلونة، داريا، عجلتون ريفون، عشقوت، المزرعة، إلخ. تطالب بطرد المشايخ من كرسي البطركية.

البطرك في حيرة

كان البطرك مسعد في دير مار يوحنا مارون عندما جاء من يعلمه بأن الفلاحين ثاروا على المشايخ. ارتسمت على وجهه علامات الغمّ والاضطراب. أسرع عائداً إلى بكركي. لم يكن سهلاً على البطرك اتخاذ موقف ممّا يجري. إنه يريد التوفيق بين فريقي النزاع حرصاً على وحدة الطائفة. ولكن كانت له مصلحة في الاستقواء بالعامية لتعزيز الكنيسة في وجه المشايخ. النتيجة أنه تعرّض لانتقاد الفلاحين كما المشايخ. توجّه المشايخ إلى بكركي يريدون الاعتداء عليه لأنهم اتهموه بالتحريض على القومة. واجتمع العامة في بكركي وهاجوا على مشايخهم.

استنجد البطرك بيوسف بيك كرم الإهدني، فجاء إلى ساحل كسروان على رأس مئتي مسلّح من رجاله. والبيك ابن عائلة مقدّمين، والده بطرس كرم. بيته في إهدن منزلٌ للسياح الأجانب الذين يزورون الأرز. يزعم أن أمير جوانيل، وليّ عهد فرنسا، إشبينه في المعمودية. علماً أنّ الأمير زار إهدن ويوسف كرم قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ولم يعد في عمر العمادة. وعُرف البيك بالتقوى والغلوّ في التعبد والتعصب للمارونية والكنيسة، ولعب دوراً هاماً في طرد المبشّرين البيليشيين «الأراتقة» من بشراي. كذلك عرف كرم بعدائه للسلطنة العثمانية والتزامه شعار الموارنة «سلطاننا هو البطرك الماروني». وكان هو وأبوه من معارضي تنصيب مسعد بطركاً، ويطالبان بأسقف شمالي للكرسي البطركي.

«عمود السما» يتلقّى الخبر

غدا البيك باكراً لصيد الحجل. وعندما وصل كاتمُ أسراره أبو شاكر الخوري إلى المختارة، قيل له أن يوافيه إلى نيحا. وجد الوكيل سعيد بيك في عين الحلقوم فوق قلعة طيرون التي تسمّى الشقيف الصغير. وعندما أطلّ على الجَمع ألفى البيك واقفاً على إحدى تلال تومات نيحا يحدّق في «السِركة» تنادي الذكور وفي يده بارودته المطعّمة هدية من الوالي التركي. وقف أبو شاكر يتأمل معلّمه: متوسط القامة، نحيف، ذو شاربين عريضين، متوتر الجسم مثل وتر قوس مشدود وهو يهمّ برمي أول حجل يقترب من الأنثى. هذا هو حاكم الشوفين وأقاليم

التفاح والخرّوب وجزين وجبل الريحان، الذي يبسط سلطانه أيضاً على البقاع الغربي، الذي سمّي البقاع الشويفاني. هذا هو أغنى رجل في جبل لبنان يبلغ دخله من أراضيه لا أقل من ستة آلاف ذهبية عدا ما يرِدُه من ضمان البقاع، منتصب القامة فوق تومات نيحا في موقع العقد من إقطاعته الواسعة على منقلَبَي الجبل: جزين إلى الجنوب والبقاع شرقاً وإلى الغرب حتى البحر، «الغرب» موئل آبائه والأجداد. وكأنّ أبو شاكر احتاج إلى مشهد البيك راسخاً في وقفته يسند السماء التي تظلله ليتأكد من صحة اللقب الذي أطلقته عليه جماعته: «عمود السما».

لم يكن الصيد وفيراً ذلك اليوم. والبيك متعكّر المزاج لم يتكلم مع كاتم أسراره غير بعض عبارات المجاملة قبل أن يقفل عائداً إلى المختارة. عندما وصل، كانت المائدة جاهزة شأنها كل يوم والناس متحلقة في باحة القصر تنتظر مجيء البيك لتجلس إلى الطعام. وكما العادة، أحصنة سعيد بيك المفضّلة مربوطة عند أول المائدة: هذا «شومان» الأزرق، حصانه المفضّل، وذاك «أبو حجيلان» الأشقر. ولما استجلس البيك أخيراً مع ضيوفه والحاشية، توافد سائر القوم أفواجاً أفواجاً للأكل كلٌّ حسب مرتبته وموقع الحظوة الذي يحتلّه عند البيك. والأكل موضوع في أطباق نحاسية والخدم يُخرِجون الخبز ساخناً من فرن القصر.

لم يكن سعيد بيك قد جلس إلى مائدة الطعام عندما وصل رسول يبلغه عن القومة في بلاد كسروان وتمرّد العامة

والفلاحين فيها على المشايخ. على الفور أَمَر كاتم أسراره بأن يقصد كسروان لاستطلاع الأمر. تحرّك أبو شاكر لتوّه.. وعاد يحمل طلباً من آل الخازن إلى سعيد بيك لينجدهم ضد الفلاحين. قرر الشيخ ألّا يفعل.

الوكيل العام

مطلع ١٨٥٩ بدأ انتخاب شيوخ الشباب والوكلاء، فتولّى شاهين على ريفون، وكان يعمل مكارياً يموّن مركز الآباء العازاريين في ريفون إلى يوم القومة. طرده الأب دوبيار، رئيس مدرسة عينطورة مع أن الآباء العازاريين يعترفون بشعبيته بين الفلاحين وبأنه حال دون اضطرابات خطيرة تنجم عادة عن مثل هذه القومات. أما الآباء اليسوعيون فكانوا يكنّون له حقداً لا يرحم ويعدّون هذا «الرجل الشرير» مسؤولاً عن المصاعب التي حلّت بالشعب الماروني، واشتكوا عليه لدى البطرك. ثم صار شاهين وكيلاً على سائر كسروان رشّحه وكلاء مزرعة كفرذبيان وعجلتون والقليعات وعشقوت. وزار وفد من الوكلاء بيروت حيث اجتمع بخورشيد باشا الذي يقال إنه شجّعهم على العصيان.

مطلع العام ١٨٥٩. عرضت القومة مطالبها:

- تكون منزلة المشايخ بمنزلة الأهالي في كل شيء دون استثناء البتة
- لا يكون بين المشايخ منهم واحد مأموراً على الأهالي

- إلغاء حق المشايخ في جباية الضرائب
- تعيّن الضرائب من قبل مندوبين عن الطرفين واحد عن المشايخ والثاني عن العامة
- إلغاء رسومات المعايدات والامتيارات والاحتقارات وإعلان المساواة العامة بين المشايخ والعامة
- الدعاوى العمومية تجري محاسبتها عن يد شيخين منتخبين واحدهما منتخب من الأهالي والثاني من المشايخ وقدر ما يتوقف بذمتهم يندفع حالاً
- يدفع المشايخ الأكلاف التي تكلّفها الأهالي بسببهم من مصاريف التحويلات ومصاريف الوكلاء؛ إلخ.

سعى البطرك مسعد إلى عقد مصالحة. اقترح انتخاب مأمور واحد من الخوازنة يتعاطى وحده الأحكام على الجميع ويتساوى المشايخ أمامه والأهالي. رفض المشايخ إعطاء الأهالي حق الانتخاب في تنصيب المأمور، كما أنكروا أن تجري عليهم الأحكام ذاتها التي تجري على الأهلين. تقلّبت مسألة المأمورية على أكثر من وجه. من ثلاثة مشايخ إلى مأمورين، واحد عن كل طرف، إلى مأمور خارجي واثنين من المشايخ، إلخ. دون جدوى.

مطلع ١٨٥٩، طرد الفلاحون المشايخ من غوسطا ونهبوا مزارعهم في عجلتون وبلّونة والمزرعة والقليعات، وحجزوا غلالهم بقيادة سجعان العضيمي، ثم عمّت الحركة سائر

كسروان. تكاثرت المشاحنات بين الأهالي والمشايخ. تدخّل كرم في اشتباك بالرصاص أمام الصرح البطركي فعني بتفريق الأهالي وأنقذ المشايخ وأخرجهم من كسروان. وفي شباط ١٨٥٩ دخلت قوات عثمانية إلى كسروان بحجّة «فرض الأمن»، لكنها ما لبثت أن انسحبت بعد تدخّل قنصل فرنسا. وبعدها بأسابيع، زار القنصل الفرنسي غزير فتوافد عليه الأهالي يرفعون العلم الفرنساوي ويُنشدون المدائح لفرنسا ويهزجون: «فرنسا أمّ الدنيا عموم، اعتزّوا يا لبنانيّي». غضب خورشيد باشا والي بيروت من شاهين لأنّ الأهالي رفعوا العلم الفرنساوي خلال زيارة القنصل. وما إن أطلّ تموز من ذلك العام حتى كان لا أقل من ٥٠٠ من المشايخ قد لجأوا إلى بيروت. ومنهم من هرب إلى بكفيا حيث آواهم آل الجميّل وهم مشايخ صغار حاربوا مع إبراهيم باشا وعرفوا بمعارضتهم للعامية.

تولّى الحكم في كسروان المتحرّرة من المشايخ مجلس وكلاء متكوّن من ٩٠ عضواً منتخبين مباشرة من الأهالي في القرى، إليهم يضاف من عيّنهم شاهين فصاروا ١١٦ وكيلاً يجتمعون في زوق مكايل، بينهم عشرة رجال دين وثلاثة مرابين و٣٢ من المزارعين والتجار والباقون من الفلاحين. حكم طانيوس شاهين وأصدر قراراته «بقوة الحكومة الجمهورية» وحوله شخصان متعلّمان هما الياس المنيّر والياس حبالين من زوق مصبح. الياس حبالين الذي قرأ فولتير وروسو واطّلع على مبادئ الثورة الفرنسية، عرفت عنه راديكاليته الفكرية وعداؤه للإكليروس.

لم تقتصر القومة على كسروان. استدعى طانيوس شاهين أهالي جبيل وكتب إليهم يقول «لديّ بيورلدي من الدول السبع لتحرير المسيحيين، فيجب ألاّ يبقوا عبيداً لأحد، فإذا شئتم أن تُعتَقوا من عبوديّتكم فلا يستطيع أن يمنعكم لا المشير ولا القائمّقام». ولبّى أهالي جبيل النداء وانتشرت العامية في البترون والمتن والقاطع والشوف.

اتّهم يوسف بيك كرم البطرك بالتواطؤ مع عامية كسروان والمساهمة في قسمة صفوف المسيحيين. وقصد بيروت حيث طالب القنصل الفرنسي بالضغط على البطرك. رفض القنصل التدخّل، فحرن البيك وجمع رجاله وعاد إلى الشمال.. وصبّ ما بقي من غضبه على خورشيد باشا، والي بيروت، متّهماً إياه بحياكة مؤامرة لإبادة المسيحيين.

حركة المقاسمة

جنحت العامّيّة إلى التصعيد. رفض الفلاحون دفع حصة المشايخ من الشراكة. تقاسموا الأراضي وأخذوا يفلحونها جماعياً وتوقفوا عن دفع الريوع وحصص الشيوخ من العائدات. صادروا الخيل والمواشي وكَيْلات القمح وأوقيات الحرير ونهبوا البيوت والممتلكات وأدوات الفلاحة وصادروا المؤن التي ينقلها مكاريون إلى المشايخ اللاجئين إلى خارج المنطقة. قطعوا شجر الأحراج وتوازعوا الحطب. وضعوا قسماً من المصادرات في بيت طانيوس شاهين والباقي تقاسموه في ما

بينهم. وألقى البطرك الحَرَم على كل من يصادر أملاك المشايخ أو يسلبها بمن فيهم شاهين.

لم يرتدع الثوار. أخذت عصابات من الأهالي ترود الجبال والجرود وتهجم على القرى تصادر الأملاك وتطارد المشايخ، أشهرها عصابة طنوس بدوي وبين أعضائها زوجة شعيا علمان من داريّا. ولم يخلُ الأمر من أعمال عنف وقتل. دهم الفلاحون أحد المشايخ في بيته ووضعوا الحبل حول عنقه وسحلوه أرضاً، ثم أماتوه بدوس الأرجل وقتلوا زوجته وابنته.

وفرض مسلّحو العامية الخوّات على الأغنياء. ومن أبرز ضحاياهم الشيخ مرعي الدحداح الذي ناصر الشيخ بشير جنبلاط ضد الأمير بشير شهاب وبعد فشل حركة جنبلاط هرب إلى دمشق مع من هربوا. في دمشق، صادق قنصْل النمسا فسهّل له سفره إلى مارسيليا حيث أشرف على إدارة شركة تجارية تابعة للقنصل. ثم استقلّ الشيخ مرعي بالتجارة وصار من كبار تجار مارسيليا واشترى ممتلكات في لبنان. دفع الشيخ مرعي الخوّة أول الأمر. ثم ألحّوا عليه بالدفع ثانية فأبى وغادر إلى فرنسا إلى غير رجعة.

بحلول صيف ١٨٥٩، كان زمام الأمور قد أفلت كلياً من يد البطرك، حتى أن أهالي الزوق رفضوا دفع «النورية» لقسّ جاء من بكركي لتحصيلها. قالوا له «خلِّ اللي أرسلك يدفع لك. نحن مش دافعين». بتاريخ ٧ يناير ١٨٦٠، كتب القنصل الفرنسي بونتيفوغليو في تقريره إلى باريس أن الثورة تجاوزت

سلطة الكنيسة وهي تنذر ببدء مرحلة جديدة تطاول حرمة الإكليروس.

زوجة شعيا علمان

وبلغ شاهين شكوى من بكركي على عصابة طانيوس بدوي لنهبها بيت الشيخ في عجلتون وكل ما فيه من محاصيل وأدوات الفلاحة. استدعاهم شاهين فجاؤوا ونطقت باسمهم المرأة:

ـ مش عصابة سيّدنا، جَمعة، جماعة، فرقة. سمّيها مثل ما بدّك. بس مش عصابة. ناس وأخذوا حقهم بإيدهم.

ـ يا بنتي، هذا اعتدا على أملاك الغير وتعكير للأمن والنظام ويضرّ بمصالح العامية.

ـ نحن سميناها «تسوية عامة» مثل ما سمّتها دولتنا العليّة. مش إعتدا، عدالة. والحركة إسمها مقاسمة، شراكة، يا بيك، مش نحن شركا المشايخ؟ هي الشراكة من طرف واحد؟

ـ بالفوضى والنهب والاعتدا ما بينحلّ شيء. ولا بينردّ على ظلم المشايخ بظلم العامية. تتحقق المطالب بالأمن والنظام، بواسطتي وبواسطة الوكلا المنتخبين.

ـ وإذا الوكلا ما عَن يقوموا بواجباتهم؟

ـ ما في شي يبرّر نهب البيوت وحرقها.

ـ وهِنّ؟ يا طانيوس يا شاهين، يا ما بيوت نهبوا ويا ما بيوت

حرقوا ويا ما بيوت خربوا. نسيت؟ نسيت البنت التي فضحها الشيخ واندفنت بالمغارة؟ والثانية الحبلى اللي حرقها عشيقها الشيخ؟ ونسيت بنت مخايل العِنّ اللي خطفها الشيخ بحفلة زواجها؟ ما إنت كنت حاضر العرس اللي تحوّل جنازة؟ والشيخة الخازنية التي ضربت أمه للبطرك مسعد كفّ على وِجها لأنها طلعت من البيت لابسة الطنطور؟ الله يخرب بيوتهم. مش بيوت راح نحرق. قلوب بدها تحترق. العاميّة ماشية يا طانيوس شاهين وما حدا بيقدر يوقفها. ونحن اللي انتخبناك ومرجوعك لينا. لا للمطارنة ولا للقناصل ولا للتجار ولا للباب العالي. وصلحة مع المشايخ ما في.

ـ تطمنوا، صلحة مع المشايخ ما في.

ـ والضرايب الجديدة؟

ـ ضرورية لمصلحة الجمهورية. بدكم تحكموا حالكم بلا مصاريف؟

ـ نحنا الجمهورية. عملناها لنخلص من الضرايب والسخرات والجزية والبلص. على كل حال مين قادر يدفع لك من كل ضيعة ميتين أوقية خبز وعن كل راس بني آدم قرش؟ قزّ ما عَن نشيل. انضرب موسم ولحقه ثاني. شو انت مش عايش بهالبلاد؟ بزر القز غلي وتضاعف سعره. طيّب والخبز لأيش؟

ـ لياكلوا عسكر الجمهورية. بدكم يحموكم وبطونهم فاضية؟

ـ ضرايب مش راح ندفع.

«الاميكو» والمأمورية

ما إن تولى شاهين الوكالة العامة حتى تكأكأ عليه الناس من كل الجهات. وجهاء ومراتب ومشايخ وقناصل وولاة وموظفو السلطنة. والكل مهتمّ بالمأمورية على كسروان أو أبعد من كسروان.

بعث إليه شرشر بيك برسول يطلب منه استخدام نفوذه لتعيين صهره الأمير عبد الله شهاب قائم مقام على النصارى. حمل إليه الرسول فرساً هدية، اعتذر شاهين عن عدم قبولها وأبلغ الرسول ردّاً على طلب النبيل الإنكليزي عبارته المألوفة: «نحن نتبصرّ». وبعث إليه خورشيد باشا والي بيروت بمصطفى غنّوم، حاكم جبيل، والألباني عثمان آغا قائد الباشي بوزق، فمنحاه لقب «بيك» وأخذا يحرضانه على تحرير الجبل ووضعه في تصرّف السلطان. قدّم لهم الوكيل العام القهوة والشراب والغليون وغادروا على عبارته الغامضة «نحن نتبصّر».

طمح شاهين إلى المأمورية على كسروان لنفسه. وبعد فشل وساطة البطرك للمصالحة، توسّط مدبّر الآباء العازاريين، واقترح أن يحكم كسروان مأموران من الأهالي على أن يكون المأمور الثالث يوسف بيك كرم. حاول شاهين فرض مأموريته أمراً واقعاً على اعتبار أنّ الأهالي يرفضون أي مأمور آخر ليس منهم ولا ينتخبونه بأنفسهم. ونظم أنصاره حملات توقيع العرائض تدعم ترشيحه للمنصب. لكن أجمعت

الأطراف المحلية وقناصل الدول على رفض إعطاء المأمورية لرجل عامي.

عندما اشتد ساعد العامية، كلّف البطرك الأب يوحنا حبيب مفاوضة طانيوس شاهين حول المأمورية. زاره حاملاً اقتراحاً بأن يتولى القائمّقام تعيين مأمور من خارج كسروان على أن يكون مساعدوه من أبناء المنطقة. بلا طائل. في زيارة تالية، مكث حبيب ثلاثة أيام عند شاهين ويبدو أنه اقتنع بأن منح شاهين المأمورية قد يكون أفضل وسيلة للتخفيف من غلواء القومة بل أنه السبيل إلى احتوائها. بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٩ حرر تقريراً إلى البطرك يقول فيه إنه لم يبق إلا الإقرار بالمأموية لشاهين في حال استبعاد خيار القمع الدموي للقومة. بهذا يجري استيعاب القومة وتفكيكها سلمياً. وختم الموفد البطركي تقريره قائلاً: «هذا هو الوجه الأقرب لسكون الحال وهو الأصلح للمشايخ، لأنه إذا كان المأمور غيره فلا يطمئنوا على رجوعهم لمحلاتهم ولا على أرزاقهم لأن الاميكو متى صار مأموراً فيترسمل ويصير ينصِف ويحصل التفكيك لأنه لا يعود يطبخ بالخلاقين ولا يعود يسمع للجهلة والعقلا يحوطونه ويصير يسمع لهم وهذا الوجه هو أيمن من غيره».

ويقولون لك إن رجال الدين لا يفهمون بالسياسة!



الفصل السابع

حـوادث الستيـن

كل طرقات الحرير تقود إلى ليون

٩٠ بالمئة من إنتاج الحرير الخام في جبل لبنان، البالغ ١٥٠٠ قنطار، يصدّر إلى ليون. ومارسيليا تصدّر بزر القَزّ الياباني إلى كل سورية. وبما أنّ محصول جبل لبنان لا يشكّل نسبة كبيرة من مستوردات ليون، تستطيع (الأخيرة) أن تتحكم بأسعاره كما تشاء. مع الوقت سحبت ليون توظيفاتها من المعامل، ومارست سيطرتها التجارية والمالية على اقتصاد الحرير برمّته دون أن تتكبّد أياً من مخاطر التوظيف الإنتاجي المباشر فيها، فأصحاب الحلالات اللبنانيون يستلفون من رأس مال ليون بفائدة نسبتها ٤ ـ ٦ للمئة يوم (على كل مئة يوم) لقاء شحن المنتوج. لكن تجار ليون يؤثرون المصارف اللبنانية التي تقرض بفائدة قدرها ١٠ أو أزودِ مع بعض الرهونات. وهذه المصارف تقبض قيمة سلفاتها حريراً وتسوّقه بدورها إلى ليون. وكان مصرف آل

بسّول أهم مصدّر للحرير في تلك الفترة. وتلجأ هذه الشبكة المالية بدورها إلى شبكة من الوسطاء بينها وبينْ الفلاحين تبيع البزر لقاء حصة من المحصول تراوح بين ١/٧ منه ونصفه. هكذا يتحول الوسيط إلى مرابٍ.

يقول شاكر الخوري: «يوجد آفة عظيمة للتوت وهي استحلال سرقته فتبتدي سرقته من السمسار للفلاح ومن صاحب المعمل للسمسار ومن الأوروبيين لصاحب المعمل...».

والحقّ الحق في ما يقول المثل «المديون ما له غلّة».

ويخلص ميخائيل مشّاقة إلى أن ٩٠٪ من موسم حرير جبل لبنان يذهب إلى الأمراء والمشايخ والرهبان وبعض سكان المدن الكبيرة مثل بيروت. ولا يبقى للشعب، الذي ينوف عدده على ٣٠٠ ألف نسمة، من الموسم الذي هو مورده الوحيد غير عشره.

حادثة سير

روى الرواة أن صداماً وقع في بيت مري بين دابة يسوقها ولد درزي ودابة يسوقها ولد مسيحي في العاشر من آب ١٨٥٩، فتشاجر الولدان وحشد أهل كل ولد لولدهم. وتدخّل مسلحون من الطرفين، وأسفر الشجار عن مقتل ١٨ درزياً و١١ نصرانياً. وكانت الفتنة نائمة، تغطّ في نوم عميق، فاستيقظت مذعورة. واشتعَل فتيلُها.

كان نصارى البلدة ضعف عدد دروزها، واستدعوا لنجدتهم مسلحين من أهالي عين سعادة وبرمانا. فردّ يوسف بك عبد الملك، مقاطعجي الجرد، بالإغارة على قرى المتن المسيحية فقتل ونهب وأحرق حتى وصل مسلحوه إلى حمانا.

واندلع القتال في المتن عندما شنّ عسكر من نصارى بعبدات والشوير وبيت مري وبكفيا غارة معاكسة على دروز في كفرسلوان وصليما. وأنجدت عسكر النصارى تعزيزاتٌ من زحلة ومن كسروان بقيادة مشايخ من آل خازن. وفي المقابل، وصل إلى الميدان خطار بيك العماد وولده علي، فتصاعدت الاشتباكات في ضهر البيدر وصار كرّ وفرّ بين جيشي الطرفين في شتورة والجوار.

وتمكن وجيهي بك، قومندان بيروت العثماني، من وقف القتال أسعفه في ذلك القائمّقامان المسيحي والدرزي إذ توافقا على فرض ٣٣ ألف غرش على الدروز تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بالنصارى. دفع سعيد بيك جنبلاط المبلغ للنصارى من ماله الخاص وأعطى به حوالة على أحد صيرفيي بيروت. وعُقِد اجتماع ماروني ـ درزي في حمانا لتدارك الأسوأ على اعتبار أن «الفتنة كل عمرها تحبل في الشوف وتلد في المتن»، فوقّع المجتمعون على اتفاقية هدنة سمّيت «هدنة الحرير» ساد خلالها هدوء نسبي لكنه حذر، كما يقولون.

لم يخلُ الأمر من اغتيالات وتعديات خلال الخريف والشتاء وقد كان الطرفان يتسلحان ويستعدان للقتال والناس متخوفة من

«حركة ثالثة». وقدّر القنصل البريطاني أن أكثر من ٣٠ ألف قطعة سلاح بيعت في بيروت بين ١٨٥٥ وحوادث الستين. وأهم البندقيات المستوردة البندقية البلجيكية، ففي سنة ١٨٥٥ وحدها، بيع منها ١٤,٣٢٥ بندقية، وارتفعت المبيعات سنة ١٨٥٧ إلى ٢١,٢٢٥ بندقية.

وألّف المسيحيون «أخويات» من الشباب المتحفّز للقتال لقبوا رؤساءها «شيوخ شباب» وسمّوا رئيس شيوخ الشباب «شيخ المشايخ». وبرّز بين شيوخ الشباب يوسف نصيف، شيخ مشايخ جزين، ويوسف الشنتيري شيخ مشايخ المتن. وتوترت الأحوال بين عماطور وجزين، وحصلت اغتيالات متبادلة بين الطرفين، فتدخل سعيد بيك جنبلاط للتهدئة وعقد صلحة بين الطرفين. أفشل المطران بطرس البستاني الصلحة وأخذ يحرّض وجهاء راشيا على الدروز «المفسِدين في الأرض»، حسب تعبيره، داعياً نصارى زحلة وكسروان ليكونوا يداً واحدة ضد «هذه الطائفة القليلة العدد».

تجددت الاشتباكات في أيار إذ قارب موسم الحرير على نهاياته. دارت معارك في الشحّار بين نصارى كفرمتى ودروز عبيه وعين كسور وبعورته ودقون. وأغار شباب الشحّار من الدروز على منازل النصارى فأحرقوها وسلبوا غنائم. وفي الغرب، حمى آل تلحوق المسيحيين. وتولى الشيخ حسين تلحوق بنفسه حماية دير الشير لرهبانية الروم الكاثوليك في عاليه. ربط فرسه عند باب الدير، فلم يتعرّض للدير أحد.

وظهر مسلحون موارنة ودروز في ضواحي بيروت. وفي ٢٩ أيار تحرك خورشيد باشا، والي بيروت، إلى بعبدا على رأس فرقة من العسكر العثماني. وفي ٣٠ منه، في الساعة التاسعة عربية قبل الغروب بثلاث ساعات، والناس في جزين ملتهية بموسم الحرير، سمعوا أصوات إطلاق نار من جهة باتر تتقدم نحو بحنين أول قرية في قضاء جزين. أخذ الأهالي يهربون ويتجمّعون في صيدا. وفي الأول من حزيران، حاصر مسلحون دروز بقيادة آل بو نكد دير القمر وقطعوا عنها الماء ومنعوا جلب المحاصيل الواردة إليها، وطلبوا من الأهالي تسليم السلاح. ثم سار مسلحون دروز إلى بيروت والمتن والعرقوب وحدود كسروان شمالاً وبساتين صيدا جنوباً وحدود دمشق من ناحية بلاد الشام. في الطريق، نهبوا دير المخلص وسلبوا خزنة الروم الكاثوليك الثمينة فيها، المشتهرة بالغنى والأواني الكنائسية والأيقونات واللوحات النادرة وزجاجات النبيذ المعتّق الفاخر. . ففرّ رهبان الدير والراهبات إلى بيروت وكسروان وصيدا والشام.

وفي ١٥ آب هجم عسكر إهدن وكسروان على عين الحرف وقبّيع وقوتالي وأحرقوها .وتجمع مسلحون نصارى من إقليم جزين في كفرحونة وجبل الريحان ومرجعيون ومشغرة وتقدموا نحو مزارع نيحا فأحرقوها، فتعقبهم مسلحون دروز إلى جزين وبكاسين. وقاد الشيخان علي وسليم جنبلاط هجوماً معاكساً على البقاع فقتلوا وأحرقوا وسلبوا في صغبين وعيتنيت. وشنّ مسلحون دروز هجوماً على حاصبيا وحاصروها، وانضمّ إليهم

مسلحون من أهالي مجدل شمس الجولانية. قاتلهم أهالي حاصبيا وقد تحاجزوا في سرايا آل شهاب. وقتل في المعمعة الشيخ كنج أبو صالح زعيم المجادلة ومعه عشرة فرسان.. فهاج المحاصرون وماجوا إلى أن أتتهم نجدة شوفية بعث بها سعيد بيك جنبلاط، فكسروا بوابة السرايا واقتحموها فذبحوا ٢٣ من الأمراء الشهابيين وقتلوا من النصارى عدداً كبيراً بعدما أعملوا في السرايا والبلدة السلب والحرق.

١٨٦٠: «كسروان في حوزة الأمان»

لما اندلع القتال في المناطق المختلطة، كتب أهالي أنطلياس إلى طانيوس شاهين يستحثّونه المجيء إلى بلدتهم، وهي الحدود الفاصلة بين المنطقة المسيحية والمناطق المختلطة. ردّ شاهين أنه ينتظر أوامر البطرك. وقد عيّن البطرك طانيوس شاهين وأحد مشايخ آل حبيش لقيادة جيش كسروان لكنه لم يأمره بالتحرك خارج حدود المنطقة. وفي الوقت ذاته، استدعى البطرك يوسف بيك كرم لحراسة الساحل ومعه ٥٠٠ مسلّح، بينهم ٢٠٠ خيّال، واشترط عليه أن يبقى في جونيه ونهر الكلب.

وجاء الخواجات بشارة فرعون ونعوم فيقانو من بيروت إلى أنطلياس يعرضون المال والسلاح على الأهالي للذهاب لمحاربة الدروز. والوجيهان البيروتيان من أعضاء «لجنة السلامة العامة» التي تضم وجهاء وإكليركيين مسيحيين منهم خليل أفندي أرقش

وأسعد ثابت، وتتعاون مع «عصبة الشباب الماروني» التي ألّفها مطران بيروت طوبيا عون، تشتري السلاح وتحثّ على مقاتلة الدروز ونجدة مسيحيي المناطق المختلطة. والمطران استنجد بدوره بالبطرك وبطانيوس شاهين لنصرة مسيحيي المناطق المختلطة. وعلى ذمة أحد الرواة، أن طانيوس شاهين ردّ على رسول عون بقوله: «كسروان الآن في حوزة الأمان وبعيد عن الدروز ونحن محصّنون تجاههم فلماذا نرمي برجالنا خارج حدودنا في الأخطار البيّنة ونعطي سبباً للحرب؟».

وفي أواخر أيار بدأت حملة أهل كسروان نحو الشوف. هرب دروز أنطلياس ونهبت بيوتهم. وزحف جيش الأمراء الشهابيين على الشويفات ووافاهم طانيوس شاهين يقود عسكراً من أهالي كسروان.. فوصلوا قرب كنائس الحارة العمروسية، فردّهم عسكر درزي بقيادة الأميرين محمد الأمين ومحمود الحسن الارسلانيان وتعقبوهم إلى أن أرجعوهم إلى الضبية. وفي الأول من حزيران بعث طانيوس شاهين برسالة إلى قرى الفتوح والكفور يطلب منهم ملاقاته للدفاع عن المسيحيين وجلب الكهنة. مرض طانيوس شاهين (أو تمارض) ولم يقد قواته، فذهب ٥٠٠ مسلح من كسروان لمساعدة أهالي دير القمر المحاصرة. على الساحل تفادوا الاصطدام بالعسكر التركي. وفي المناطق المختلطة لم يفرح بهم الأهالي وخافوا أن يؤدي وجود عسكر كسروان إلى استفزار الدروز فيهاجمون قراهم. فعاد العسكر الكسرواني أدراجه ورابط عند نهر الكلب، الحدود الفاصلة بين كسروان وسائر الجبل، وأخذوا مساعدات من

الأديرة ومن تجار بيروت. وكتب صاحب النبذة: «وطانيوس شاهين بقي في كسروان لمحافظة البلاد وكان معه كثرة كثيرة من العساكر الكسرواني». واكتفى قائد العامية من الحرب بمعركة مبكرة خاضها ضد شيعة جبة المنيطرة الذين اقتربوا من حدود كسروان.

٢ حزيران: «ذَبْحَة الدَير»

يوم الخميس في الثاني من حزيران، اقتحم مسلحو الشوف دير القمر وقد انضم مناصفيون وشحاريون إلى مسلحين من العرقوب الجنوبي وعماطور والمختارة. أجروا المقتلة التي سمّيت «ذبحة الدير» وقتل أثناءها عدة مئات من سكان البلدة، وعرف من المحرّضين على القتل مصطفى دويك وسليمان أحمد عبد الصمد من الشيوخ الروحيين. «أما ما نهب من الدير من الحلي الفضية والذهبية ونفيس المتاع والخيل فشيء كثير» على ما أفاد صاحب «الحركات». وقد أخذ سعيد جنبلاط على عاتقه إنقاذ عدد من وجهاء الديريين.

بعد إحراق دير القمر، بدأت مسيرة المسلحين الدروز من جزين إلى بيروت والمتن والعرقوب. ووقعت قرب صيدا مجزرة بحق الهاربين من الدير. ولجأ المطران بطرس البستاني إلى بيت محمد بك علي شبيب الأسعد في المروانية. ولجأ شاكر الخوري، ابن كاتم أسرار سعيد بيك جنبلاط، وأهله إلى دير الزهراني في بلاد الشقيف وكان حاكمها الشيخ يوسف نصر

الله، وتوقفوا للاستراحة في البابلية. ولما وصل النازحون إلى صيدا كان قوم كبير قد اجتمع فيها من الجبل وراشيا وحاصبيا وجزين ولجأ كثير منهم إلى خان الإفرنج بحماية دولة فرنسا.

وعنقون من القرى الشيعية التي آوت العديد من أبناء القرى المسيحية. وكانت دارة الشيخ آل فرحات في تلك البلدة تغصّ بالهاربين من قرية درب السين. وبلغ الخبر إلى فصيلة من المسلحين الدروز يتعقبون النصارى الهائمين على وجوههم قصد القتل. دهموا دارة الشيخ علّهم يفوزون بضحايا جدد. حققوا مع الشيخ طويلاً عمّن في منزله. قال: كلهم أهلي وأبنائي ونسوتهم، فقال له أحدهم: إذا كان الأمر هكذا فلن تتردد في تقبيل النسوة والصبايا كلهم. وكان الشيخ معروفاً بتقواه والتقشف، فظن المهاجمون أنهم في ذلك يحرجونه فيخرجونه أو على الأقل يخرجون النصارى من عنده للذبح وبئس المصير، فما كان من الشيخ الجليل إلا أن أخذ يقبّل نسوة وصبايا درب السين واحدة واحدة.

ووقعت موقعة رهيبة في الدامور بين نصارى الدبّيّة والجوار ومسلحين من الدروز. وأرسل المطران طوبيا عون قارباً من بيروت لجلب أقارب له من مكان يقال له السعديات. وحضر أناس من نصارى الساحل فدفنوا الجثث في الرمال. أما باقي أهل الدبّية، فلما وصلوا إلى بيروت لم يكن معهم زاد ولا ثوب ولا فراش ولا غطاء فكانوا يفترشون الأرض ويتغطّون بالسماء وينتظرون أهل بيروت الذين كانوا يأتونهم بما تيسر من القوت.

٦ حزيران: سقوط زحلة

عندما تواترت أخبار حصار دير القمر، تحرك مسلحو زحلة خارج حدود المدينة على جاري عادتهم. قاتلوا في ظهر البيدر في ٢٦ أيار في معركة قتل فيها الشيخ علي ابن الشيخ خطار العماد، وفي كفرسلوان في ٦ حزيران وفي موقعة السهل في ١٣ حزيران وموقعة الفرزل وبساتين الكرك في ١٤ حزيران، ثم ارتدّوا إلى داخل المدينة بعدما خسروا معركة سمّيت «شرّ السهل» يوم الجمعة ١٥ منه، ما اضطر العديد منهم إلى تسليم خيلهم لإنقاذ حياتهم. ومعروف أن سلالة الخيل الزحلاوي لا تزال محمودة إلى يومنا هذا. وتألبت على زحلة قوى عديدة: قَشَط عليهم المقاتلون الدروز من الجبل بقيادة الشيخ خطار العماد يحدو رجاله في مواجهة أحد متاريس زحلة الحصينة المعروف بـ«متراس بيت العِنّ»: «يا عِنّ إحم ساحتك/ جاءتك فرسان الطرادِ/ حِنّا نبيع أرواحنا/ لعيون خطّار العماد». وتحرك ضدهم آل حرفوش الشيعة من جهة بعلبك. وتعزز الحصار بقدوم مسلحين من دروز حوران بقيادة إسماعيل باشا الأطرش. باتت زحلة محاصرة من كل الجهات خلا جهة الجبل.

وقاد خطار العماد اقتحام المدينة وتبعه خيالة إسماعيل الأطرش وقد صرخ بهم زعيمهم «ويلكم يا حوارنة!». فأخذ الأهالي يخلون مدينتهم باتجاه البلاد الكسروانية. لم يصل يوسف بك كرم لنجدتهم، وقد تحرّك صوبهم على رأس ٥٠٠ مقاتلٍ شمالي. ولم يبق في البلدة إلا أهالي حلوة العين الذين قرروا

الدفاع عنها. وآخر موقعة للدفاع عن زحلة موقعة كسارة، سقطت زحلة بعدها يوم ١٨ حزيران. وبات المسلحون الدروز ليلتهم في قب الياس وعادوا إليها في اليوم التالي لاستكمال الحرق والنهب. وساعدهم الأمير سلمان حرفوش الذي هجم على قرى النصارى كشمسطار وأبلح. ويروي رواة أن الشوفيين عفّوا عن أخذ الغنائم وتركوها للحوارنة.

تعدّدت التفسيرات لعدم وصول البيك لنجدة أهالي زحلة. قيل إن القناصل منعوه من الوصول إلى المدينة على اعتبار أنها تقع خلف «الخطوط الحمر»، أي داخل ولاية الشام التابعة مباشرة للسلطنة. وقيل إن آل بللمع استأخروه انتقاماً من أهالي زحلة الذين أعلنوا «الجمهورية» سنة ١٨٥٥ ورفضوا سلطة الأمير بشير أحمد وطردوا الشيخ نقولا أرقش الذي عيّنه الأمير اللمعي عليهم وصادروا أملاك الأسرة المقاطعجية. وانتخب الزحالنة الوكلاء وشيوخ الشباب يتدبّرون شؤونهم ويقودونهم في القتال في مجلس سمّي «مجلس وكلاء عموم أهل زحلة». أما رواية أهالي زحلة فتقول إن يوسف بك كرم لم يبرّ بوعده لهم لأنه كان يفاوض الدولة العثمانية على حاكمية الجبل.

واي. واي.

عاد أهالي زحلة ليجدوا بلدتهم وقد نُهب ودُمّر وأحرق قسم كبير منها. قضى في تلك المعركة ٢٧٠ درزياً و٩٠٠ نصراني. وبين الركام عثر صبي زحلاوي على تعويذة درزية كتب عليها: «تحمى من السيف والنار ومن رصاص الكفّار المحتوم علينا

قتلهم بأمر مولانا القائل يا فلان... حوّطتك في هذه الدار داير مندار إن أجوك من الشرق هبهب لا يصيبك رصاص ولا تحرقك نار باسم القهّار الغايب في الأبصار...».

«الطريق إلى سورية»

كانت حوادث الستين المناسبة التي كان البونا بارت الثالث ينتظرها لتحقيق حلمه في استعمار سورية. وكان قد طرح سابقاً على الإنكليز مشروعاً لاستعمار الولايات العربية من السلطنة العثمانية تؤول فيه سورية لفرنسا وتحتل بموجبه بريطانيا أراضي ما بين النهرين. ولم يلقَ المشروع حماسة لدى الإنكليز، بل إنهم توجسوا شراً من أنّ تحقيق المملكة العربية لفرنسا وشق قناة السويس يحوّلان المنطقة إلى منطقة نفوذ فرنسية بالكامل على حسابهم.

في باريس، استمر الترويج للمشروعين. في العام ١٨٦٠ أسس اللبناني رُشَيد الدحداح في باريس صحيفة عربية سماها «برجيس باريس» سرت شائعات أنها تصدر بتمويل من الاستخبارات الفرنسية. والشيخ رُشَيد ابن أسرة المشايخ الشمالية المعروفة وقريب الشيخ مرعي، التاجر والمتمول الشهير، ضلع في اللغة العربية التي درسها على الشيخ عبد القادر جمال الدين البزري في صيدا. وللشيخ رشيد مؤلفات كثيرة في اللغة والأدب، منها تحقيق ديوان ابن الفارض وقاموس عربي طبع في مارسيليا. وقد قصد الدحداح الشام وأجرى مقابلة طويلة مع عبد القادر أعلن فيها الأمير أن النبي محمداً تنبأ بانتصار المسيحيين. وفي

مجرى حديثه، هاجم الأمير النبلاء والملوك بعبارات تذكّر بمواقف غلاة الثوريين الجمهوريين لدى الفرنساويين. ومع ذلك لم يعطِ عبد القادر موقفاً واضحاً من ترشيحه للمملكة العربية.

لم يكن غرض التدخّل الفرنسي في سورية نسف مواقع بريطانيا فيها وحسب. كان يلبي داخلياً سياسة استرضاء للأحزاب الكاثوليكية والفاتيكان. فقد انفتح الإمبراطور على تلك الأحزاب وعمل على تمثيلها في مجلس الشيوخ بعدد من الكرادلة، وفي ظنه أن تدخله في حرب التوحيد الإيطالية لحماية الكرسي البابوي من مشاريع التوحيد يطمئن الكاثوليك في فرنسا. وحسب بونا بارت أيضاً أن حملته على سورية «من أجل حماية إخوتنا المسيحيين» سوف تلقى الصدى الإيجابي لدى الفاتيكان والكاثوليك المحليين. حتى إنه طلب رسمياً من البابا أن تشارك الفاتيكان في الحملة العسكرية بـ١٥ ألف جندي. اعتذر البابا عن عدم المشاركة.

أوجز الدكطر الألماني دوافع البونا بارت فقال «إن الإمبراطور الفرنساوي. . . مضطر للبحث عن حملة صليبية جديدة ومثيرة ليعمل ثانية على تخدير إمبراطوريته بالهلوسات الحربية». ولتلك «الصليبية الجديدة» وضع الإمبراطور النشيد المناسب من وحي الحروب الصليبية. «في الطريق إلى سورية» نشيدٌ يروي قصة «دُنوَا» الفارس الشاب الجميل المقدام الذي يصلّي للعذراء مريم لمباركة مسعاه وهو في طريقه إلى الحملة الصليبية على سورية ودعاؤه: «أن يحب الأجمل بين النساء ويكون الأشجع

بين الفرسان». استجابت العذراء مريم لصلواته فانتصرت الحملة الصليبية وقد أبلى فيها «دُنوا» أحسن البلاء، فكافأه سيّده الكونت قائلاً: «أنتَ صنعتَ مجدي، سوف أحقق لك سعادتك» فزوّجه إيزابيل، الأجمل بين بناته. النشيد موضوع في الإطار التاريخي للحملات الصليبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، يستلهم أيضاً حملة نابليون بونابرت الأول على سورية ومصر للدفاع عن المصالح التجارية الفرنسية وقطع طريق بريطانيا إلى الهند. والمقصود بسورية في النشيد سورية الجنوبية أي فلسطين حيث توقفت حملة نابليون عند أسوار عكا. النشيد من تأليف الكسندر دُ لابورد عام ١٨٠٧ ووضعت موسيقاه الملكة أورطانس دُ بوهارنيه، والدة البونا بارت الثالث. وقد قرر الإمبراطور اعتماد «في الطريق إلى سورية» نشيداً للإمبراطورية بعدما منع استخدام «المارسلييز» نشيد الجمهورية الرسمي. فمن كان يتصوّر أن النشيد الذي لحّنته الأم سوف يعزف على قرع الطبول في صليبية جديدة يجيّشها الابن لاحتلال سورية؟

غير أن الذي أتاح للبونا بارت أخيراً أن يسلك «الطريق إلى سورية» هي الأحداث الدامية التي وقعت في دمشق الفيحاء.

١١ تموز: «فتنة دمشق»

كان يوم ٢٠ حزيران يوم فرح في المدينة لسقوط زحلة. بتأثير من الاقتتال الجاري في جبل لبنان، أخذ الزحالنة يعتدّون على

المسلمين الشوام الذين يؤمّون البلدة للتجارة. وبعد أيام أخذ صبيان مسلمون يرسمون الصلبان على الأرض. وتصاعد الغليان على ما يروي الحسيبي، لأن القلوب كانت ملآنة بسبب إعلان «تنظيمات» العام ١٨٥٦ مساواة المسلم والنصراني. وكانت دمشق أحد مراكز المعارضة لـ«التنظيمات»، ارتفعت فيها الشكاوى مما بات يعدّ تمييزاً للنصراني على المسلم، وتمتعه بإعفاءات فضلاً عن الحماية القنصلية الأجنبية المتوفرة له. ومعروف أنه في العام السابق، اكتشفت مؤامرة في اسطنبول لخلع السلطان سمّيت «قضية الكوليلي»، أبطالها علماء دين وضباط كبار معروفون بمعارضتهم «التغريب والمساواة مع المسيحيين».

في السابعة والنصف زوالية من الحادي عشر من تموز من ذلك العام الفظيع، هجم عدة مئات من عامة المدينة على حارة النصارى. وبدأ النهب والحرق والقتل والسبي. تمرّد الجنود الذين نيط بهم حماية الحارة على ضباطهم وانضموا إلى المهاجمين. وأعفى الجمع نصارى حيّ الميدان لأسباب وأسباب، منها أنه لم يكن يوجد فيها ما يستحق النهب. ولم يتعرّض أحد للحي اليهودي في المدينة. وقيل إن أهله دفعوا مبالغ طائلة من المال لاتقاء الفتنة.

للفور قصد الأمير عبد القادر القنصل الفرنسي في دمشق السيد لانوس وأعلمه بأنه يضع نفسه ورجاله في تصرف فرنسا لإنقاذ الأوروبيين والمسيحيين، وطالبه بالمال اللازم لتسليح ألف

مقاتل جزائري. وافق القنصل بلا تردد على طلب الأمير. وكان الأمير عند اندلاع أحداث جبل لبنان، قد بعث برسالة إلى الزعماء الدروز يحذّرهم فيها من الحقد على المسيحيين ومن اللجوء إلى العنف. آوى الأمير لا أقل من ٥٠٠ من المسيحيين في قصره الدمشقي. أما الباقون ممن أنقذهم رجاله، فجرى تجميعهم في القشلة. هكذا نجح الأمير الجزائري ورجاله في إنقاذ حياة لا أقل من ١٥ ألفاً من نصارى دمشق ومن الأوروبيين، بينهم خمسة من قناصل الدول، وفتح لهم سبيل الفرار إلى بيروت بحماية رجاله.

انهالت التهاني والأوسمة والأوشحة والهدايا على الأمير من كل حدب وصوب. منحه السلطان العثماني النيشان المجيدي الهمايوني من المرتبة الأولى. ووصلته تهنئة من الإمام شامل الداغستاني. وقلّدته الإمبراطورة فكتوريا البريطانية سيفاً وأهدت له بندقية ذات ماسورتين مطعّمة بالذهب. ووهبه قيصر روسيا وسام «النسر الأبيض» أرفع أوسمة الامبراطورية «وسام النسر الأسود». وأهدى له البابا بيوس التاسع صليباً. ومنحه ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل وسام «موريس وإليعازر» أقدم نياشين الخيالة في إيطاليا. ومن اليونان، ورده «وسام المخلّص»، ومن جزيرة ساردينيا «صليب ساردينيا». وقدمت له المحافل الماصونية الأوروبية التهاني ورسائل الشكر. ومن وزير الخارجية الفرنسي وصلت للأمير رسالة شكر ودعوة إلى زيارة باريس. وعندما قرر الأمير تلبية الدعوة نزل في مرفأ مارسيليا

حيث استقبله جمع غفير وهو يهتف «يعيش القديس عبد القادر» وعقدت صحيفة «الموند» الغراء مقالة عن مآثره في صدر صفحاتها يوم الرابع من آب ١٨٦٠ .

تموز ١٨٦٠ : مؤتمر باريس

يوم ٦ تموز ١٨٦٠ . أرسل وزير خارجية فرنسا رسائل يدعو فيها نظراءه في الدول الأربع إلى تنفيذ مهمتين في سورية: نَزْع سلاح الدروز والحيلولة دون تكرار المجازر. وفي الآن ذاته، أمَرَ وزير الدفاع الفرنسي بتوجيه قطع من الأسطول البَحري إلى الشواطئ السورية باتجاه مرفأ بيروت. توجست السياسة البريطانية من النوايا الفرنسية أيما توجّس. وصرح رئيس الوزراء پالمرستون بأن احتلال روسيا لبلغاريا وفرنسا لسورية يهدد المصالح البريطانية. ضغطت بريطانيا على السلطنة لحسم الأمر بسرعة وإحلال النظام في جبل لبنان وماطلت في الرد على الطلب الفرنسي التدخل في سورية. لكن پالمرستون لم يترك المبادرة العسكرية الفرنسية من دون رد فأمر بتوجه بوارج حربية بريطانية ترابط عند مالطا نحو الشاطئ السوري لمراقبة تحركات الأسطول الفرنسي.

لقطع الطريق على الاعتراض البريطاني، دعا وزير الخارجية الفرنسي إلى إرسال قوات بريطانية وفرنسية ونمساوية مشتركة إلى سورية وتشكيل لجنة دولية لهذا الغرض. تعززت دعوة الوزير برسالة بعث بها الإمبراطور إلى السلطان يطالبه فيها

بالتدخل فوراً لإعادة الأمن والاستقرار في سورية. غير أن الأنباء عن فتنة دمشق انتزعت موافقة بريطانيا على مبدأ التدخل العسكري بشرط توقيع معاهدة تنظم حيثياته. ومع ذلك، تصاعد التوتر بين الدولتين، إذ ازداد توجس الإنكليز من المخاطر الستراتيجية للتدخل الفرنسي. پالمرستون يردد «سورية مفتاح مصر» وأيّ تقدم تحرزه فرنسا في المنطقة سوف يتم على حساب بريطانيا. وبلغ التوتر مستوى سمح بسريان شائعات تتحدث عن حرب فرنسية ـ بريطانية وشيكة. يوم ١٦ تموز رد السلطان على الإمبراطور واعداً بعدم توفير أي جهد لإعادة الأمن والاستقرار في سورية ومعاقبة المذنبين بكل قسوة، وأبلغه أنه أرسل ناظر خارجيته، فؤاد باشا مبعوثاً شخصياً للباب العالي مزوداً بصلاحيات استثنائية للسيطرة على الوضع في سورية. ولم يكن خافياً أنّ غرض الاستعجال العثماني قطع الطريق على التدخل العسكري الفرنسي إذ كانت تركيا ترى فيه مقدمة لتدمير السلطنة وتقطيع أوصالها.

يوم ٢٣ تموز، هاجم پالمرستون فرنسا في مجلس العموم متهماً إياها بالسعي إلى بناء قوة بحرية تتفوّق فيها على القوة البحرية البريطانية. ومن يعرف أهمية القوة البحرية البريطانية في تحقيق سيطرتها الاستعمارية العالمية يقدّر خطورة التصريح. وسرعان ما انضمّت النمسا وبروسيا إلى الموقف البريطاني.

ويوم ٢٦ تموز انعقد أخيراً مؤتمر باريس لمناقشة التدخل العسكري الفرنسي، حضره ممثلون عن الدول الأوروبية

الخمس التي رعت اتفاقيات العام ١٨٤٥ إنكلترا وفرنسا وروسية وبروسية والنمسا بالإضافة إلى ممثل عن الباب العالي. وقفت روسية إلى جانب حليفتها فرنسا مؤيدة إرسال قوات فرنسية إلى أراضي السلطنة. وعزّزت موقفها بإرسال قطعات من أسطولها الحربي نحو الشواطئ السورية وقد أمرت قائده بأن يتلقّى تعليماته من قائد الأسطول الفرنسي وأن يقاتل إلى جانب الفرنساويين إذا ما نشب قتال. وراهن الفرنساويون على أن تنجح روسية في استمالة بروسية إلى صفّها. ولم تكتفِ فرنسا بالمناورات الدبلوماسية، عزّزتها بابتزاز السلطنة في عجزها المالي الذي تغطّيه فرنسا وتحول دون إعلان إفلاسها. ضَغَط الإمبراطور على المصارف الفرنسية لتقدّم قرضاً جديداً إلى السلطنة قيمته ٢٠ مليون فرنك فرنسي.

شهد المؤتمر سجالاً عنيفاً بين الدولتين المتنافستين. فرنسا المستعجلة لإنزال قواتها على اليابسة، وبريطانيا المستمهلة على أمل أن تثمر جهود السلطنة في وقف أعمال العنف وتفويت الفرصة على الفرنساويين للتدخل. في آخر المطاف، وضع ممثل بريطانيا شرطين للحملة الفرنسية: تحديد مهلة زمنية لوجودها في سورية ووضعها تحت إمرة فؤاد باشا، مندوب الباب العالي. رَفَض المندوب الفرنسي وضْع قوات بلاده تحت قيادة الوزير العثماني لأنه يمسّ بشرف الجيش الفرنسي. وجرى التوافق أخيراً على أن تتحرك فرنسا وحدها. رفضت بريطانيا المشاركة في الحملة لأنها لم تكن تريد زجّ قواتها ضد حلفائها

الدروز وأرادت أخذ المسافة اللازمة إزاء الحملة لتتمكن من إلقاء اللوم على الفرنساويين وحدهم في حال الفشل. وامتنعت النمسا بدورها عن إرسال قواتها خوفاً من استخدامها لصالح الإمبراطور الفرنسي الذي يحاربها في إيطاليا.

في الثالث من آب ١٨٦٠ وقّع في باريس على بروتوكولين. قضى الأول بإيفاد قوة أوروبية إلى سورية لا يزيد حجمها على ١٢ ألف جندي، ولا يتعدى عدد الجنود الفرنسيين فيها ستة آلاف جندي، ولا تزيد مهلة خدمتها على ستة أشهر. وألزم الاتفاق قائد الحملة الأوروبية التنسيق مع «المفوض السامي للباب العالي في سورية». ودعا البروتوكول الثاني إلى الاهتمام الجاد بتحسين أحوال السكان المسيحيين في السلطنة.

قبل انتهاء مؤتمر باريس، كان الإمبراطور قد أصدر مرسوماً بتعيين الجنرال أبو فور الهابول قائداً لقوات الردع الفرنسية إلى سورية، على أن يباشر التنفيذ فوراً. مع أن أبو فور بلغ السادسة والخمسين، كان لا يزال يحمل ملامح وسامة غامضة بنظرته الغاضبة وتقطيبة حاجبيه العبوسة وأنفه الرفيع المتطاول وعظام وجنتبه الناتئتين ولحيته البونا بارتية. غادر على رأس قواته من مارسيليا إلى بيروت يومي ٦ و٧ آب في احتفال أصرّ الإمبراطور على أن يرأسه بنفسه. خطب في جنوده قائلاً «إنكم لا تتوجهون إلى سورية بغرض الغزو، بل لدعم السلطان ضد استبداد رعاياه وبربريتهم» [كذا!]. ثم استعرضهم وهم يُنشدون «في الطريق إلى سورية».

عودات ومصالحات

بعد سقوط زحلة دبّ ذعر عظيم في بلاد كسروان. وشاع خبر أن الدروز مزمعون على الإتيان عن طريق زحلة والعسكر من طرق الساحل، ويريد كلاهما الدخول إلى كسروان في وقت واحد. وشاع أيضاً أن المشايخ الخازنية سيكونون مرشدين للعساكر، فأخذ أهالي كسروان يهربون في كافة الاتجاهات خوفاً من الهجوم الدرزي. أرسل الفرنساويون «فابوراً» (مركباً تجارياً) إلى مرفأ جونيه غادر عليه الآباء العازاريون من دير عين طورة. حتى إن البطرك ذاته استعد للمغادرة غير أنه عدل في آخر لحظة. لم تمض أسابيع معدودة على سقوط زحلة حتى تم الاتفاق على تعليق العامية في كسروان.

يوم ٢٩ تموز ١٨٦٠ وقّعت اتفاقية المصالحة بين الفلاحين والمشايخ في كسروان. كان للمطران طوبيا عون دور بارز في إقناع طانيوس شاهين بمصالحة المشايخ وإطاعة السلطنة. وافق شاهين على عودة المشايخ بشرط أن يفوا ديونهم للأهالي فيفي هؤلاء ديونهم لهم. ومفردة «الأهالي» هنا لا تعني الشيء ذاته. الأهالي المديونون للمشايخ هم الفلاحون. والمشايخ بدورهم مديونون للتجار والسماسرة والمرابين. مهما يكن، وقّع وكلاء أهالي كسروان على صك الاتفاق وجرى تصوير العامية على أنها تجسيم لخلاف طفيف استغّله «ذوو الغايات» للعصيان على أوامر الحكومة.

ودعا سعيد بيك جنبلاط المسيحيين للعودة إلى منازلهم، فعاد

الأهالي ووجدوا الأهوال. وشاكر الخوري، مدبّر سعيد بيك جنبلاط، في عداد العائدين إلى قريته بكاسين، فألفاها محروقة ومنهوبة وشاهد بيته «مسوَدّاً كفرن دون باب ولا شبّاك، أرضه محفورة والقواطع التي بين الغرف مهدومة».

١٨٦٠ ـ الدكطر الألماني يكشف مؤامرة

لم يتغير وضع الدكطر الألماني المالي في ذلك العام. مع ذلك ظل يعمل ويكتب بلا كلل. أنجز كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» وباشر في تأليف «رأس المال». تعلّم الدانمركية والسويدية والرياضيات العليا فيما هو يواظب على تحسين فرنسيته والإيطالية. خلال تلك الفترة، انكبّ على متابعة أوضاع روسيا فكتب سلسلة مقالات عن حركة تحرير الأقنان، وتنبأ باقتراب التغيير الثوري ضد النظام القيصري. وكثّف من نشاطه دعماً للوحدة الألمانية ولتحرر شعوب النمسا وبولونيا، وتعاطف مع حركة توحيد إيطاليا وإن كان شديد التشكك في نوايا دعم البونا بارت للوحدويين الإيطاليين وتدخّله في شبه الجزيرة ضد النمسا.

وفي تلك السنة، اشتدّت وطأة داء الكبد عليه وأوجاع الأضراس. قضى ثلاثة أشهر طريح الفراش فيما المصاعب المالية تتراكم عليه وتتزايد. اضطر إلى إخراج بناته من المدرسة. وفي نهاية العام أصيبت زوجته جيني بحمى الجدري فاضطروا إلى عزلها وإرسال الأولاد للسكنى عند أسرة صديقه لايبنخت. بقي وحده في البيت يعتني بزوجته، جالساً إلى

جانب سريرها، يحلّ المعادلات الجبرية ويقرأ في كتاب «أصل الأجناس» لداروين.

تعافت جيني عشية عيد الميلاد. لكن الدكطر وقع بدوره طريح الفراش جرّاء أزمة كبد حادة. ولعجزه عن دفع أجور الأطباء أخذ يطبّب نفسه بنفسه، فازدادت حاله سوءاً إلى أن اضطر أخيراً إلى الاستعانة بطبيبه الدكتور ألِن. وصف حالته لفريدريك الملائكة بقوله «أنا منكوب مثل أيّوب، لكنني لست أملك إيمانه». وأسرّ إلى صديقه برغبته في إشهار إفلاسه وترْك مالك البيت يصادر له الأثاث والانتقال إلى مسكن اجتماعي للعمال بإيجار قدره ثلاثة شلنات في الأسبوع. وقرّر أيضاً أن يجد عملاً لوصيفتي زوجته هيلين ديموث وماريان كروتز وتوظيف بناته مربّيات عند أسر ثرية. بل قرر أن يعمل هو نفسه. تقدّم بطلب للعمل كاتباً في شركة سكة الحديد. رُفِض طلبه لرداءة خطه. وبخطه الرديء ذاك، كتب إلى أنغلز يقول: «لست أعتقد أن أحداً كتب عن المال وهو يعاني من نقص المال قدر ما أعاني».

كان الدكطر يتابع التطورات بين أوروبا والسلطنة العثمانية بانتباه شديد. وموقفه يدور مدار عدائه للبونابارتي. حرّر مقالاً في «ذي نيويورك دايلي تريبيون»، يوم ١١ آب/أغسطس ١٨٦٠، اتهم فيه روسيا وفرنسا بإثارة الفتنة السياسية والدينية في الشرق. وإتهم إمبراطور الفرنساويين وقيصر روسيا بالبحث عن حرب خارجية يتهرب بواسطتها كل منهما من مشاكله الداخلية.

واتهم الدكطر الألماني الغاصب الفرنسي والقيصر الروسي

بالتآمر لاقتسام أوروبا واللورد پالمرستون بأنه مدّ دروز جبل لبنان بالأسلحة سنة ١٨٤٦ وعقد مع القيصر في العام ذاته معاهدة أدّت عملياً إلى «إلغاء السيطرة العثمانية على قبائل لبنان العاصية مانحاً إياها استقلالاً مزيّفاً لم يورثها مع الوقت، وبفضل حسن تدبير المتآمرين الأجانب، غير حصاد من الدم».

واستشهد الدكطر في مقالة سابقة بتاريخ الثالث من آب/ أغسطس ١٨٦٠ بكرّاس عنوانه «سورية والتحالف الروسي» كتبه باسم مستعار إدوار آبو، أحد أبرز دعاة البونابارتي الثالث. يطرح آبو في كراسه فكرة تدخل عسكري فرنكو ـ روسي في سورية بحجة الدفاع عن مسيحيي الشرق يكون هدفه الحقيقي تقاسماً جديداً لمناطق النفوذ في أوروبا ذاتها: «في سورية يجب أن تحتلّ فرنسا سلمياً حدود نهر الراين بأن تمتّن التحالف مع روسيا». أما روسيا فعليها الاكتفاء بمقاطعات شمال البوسفور فيما آسيا الصغرى مُعدّة لأن تكون المملكة العربية بقيادة الأمير عبد القادر. ولم تكن الحجج التي يقدّمها آبو لصالح الأمير الجزائري تخلو من الحذاقة: «إنه سُنيّ من حيث إسلامه بما يكفي لتطمين السكان المسلمين، وهو متحضّر بما في الكفاية لكي يقيم العدل بين الجميع، ثم إنه يرتبط بفرنسا بعلاقات الاعتراف بالجميل فيدافع عن المسيحيين ويخضِع القبائل المشاغبة المستعدة دوماً وأبداً لتعكير صفو الأمن والسلام في آسيا الصغرى». وختم آبو نصّه بوصلة من الكرم الكولونيالي فقال: «إن تتويج عبد القادر أميراً على سورية سوف يكون مكافأة نبيلة على الخدمات التي أسداها لنا سجيننا».

الفصل الثامن

الصفقـة

الشِقّ

عام ١٨٥٦ تنازل الخديوي عن الأراضي اللازمة لشق القناة.

وعام ١٨٥٨ صعّد بالمرستون حملته ضد القناة معلناً أن شق القناة بمثابة انتحار. امتثل البونا بارت. لم يكن يريد إغضاب بريطانيا، لكنه وافق في نهاية أكتوبر على لقاء دُ لسبس بناءً على إلحاح ابنة عمته الإمبراطورة أوجيني. عقد اللقاء في سان كلو. وَعَدَ الإمبراطور صاحب الشركة بحمايته.

قدّر دُ لسبس مجموع أكلاف المشروع بمئتي مليون فرنك فرنسي. سعى لدى آل روثتشايلد إلى استدانة المبلغ فطلبوا فائدة قدرها ٥استكثر البشمهندز المبلغ فقرر اللجوء إلى الأسهم. يوم ١٥ أكتوبر ١٨٥٨ منحت «الشركة العمومية لقناة

السويس البحرية» الخديوي ٤٤٪ من أسهمها وأنزلت إلى الأسواق ٤٠٠ ألف سهم بقيمة ٥٠٠ فرنك للسهم الواحد.

٢٥ نيسان ١٨٥٩ افتُتحت أعمال شق القناة. غادر دُ لسبس دمياط على رأس ١٥٠ عاملاً نحو منطقة على الساحل حيث الفرع الشرقي للنيل يلتقي البحر الأبيض المتوسط. كان له من العمر ٥٣ وكان أرمل. رفع علماً مصرياً وزرعه في الأرض وأعلن «باسم الشركة العمومية لقناة السويس البحرية»: نحن على أهبة البدء بعمل سوف يفتح الشرق لتجارة الغرب وحضارته...» ثم هوى ١٥٠ معولاً على الأرض دفعة واحدة «لمجد الخديوي محمد سعيد باشا». قدّر الباشمهندز أنه يجب إزالة أكثر من ألفين وستمائة مليون قدم مكعبة من الأرض بما فيها ٦٠٠ مليون في الأرض وألفا مليون قدم مكعبة جرف من الماء.

في ٩ حزيران ١٨٥٩ أوقف الخديوي أعمال شق القناة. أعلن أنه أجاز الدراسات التمهيدية لا عملية الشق التي تتطلب موافقة الباب العالي. والباب العالي لم يوافق. اشترط لشق القناة: إعلان حيادها الدولي، وإلغاء السخرة، خفض عدد العمال من ٢٠ ألفاً إلى ٦ آلاف ورفع أجورهم، وتخلّي الشركة عن الأراضي المحيطة بقنوات المياه الحلوة (٦٠ ألف هكتار). كثيرون رأوا أن الحجج من ابتكار الإنكليز الذين أرادوا رفع تكاليف الشركة لإضعاف مالية مصر. رفض مجلس إدارة الشركة الشروط. تدخّل بونا بارت للوساطة مع العثمانيين ومع الإنكليز. في تلك الأثناء، التقى فؤاد باشا الإمبراطور بالصدفة في مارسيليا وكان ناظر الخارجية العثماني في طريقه لقضاء فترة نقاهة في

جنوب فرنسا. لم يردّ الإمبراطور التحية التي وجّهها إليه الباشا، وعند استفسار الأخير عن سبب تبرّم البونا ورده جوابٌ من كلمة واحدة: الفرمان. قصد فرمان إجازة شق القناة.

١٨٦٠ جدّد بالمرستون هجومه على القناة.

بيروت: مدافع في «ساحة البرج»

في ١٦ آب ١٨٦٠، ألقت السفينة الحربية الفرنسية «أمريك» مرساتها شرقي بيروت ورابطت القطاعات العسكرية الأخرى في بحر يعجّ بالأساطيل الأوروبية والتركية، منها ثلاث سفن حربية بريطانية وزورق حربي دفاعي صغير، فيما باقي الأسطول البريطاني في جزيرة قرفة. العمارة الروسية مؤلّفة من ثلاث فرقاطات قادمة من قاعدة «كرونشتاد» البحرية أضيفت إليها لاحقاً سفينتان حربيتان، «الصقر» و «الباشق». إلى كل هذا، تضاف الفرقاطة النمساوية «راديتسكي» والسفينة الحربية «دانولولو» والسفينتان السردينيتان «فيكتور عمانوئيل» و«مالفاتانو». أمّا الأسطول التركي فمؤلف من بارجتين.. «الفتاة» و«شاندي».

أنزلت «أمريك» إلى الساحل اللبناني ستة آلاف وسبعمائة جندي بحري فرنسي، عسكروا في غابة الصنوبر المحيطة ببيروت ونصبوا مدافعهم في ساحة «البْرج» بوسط المدينة. وأبو فور الهابول من حيث المبدأ قائد لقوات أوروبية، لكنه لم يلقَ تحت إمرته إلا قواته الفرنسية. أما مهماته فأكثر من كثيرة ومتناقضة:

عليه إعادة السلم الأهلي بالتنسيق مع فؤاد باشا، وعدم الإتيان بأي بادرة تزعج الإنكليز أو تغضبهم بأي حال فالفترة فترة شهر عسل بين الإمبراطور وبريطانيا العظمى. وعليه مساعدة المسيحيين على العودة إلى قراهم ومنازلهم، والإسهام في إعمار الخراب في المناطق المختلطة وإعادة عاملات وعمال الحرير إلى العمل، بالقوة إذا اقتضى الأمر، حسبما أوصاه صناعيو ليون وتجارها. وقد موّل هؤلاء أعمال ترميم الكارخانات وتصليح أنوال الحياكة واشتروا بزر القز من تركيا لاستعجال الموسم الجديد. حتى إنهم وعدوا بدفع أجور لعمال الحرير تشجيعاً لهم على العودة للعمل.

سياسياً، كُلّف أبو فور بتنفيذ مشروعين لا يقلّ واحدهما طموحاً وخطورة عن الآخر: إنشاء الإمارة العربية العتيدة برئاسة الأمير عبد القادر، وإعطاء الإمارة على جبل لبنان لآل شهاب بشخص الأمير مجيد شهاب، المسيحي الذي أشهر إسلامه ثم عاد إلى دين عيسى.

وفوق هذه المهمات كلها كلّف أبو فور بمهمتين عسكريتين: رسم خريطة عسكرية للساحل السوري وجبل لبنان، وشراء خيول سورية لسلاح الخيالة الفرنساوي الذي يوليه الإمبراطور عناية خاصة. مع الوقت، باتت الخيول المستقدمة من الجزائر هجينة وضعيفة، فعقد الفرنساويون منذ العام ١٨١٨ علاقات مع شيوخ قبائل الشام والعراق وأخذوا يشترون منهم الخيول الأصيلة ويشحنونها عن طريق مرفأ بيروت. انقطع الاتصال

بمصادر الخيل العربية الأصيلة بعد انسحاب إبراهيم باشا من سورية، فكانت الحملة الفرنسية مناسبة لتجديد الاتصال. في وزارة الحربية كان الجنرال دوما وإسماعيل عربان ينصحان أبو فور بعدم الانحياز كثيراً إلى المسيحيين مراضاةً لعرب بلاد الشام تأميناً لاستمرار شراء الخيول العربية الأصيل. وقد وُضِع تحت إمرة الهابول ضابطٌ مكلف تكليفاً مباشراً من وزير الحربية دوبرو بشراء الخيول السورية.

ولما كان ابن الأخ يريد تقليد عمه في كل شيء، قرر إيفاد العالم الفرنسي إرنست رينان مع الحملة لينقّب عن آثار الحضارة الفينيقية. سكن رينان في بلدة عمشيت ببلاد جبيل وكان يُعدّ سيرة عن حياة السيد المسيح تحت وطأة أزمة حادة في معتقداته الكاثوليكية بعدما قرأ للفيلسوف الألماني هيغل. رافقته شقيقته هنرييت التي أصيبت بمرض عضال وتوفيت في بيتهما ببلدة عمشيت في بلاد جبيل.

وفوق هذه المهمات كلها، كان على أبوفور حماية «الحملة الإنسانية» لنجدة المسيحيين وعلى رأسها أسقف الجزائر العاصمة شارل لافيجيري، الأسقف الذي قاد حملة تنصير القبائليين وصاحب نظرية تقول إن القبائليين كانوا مسيحيين قبل الفتح العربي ـ الإسلامي وليس المطلوب من الاستعمار الفرنسي إلا إعادتهم إلى ديانتهم الأصلية. وعن الشبَه بين جبل لبنان والجزائر، كتب الأسقف ملاحظة ملغّزة تقول «إن منطقة القبائل هي لبنان أفريقيا، لبنان الذي دمّرته أوروبا».

وأخيراً تعيّن على أبو فور الهابول تنفيذ كل هذه المهمات خلال مهلة لا تتجاوز ستة أشهر!

الأمن أولاً

فوراً انكبّ أبو فور على ترتيب تجهيزاته الأمنية والعسكرية. وصله قنصل فرنسا الكونت بنتيفوغلو بوجهاء الفرنساويين في المنطقة وأبرزهم الكونت إدمون دُ پرتوس، مهندس طريق بيروت ـ دمشق، والصناعي فورتونيه پورتاليس. وساعده القنصل على توظيف مترجمين، وأبرز مترجميه جان فهيم الشدياق، من بكفيا، الذي يقول عن نفسه إنه ابن عم فارس وأخيه طنوس. لكن الأهم بالنسبة إلى وزير الحربية السابق هو بناء جهاز استخبارات. بتصرّفه لهذا الغرض ميزانية استخبارية قيّمة تبلغ خمسة عشر ألفاً و٥٢٥ فرنكاً فرنسياً، فأنشأ جهازاً من ٢٤ جاسوساً وأربعة عملاء وستة مخبرين، وزرع مخبراً أو عميلاً في كل مكان حساس، فجنّد مخبراً درزياً في قلب المختارة ومخبراً مسلماً سنّياً في حيّ الميدان بدمشق، وجنّد محمد ذكري السامر من قبيلة عنزه البدوية في بادية الشام لمراقبه دروز حوران والإبلاغ عن مشايخ جبل لبنان الذين لجأوا إلى جبل الدروز. ووزّع الهابول عسَسَه في جهات البلاد الأربع، فتحركت مفرزة إلى جزين وشبعا لاستطلاع طرق التسلل التي يتّبعها الدروز إلى جبل الشيخ، فأفادت أن طرق جبل الشيخ وحوران لبنان ليست محروسة من قبل العثمانيين، ما يسمح للدروز بالفرار إلى حوران.

كانت أولى زيارات قائد قوات الردع إلى بكركي لمقابلة البطرك. وتقاطرت عليه الوفود المسيحية. الخوازنة يستنجدون به لقمع عامية كسروان وتأمين عودتهم إلى بلادهم. وآل بللمع يضغطون لتعيين واحد منهم قائم مقام على كسروان. وآل شهاب يطالبون بعودة الإمارة إلى واحد منهم. لكن أي واحد؟ المتنافسون كثر. وعد أبو فور الجميع خيراً. حقيقة الأمر أنه كان مكلفاً بإعطاء الإمارة لمجيد شهاب. لكن الموقف الفرنسي لم يكن واحداً حول هذا الموضوع، فأحزاب التيار الديني في باريس تنادي بالإمارة لتلميذ اليسوعيين يوسف بك كرم وتُشيع أن الأمير مجيد موالٍ للدروز، والقنصل الفرنسي العام في بيروت مع تنصيب كرم.

الوزير والجنرال

كان شغل فؤاد باشا الشاغل قطع الطريق على وصول الهابول إلى دمشق. استبقه إلى هناك عن طريق صيدا. توقف في سغبين، في البقاع الغربي، حيث التقى مشايخ العنّزة وعلي بيك الأسعد. كلّف الطرفين قطع الطريق على الدروز الفارين حتى لا يعبروا سهل البقاع نحو حوران. قطع الأولون طريق الحولة ومرج عيون وحاصبيا. وهاجم الثانون مجدل شمس. وسلب مسلحو الجماعتين من المسلحين الدروز ما تيسّر مما سلبه هؤلاء من المسيحيين.

في دمشق ضرب المبعوث العثماني بيد من حديد على

المسؤولين عن المجزرة وانفلات الأمن. يوم ٢٩ تموز نفّذ حكم الإعدام شنقاً بـ٥٧ شخصاً، منهم خمسة من وجهاء دمشق، تلاه في ١٥ آب شنق وإعدام ١١١ نفراً من الباشي بوزوق عسكر السلطنة، بينهم الضابط إسماعيل آغا وأحمد باشا آمر حامية حاصبيا وراشيا. وأشرف فؤاد باشا شخصياً على نفي ٧٢٣ مدنياً من المتورطين في «فتنة دمشق» بينهم ١٤٥ من أعيان المدينة، وتوزعوا على قبرص وردوس وإزمير والآستانة. وزار الناظر اللاجئين المسيحيين في القشلة، وأمر بتفتيش بيوت المسلمين بحثاً عن مسلوبات النصارى وجمّعها في جامع يبلغا في سوق الخيل. وشكّل الناظر العثماني مجلساً خاصاً جَرَد المسلوبات وتولّى حفظها وتدبير العثور على أصحابها وإعادتها اليهم. وفَرَض عقوبات مالية على سكان دمشق للتعويض عن النصارى، لم يعفَ منها إلا الأمير عبد القادر والمغاربة. وأمر فؤاد باشا بمصادرة عدد كبير من بيوت المسلمين في القنوات والقيمرية ومادنة الشحم والشاغور وفرّق النصارى اللاجئين في القشلة عليها.

وبينما فؤاد باشا في دمشق، أوفد أبوفور العقيد شانزي من الاستخبارات العامة حاملاً رسالة إلى عبد القادر يبلغه فيها عن نيّته دخول دمشق على رأس قواته ويطلب منه مرافقته في العرض العسكري الذي ينوي تنظيمه للمناسبة. تمنّع عبد القادر وتذرّع بالمرض لعدم استقبال قائد الحملة الفرنسية. وفي رواية ثالثة أنّ قائد قوات الردع هدّد بقصف دمشق إن لم يسمح له بدخولها، وطلب من الأمير عبد القادر الخروج منها

وعائلته حفظاً للسلامة. لم ينفّذ الهابول تهديده. وفي رواية أخرى أن عبد القادر خرج إلى الهابول وقابله في بلدة قب الياس، القريبة من طريق بيروت دمشق في سهل بقاع العزيز، وأثناه عن دخول دمشق. تعددت الروايات والنتيجة واحدة: لم يدخل أبو فور دمشق.

عند عودته إلى بيروت، استدعى فؤاد باشا مناصب المسيحيين والدروز إلى اجتماع يوم ٢١ أيلول ١٨٦٠. وكان الاجتماع كميناً نصبه لاعتقال الزعماء الدروز، فوقع في الشرك سعيد بيك جنبلاط ويوسف عبد الملك وحسين تلحوق وأفلت خطار العماد وبشير أبو نكد. وانعقدت المحكمة الاستثنائية العثمانية في المختارة وبيروت فحكمت على خورشيد باشا وطاهر باشا ونوري بيك وسواهم بالنفي، وعلى ١٢ شيخاً درزياً بينهم سعيد بيك جنبلاط بالإعدام وجاهياً، وغيابياً على ٣٣ شيخاً درزياً آخر، بينهم الأمير إسماعيل بك الأطرش وخطار بيك العماد. لم يعدم سعيد جنبلاط. وضِع في القشلة ببيروت ثم نقل إلى بيت صديقه علي الإدلبي بجانب القشلة حيث توفي. في آخر أيامه، زاره كاتم أسراره أبو شاكر الخوري فأسرّ له البيك بسرّه الأخير: اليزبكيون هم الذين أرادوا الحرب. أنا لم أردها.

باركت «الجوائب» التي أصدرها الفارياق في الآستانة في تموز من ذلك العام مساعي السلطنة في إحلال السلام والتهدئة في جبل لبنان ومدن الساحل. وأيدت مهمة ناظر الخارجية العثماني فؤاد باشا. وتابعت أخباره واتصالاته وإجراءاته،

فنشرت وقائع اجتماع عقده في جبل لبنان أهاب فيه بجميع السكان أن يعودوا إلى أعمالهم «ويعيشوا بالموادعة والالتئام بعضهم مع بعض». وعلّقت الصحيفة قائلة: «الحاصل أن حضور المشار إليه بين مشايخ القرى ولا سيما المارونيين أفاد فوائد جمة». وبعد أيام بشّرت «الجوائب» بأن موسم الحرير في تلك السنة كان أوفر منه في السنوات الماضية وعَزَت ذلك إلى عناية «الوزير المفخّم فؤاد باشا». وعن الوزير المفخّم نقلت الجريدة خبر زيارة له إلى طرابلس الشام حيث سُرَّ من «ائتلاف المسلمين والمسيحيين». ولا عجب، فالوزير كان يدعم الجريدة مالياً وقد أنقذها من الإفلاس.

نجح فؤاد باشا، بقسوة عقوباته في دمشق والجبل، في قطع الطريق على تمدد الحملة الفرنساوية نحو دمشق. وأحبط ثلاث محاولات للّقاء بين أبو فور والأمير عبد القادر. ومن جهة أخرى، مَنَع قوات أبو فور من التعرّض للدروز، حتى إنه جمّد عملياً حركة القوات الفرنسية. بحلول أيلول، كانت مراكز قوات الردع الفرنسية مقتصرة على دير القمر وبيت الدين وعلى معسكر في قب الياس في البقاع لحماية زحلة وتأمين الطريق بين زحلة ودير القمر. حتى إن شانزي أخذ يشتكي من ضعف الهابول أمام مناورات فؤاد باشا المدعوم من المندوب البريطاني دافرِن.

في وصف دير القمر

الزيارة الوحيدة التي قام بها أبو فور للمناطق المختلطة كانت لدير القمر. أرسل مجموعة لاستطلاع الطريق مكوَّنة من ثلاثة

جواسيس ومخبرَين. ووصف مشاهداته في واحد من الدفاتر الثلاثة التي ملأها بيوميّات مهمته في جبل لبنان. كتب بتاريخ ٢٦ أيلول:

«دخلتُ دير القمر الساعة الرابعة إلاّ ربعاً زوالية. تجولتُ في مختلف الأحياء، وساحات المجزرة الرئيسية. العظام تغطي الطرقات، ولا نستطيع أن نتفادى الدوس عليها. لا تزال آثار المجزرة بادية على الساراي الجديد والقديم، الغرف تغصّ بعدة طبقات من الجثث المتراكمة، وبعض الجثث وقد ألقي بها عبر النوافذ لا تزال تفترش حافة الجدران الخارجية، جهة الريف. في الساراي القديم، غرفتان واطئتان، محميتان من الشمس، تحويان جثثاً لم تجفّ بعد، في أوضاع فظيعة المنظر. الكنيسة ملأى بالعظام البشرية، بعض الهياكل العظمية لا تزال مغطّاة بالأشلاء، وتشير مِزَق الأثواب النسائية إلى وجود عدد من النساء بين الضحايا. السوق الكبير ركام خراب، فقد آثر القتلة أن يحرقوا هذا المستودع للثروات الكبيرة [...]

«لحق بالقوّات الفرنسية عدد من النساء الناجيات من هذه الكارثة الفظيعة واللاجئات إلى بيروت، ودخلن مدينتهن القديمة معنا. عند مشاهدة خراب بيوتهن، وجثث أزواجهن وآبائهن وأبنائهن، أخذت أولئك البائسات يولولن، ويطلقن صرخات اليأس والألم والغيظ...».

مهما يكن، لا يبدو أن أبوفور تعفّف عن الأعمال الأمنية التنفيذية، كما يسمّونها، فلمّا اغتيل إسماعيل باشا الأطرش،

قائد حملة المسلحين الدروز على زحلة، في إحدى قرى حوران، توجهت أصابع الاتهام صوبه.

كرَم قائمَ مقامٍ على النصارى

يوم ١٨ تشرين الثاني ١٨٦٠ ابتكر فؤاد باشا مناورة جديدة ضد الفرنسيين. عيّن يوسف كرم قائمَ مقام على النصارى محل بشير أحمد اللمعي ومنحه لقب «أبوجي باشا» وكلّفه تحصيل الميري من أهالي كسروان. قطعت المناورة الطريق على مطالبة الفرنساويين بتولية مجيد شهاب واستعادة الإمارة الشهابية لكنها طمأنتهم، في المقابل، إلى أنّ جبل لبنان سوف يحكمه حاكم مسيحي، ما يخدم التعجيل في سحب قوات الردع الفرنساوية. ثم إن فؤاد باشا رجّح أنّ تعيين كرم، الأدنى مرتبة بين «المناصب» النصارى المتنافسين على السلطة، سوف يرفضه أمراء بللمع ومشايخ آل الخازن وحبيش والدحداح، ما يضْعِف موقع القائم مقام الجديد ويجعله أكثر طواعية بيد السلطات العثمانية.

الإنجاز الوحيد الذي حققه يوسف بك كرم خلال ولايته هو وأد عامية كسروان. في آذار ١٨٦١ جرّد حملة على المنطقة العاصية، وبعد اشتباك محدود مع مسلّحي العامية دهم عسكر البيك بيت طانيوس شاهين في ريفون وصادروا محتوياته وممتلكاته ثم أحرقوه. فرّ شاهين إلى بيروت والتجأ إلى القنصل بنتيفوغليو. ناشد القنصل كرم أن يعيد أملاك شاهين وحاول إقناع فؤاد باشا بإعلان براءة قائد العامية. من جهته،

هدّد أبو فور بأنه سوف يحرر شاهين بالقوة فيما لو اعتُقل. أخيراً، رعى البطرك وأبو فور مصالحة صورية بين كرم وشاهين وافق كرم بموجبها على إسقاط الاتهامات الشخصية ضد شاهين، إلا أنه رفض العفو عنه رسمياً، مشترطاً بقاء شاهين خارج كسروان وامتناعه عن أي نشاط سياسي.

أثنى الإنكليز على كرم لوأده العامية. وبدأ المشايخ بالعودة إلى ديارهم وأخذوا يستعيدون أملاكهم. لكنّ أهالي كسروان امتنعوا عن دفع متأخرات الضرائب وحصص المشايخ من المحاصيل.

مؤتمر بيروت

تضاربت المشاريع حول مصير المنطقة في المؤتمر الذي عقده ممثلو الدول الخمس في بيروت وعلى جدول أعماله إمارة لبنان والمملكة العربية. يوم ٢٢ أيلول ١٨٦٠ كتب وزير الحرب الفرنساوي إلى أبوفور يسأله تقدير الموقف حول إمكانية تنصيب الأمير عبد القادر حاكماً على سورية، فأجابه أبوفور: «مهما تكن حسناته، ونبل سلوكه خلال الأحداث الأخيرة، يبقى عربياً في نهاية المطاف». أي لا يمكن الوثوق به. وأردف أن ممثلي القوى الأوروبية لن يرضوا بعبد القادر ولا تركيا سترضى. واقترح قائد الحملة، في المقابل، استخدام مشروع المملكة العربية ورقة للتبادل مع العثمانيين ثم التخلي عنها وعن عبد القادر، ما يسهّل الحل الأنسب الذي يهمّ فرنسا، وهو تسليم الإمارة في جبل لبنان إلى الأمير مجيد شهاب، مرشح أبوفور الأثير لحكم الجبل. ردّ أبوفور على مناورة فؤاد باشا بدعوة

اللبنانيين إلى توقيع عرائض شعبية تطالب بالأمير مجيد شهاب حاكماً على الإمارة المسيحية. لكن من دون طائل.

فعلاً رفض مندوب بريطانيا مشروع المملكة العربية، فتراجعت فرنسا واقترحت منح عبد القادر بشليك دمشق وإنشاء إمارة مارونية في جبل لبنان. حينها صدر في أثينا باللغة الفرنسية كرّاس بعنوان «المسألة السورية حسب ما يفهمها سوري» لكاتب مجهول يدعو صراحة إلى إيلاء الموارنة حكم جبل لبنان بحماية قوات عسكرية أوروبية لمدّة ١٥ إلى ٢٠ سنة يتم خلالها إنشاء جيش للموارنة من ٣٠ ألف عسكري يجري إعداده وتسليحه وتدريبه في فرنسا.

تقدم دافرِن بالمشروع البريطاني المقابل: إعلان سورية مملكة مستقلة يولّى عليها فؤاد باشا ويتمتع لبنان داخلها بوضعية إقليم ذي استقلال ذاتي. أثنت صحيفة «التايمز» اللندنية على الاقتراح واقترحت بدورها أن يحكم سورية أمير من البيوتات الملكية الأوروبية غير المعنية بالنزاع مثل سردينيا ونابولي. ودعت زميلتها «الدايلي نيوز» إلى أن يكون حكم سورية على طريقة الخديويين في مصر، أي لقاء مبلغ معّين من مال الضرائب يدفع للباب العالي. غير أن لندن ما لبثت أن نسفت كل هذه المشاريع وأهابت بمندوبها الالتزام بالمبدأ الأساسي للسياسة الرسمية البريطانية وهو المحافظة على السلطنة ووحدة أراضيها. من جهته، رفض المندوب العثماني البحث أصلاً في موضوع سورية مذكّراً بأن اللجنة دُعيت إلى البحث في نظام جبل لبنان لا غير، فاقترح لذلك إلغاء النظام الخاص بجبل لبنان وإعادة

إخضاعه للسلطة العثمانية المباشرة. على سبيل التسوية، قدّم دافِرن مشروعاً يقضي بتقسيم جبل لبنان إلى ثلاث قائم مقاميات بإضافة قائم مقامية أرثوذكسية إلى القائمقاميتين المارونية والدرزية، بحيث لا تكون في الجبل غلبة للموارنة. أراد الدبلوماسي البريطاني الحذق أن يصيب بذلك عصفورين بحجر واحد: أن يضرب المشروع الفرنسي عن الإمارة المارونية المستقلة في جبل لبنان، وأن يمنح روسيا حصة في جبل لبنان على أمل فك تحالفها مع فرنسا. أيّدت روسيا الاقتراح وعارضه المندوب الفرنسي.

مبادلة مملكة بشِق

أخيراً، أسفرت مداولات مؤتمر بيروت عن تسوية لم تكن لها كبير علاقة بما تسابق عليه المندوبون تحكمها ثلاث لاءات: لا مملكة عربية مستقلّة من الشام إلى الحجاز. لا إمارة مسيحية مستقلّة. لا قائمقاميات. بناءً على بروتوكول ١٨٦١ الذي وقّعه المؤتمرون، تقرر إعادة توحيد جبل لبنان في سنجق ذي وضع خاص يحكمه متصرّف عثماني مسيحي يعاونه مجلس إدارة من اثني عشر عضواً ينتخبهم الأهالي ويمثلون الطوائف الستّ الرئيسية في الجبل. وتأكيداً على الوضع الخاص للمتصرفية داخل السلطنة، نيطت مهمة حفظ الأمن فيها بقوة «جندرمة» محلية تتشكل من الأهالي بنسبة سبعة أفراد لكل ألف نسمة إلى أن يبلغ عديدها ١,٤٠٠ عنصر يدرّبهم ضباط فرنساويون. وقضى البروتوكول أن لا تدخل قوات عثمانية أراضي المتصرفية

إلا بموافقة مجلس الإدارة. وتقرر أن يرتدي رجال الجندرمة بزة الجنود الفرنسيين العاملين في الجزائر وأن يتسلحوا، في المقابل، ببنادق البيوبوردي العثمانية ويحملوا الشارات العسكرية العثمانية.

هكذا تجسدتْ في جندرمة المتصرفية شراكة عثمانية ـ فرنسية مفاجئة لإدارة متصرفية جبل لبنان. وبالفجائية ذاتها، أعلن الإمبراطور أنه سوف يجهد لإنجاح ما سماه «تجربة فرنسا الكاثوليكية في الشرق». وخلاصة القول أنه يتخلى عن مشروعي المملكة العربية والإمارة المسيحية في آن معاً. أما ثالثة المفاجآت فإعلان صادر عن الباب العالي، في شباط من ذلك العام ١٨٦١، يجيز استئناف الأعمال التمهيدية لفتح قناة السويس، على أثر وساطة من طرف الإمبراطور الفرنسي.

بدا كأن الأمور سارت في الاتجاه الذي أوصى به أبو فور الهابول عن التهديد بالمملكة العربية لأغراض المبادلة. لكن علّق بعض الخبثاء بأن صفقة الإمبراطور لم تبادل مملكة عبد القادر العربية ببشليك دمشق ولا بالإمارة المارونية، بل بشقّ في الصحراء المصرية. لكن، أي شقّ!

يوم الرابع عشر من حزيران ١٨٦١

يليق بالرابع عشر من حزيران ١٨٦١ أن يدخل التاريخ من بابه العريض.

يوم ١٤ حزيران ١٨٦١ غادرت قوات الردع الفرنسية إلى بلادها

مخلّفة خمسين خمارة وعدداً من دور البغاء في «ساحة المدافع»، على ذمة ما كتب المرسل البروتسطانتي الأميركي هنري جيسوب في مذكراته.

ويوم ١٤ حزيران ١٨٦١، ودّعت بيروت فؤاد باشا العائد إلى بلاده. أقبل عليه أهالي بيروت بأعداد غفيرة. وزّع الباشا الأوسمة المجيديية من مختلف الدرجات وعاد محمّلاً بخمسين فرسًا عربية أصيلة وثلاثة آلاف صندوق من الهدايا والأغراض، وأهدى له باشا بيروت ٥٠ سلة من الفواكه والحرائر والبُسط والأثاث. تقديراً لخدماته للسلطنة في الأزمة السورية، عيّن السلطان فؤاد باشا في منصب الصدر الأعظم.

ويوم ١٤ حزيران ١٨٦١، جرّد داوود باشا، متصرف جبل لبنان، حملة ضد يوسف كرم وأحرق بيته في إهدن، فلجأ كرم إلى البترون حيث رابط عند جسر المدفون ينصب الكمائن للعسكر العثماني. ثم قصد إهمج في بلاد جبيل فقاتل أهلها إلى جانبه، واتخذ من لحفد المجاورة مقراً له قبل أن يهجّ إلى الجرود العليا. تخلّى عنه الفرنسيون ولم تنقذه الرعاية البريطانية، فاستدعي إلى الآستانة منفياً.

بعد أن أمّن ترحيل جنوده والضباط، عاد الهابول بدوره إلى باريس يوم الرابع من تموز ١٨٦١. كتب لقواته في الأمر اليومي قبل مغادرته: «كانت مهمّتنا إنسانية فتحوّلت إلى مهمة سياسيّة. وكل البشرية شاهدة علي ذلك». وهنّأ ضباطه والجنود على انضباطهم. وفي باريس استقبله الإمبراطور شخصياً ومَنَحه

«وسام سورية» تقديراً لدوره في الحملة السورية. كذلك أنعم عليه السلطان عبد العزيز بالنيشان المجيدي من أول طبقة. وفي نهر الكلب، حيث يترك الفاتحون للساحل السوري بصماتهم، لوحة تذكارية عن الحملة الفرنساوية لعامي ١٨٦٠ ــ ١٨٦١، حُفر عليها اسم البوفور تحت اسم الإمبراطور.

قبل رحيل القوات الفرنسية، رُفعت عريضة تناشد الإمبراطور الفرنساوي «لا تتخلّ عنا!» وتطالب ببقاء القوات الفرنسية في جبل لبنان، وقّعها ٣٢٨ تاجراً و٢٢٣ أميراً شهابياً ونحو ٣٠ ألفاً جميعهم من المسيحيين.

موارنة إلى الجزائر (٥)

تجددت الدعوة إلى تهجير الموارنة إلى الجزائر بعد حوادث الستين. في ٢٤ أيلول ١٨٦٠، وجّهت الكونتيسة كليمانس كرونيان ـ لاجوبير، الكاهنة الفخرية للمجلس الملكي البروتسطانتي البروسي، دعوة إلى وزير الحربية الفرنسي لتوطين الموارنة في القرى الجزائرية التي تنقصها اليد العاملة الأوروبية.

محاولة أخرى قام بها فرنسي مقيم في الجزائر هو السيّد فايسيت، مؤلف «تاريخ قسنطينة»، الذي نشر عام ١٨٦٠ منشوراً بعنوان «لننقذ الموارنة في الجزائر ومن أجل الجزائر ـ حل مؤقت للمسألة الشرقية» يدعو فايست إلى تهجير جماعي للموارنة إلى الجزائر بما هو الحل الوحيد للمسألة السورية. افترض الرجل «أنّ إنشاء مملكة [مشرقية] بقيادة الأمير عبد

القادر الجزائري سوف ينجم عنها «تعزيز العنصر الإسلامي بطريقة خطيرة»، وإعلان حماية فرنسا الدائمة لمسيحيي لبنان سوف يستدعي حملات عسكرية شبه دورية أو الاحتلال الدائم للبلد من قبل قوات فرنسية أو دولية. أما إنشاء دولة مسيحية مستقلة فسوف يعادل تقطيع أوصال السلطنة العثمانية، وهو أمر مُنافٍ للمبادئ الموضوعة عام ١٨٥٦ .من هنا أن تهجير المسيحيين يذلل كل هذه المصاعب، ولن يحقّ لتركيا الاعتراض على ذلك لأن فرنسا وسائر الموقّعين على اتفاقية باريس يستطيعون تذكيرها بأنها لم تلتزم بتعهداتها تجاه السكان غير المسلمين في السلطنة».

اقترح فايست تجميع الموارنة في «تعاونيات عمل» وإيكال مهمات عسكرية لهم، ودعا إلى أن يوقّعوا عقود عمل لخمس سنوات يستصلحون خلالها الأراضي التي سوف تعود إليهم ملكية أجزاء منها بعد انقضاء المهلة.

تراجعت أهمية تلك المشاريع مع التدخل العسكري الفرنساوي في الأزمة اللبنانية وقيام المتصرفية. لكن ما إن انسحبت قوات الردع الفرنساوية حتى أعيد طرح الموضوع بحجة أنّ المسيحيين، وخاصة في منطقة البقاع، خائفون ويرغبون في الهجرة.

وفي حزيران ١٨٦١ وجّه الكونت إدوار دُ وارن مذكرة بهذا المعنى إلى الحكومة الفرنسية يدعو فيها إلى تحويل تيار الهجرة المارونية نحو أفريقيا حيث اليد العاملة المسيحية اللبنانية

الرخيصة، رجالية ونسائية، سوف تؤدي إلى النمو الفوري لإنتاج القطن والحرير. أخذت الحكومة مشروع وارن على محمل الجد وجرى تبادل رسائل بشأنه بين وزارتي الحربية والخارجية والبحرية والحاكمية العامة في الجزائر. اقترح الحاكم العام توطين الموارنة في منطقة «الوادي الصغير» بين قسنطينة وستيف وفي صيدا وأويزرت في ولاية وهران. وقدّر أن موازنة من مليون فرنك فرنسي كافية لتغطية نفقات النقل والتوطين. لكن وزارة الحربية ظلت متخوفة من استفزاز السكان الجزائريين بإدخال عنصر مسيحي إلى الجزائر. أما الكلمة الأخيرة فكانت لوزارة الخارجية التي قالت إن النظام الجديد للبنان يحول دون جذب المسيحيين إلى الخارج، خصوصاً أنه وضع من أجل حمايتهم. وحسمت الوزارة بالقول إن التنافس الفرنسي الإنكليزي يقتضي الحفاظ على المسيحيين في لبنان لأنهم الركيزة الأساسية للنفوذ الفرنسي فيه ما دام الإنكليز يدعمون الدروز.

١٨٦١ ـ نفير المثقفين

«أشرّ ما يوجد تحت قبّة الفَلَك الحروب، وأشرّ الحروب وأقبحها وأشنعها الحروب الأهلية [...]

ومن أشرّ الحروب الأهلية الحرب التي أضرمت نارها ورشقت سهامها هذه السنة، فعطّلت هذا المقدار من المصالح والصوالح الدينية والأدبية والمدنية».

هكذا كتب **المعلم بطرس البستاني**، بتوقيع «محبّ الوطن» في

واحدة من ثلاث عشرة رسالة نشرها في نشرة «نفير سورية» أصدرها بين أيلول ١٨٦٠ ونيسان ١٨٦١ . يعزو المعلّم الحرب إلى «المبدأ الوحشي» الذي هو مزيج من غرضية النظام المقاطعجي ومن التعصب الديني. والغرضية هي الانتساب إلى حزب من الأحزاب المناصرة لهذه الأسرة المقاطعجية أو تلك. عارض البستاني المثل الشائع «من لا غرض له لا دين له»، الذي يشرط التعصب السياسي بالدين، بمعادلة تقول «حبّ الوطن من الإيمان». أسّس البستاني دعوته على دولة القانون وعلى تطبيق الشرائع بحيث تسري أحكامها على الجميع، ودعا إلى فصل المؤسسات الدينية عن الدولة وإلى «وجوب وضع حاجز بين الرياسة، أي السلطة الروحية، والسياسة، أي السلطة المدنية».

ولم يكتفِ البستاني بالتبشير. أسّس في بيروت عام ١٨٦٣ «المدرسة الوطنية» المفتوحة بلا تمييز أمام أبناء جميع الطوائف والمذاهب، مبدأها حرية الإيمان والوحدة الوطنية. ورأى البستاني إلى مدرسته بديلاً عن مدارس الإرساليات الدينية حيث يتعلّم أبناء الوطن عن بلدان قصيّة ويجهلون تاريخهم ومناطق وطنهم.

الأمير الأديب محمد أرسلان. عُيّن قائمَ مقام على الدروز سنة ١٨٥٨ . لمّا وقعت أحداث الستين رفض المشاركة فيها واستقال من منصبه ونزل إلى بيروت حيث تفرّغ للتأليف والأدب، وشارك سنة ١٨٦٨ في تأسيس «الجمعية العلمية السورية» وتولّى رئاستها لفترة.

شاكر خوري. مدبّر وابن مدبّر عند آل جنبلاط، كتب عن الفتنة «ليس الذنب في الفتنة الأولى على الأهالي بل الذنب كله على مقاطعجية ذلك الزمان. وليس اللوم على فئة واحدة إذ إنه لو كانت انتصرت أهل الإقليم [إقليم جزين] على أهل الشوف لفعلتْ معها كما فعلته الأخرى». واستطرد قائلاً: «فالحمد لله الذي بِظلّ دولتنا، عندما أبعدت المقاطعجية وألغتهم، حصلت الراحة التامة...». وكان شاكر أيضاً في عداد الذين زاروا الأمير عبد القادر في دمشق. عزّاه الأمير بقولته «إن الفتن تولّد الرجال».

ميخائيل مشاقة من مواليد دير القمر لدى أسرة كاثوليكية يونانية الأصل، عمل بعض أبنائها مدبّرين لدى أحمد باشا الجزار في عكا والأمير بشير شهاب الثاني قبل أن تتفرق، لأسباب سياسية، إلى مصر وجبل لبنان ودمشق. اشتهر ميخائيل مشاقة بكتابه «الجواب على اقتراح الأحباب» (١٨٧٥) يروي فيه سيرة أسرته على خلفية «الحركات».

لفت مشاقة الانتباه إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية في «الحركات» وأبرزها النزاع على الضرائب وعلى الأرض بين المقاطعجية الدروز والعامة المسيحيين. وحمّل السلطنة العثمانية المسؤولية شبه الكاملة عن «إيقاد نيران الفتن وإيغار صدور رعاياها من دروز ومسلمين على النصارى المستظلّين بظلّها».

وصادف وجود مشاقة في دمشق إبّان مجزرة تموز ١٨٦٠ فوقع في قبضة زمرة من القتلة لم يستطع الإفلات منهم إلا بالحيلة.. إلى أن أنقذه رجال الأمير عبد القادر. وميّز بين مجزرة دمشق

وحوادث الستين في جبل لبنان، وعَزَاها إلى نقمة حكام دمشق العثمانيين ووجهائها على «التنظيمات» العثمانية لإعلانها المساواة بين رعايا السلطنة، مسيحيين ومسلمين، فاتخذوا من مسيحيي دمشق كبش فداءٍ للتنفيس عن نقمتهم. ولم يوفّر مشاقة مسيحيي المدينة من النقد، إذ لامهم لقبولهم الإعفاء من الخدمة العسكرية، الأمر الذي «جرّدهم من الوطنية».

الحكمة

قدّر عدد ضحايا الحرب بين ١٢ ألف نسمة و١٦ ألفاً. تركت المعارك ٣٠٠ قرية مخرّبة؛ وقدّرت الخسائر المادية بـ٥٠ مليون دولار. تمكنت الحملة الفرنساوية من إعادة ١,٤٠٠ من سكان دير القمر إلى بلدتهم وعمّرت عدة مئات من البيوت والمعامل المهدّمة، وأعادت إلى العمل نحو ٢٥٠ نول حياكة. وما إن غادرت القوات الفرنسية حتى هرب العديد من عمال وعاملات الحرير المسيحيين من المناطق المختلطة. غضب صناعيو ليون من أبو فور لرفضه إلزام العمال الموارنة بعقود العمل في الكرخانات وامتناعه عن التدخل لإعادة مصانع پالوا إلى أصحابها وقد سيطرت عليها العاملات وطبّقن فيها الإدارة الذاتية.

الحكمة عن الحروب الأهلية: «يلّي بيخسرها بيخسر، ويلّي بيربحها خسران» على قولة الشيخ حسين تلحوق.

الفصل التاسع

مرج البحرين

أمير وقناة

كان فردينان دُ لسبس من جملة الذين زاروا الأمير عبد القادر للشكر على دوره في حماية المسيحيين في حوادث الستين. تعرّف الباشمهندز إلى الأمير عن طريق شقيقه إدمون، قنصل فرنسا في بيروت. بسط دُ لسبس مشروعه وتوسع في شرح ما فيه خيرٌ وتقدّم حضاريّ وتطور زراعي لمصر في جوار القناة البحرية، فلقي حماسة شديدة من الأمير وهو الذي يحلم بتلقيح الغرب بروحانية الشرق قدْر حلمه بتلقيح الشرق بمنجزات العلوم وبالحضارة التقنية الغربية. بعدها، زار الأمير عددٌ من السمعانيين ذوي العلاقة بمشروع الشق، منهم پولين طالابو والمصرفي إسحق پيرير، فأبدى لهم الحماسة ذاتها للمشروع.

قرَنَ الأمير القول بالفعل. في يناير ١٨٦٣ زار موقع القناة

وأبدى اهتمامه بالأعمال المنّفذة، واستمع إلى شروح المهندسين، وزار بحيرة التمساح ومشروعاً زراعياً لدُ لسبس والتقى زعماء قبائل المنطقة في وادي الطميلات حيث أقام له البدو احتفالاً كبيراً. وحيّا الأمير جهود دُ لسبس وقال «هنا يجري بعث مصر». وقدّم الباشمهندز للأمير أراضي ومنزلاً في بير البلح بين الإسماعيلية والتل الكبير. ولما عاد الأمير إلى القاهرة، نزل في ضيافة الخديوي محمد سعيد في واحد من قصوره، ومنها غادر إلى مكة المكرّمة. وقبل مغادرته الأراضي المصرية، كتب رسالة إلى الدُ يهنّئه فيها على عمله واستشهد له بالآية «مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخٌ لا يبغيان». ونشرت الرسالة في فرنسا في جريدة الشركة وعنوانها «برزخ السويس. صحيفة الاتحاد بين البحرين».

بعد وفاة محمد سعيد ١٨٦٣ ساءت العلاقات بين الخديوي إسماعيل والشركة، وكان الوريث أمْيَلَ إلى تنفيذ المشروع الإنكليزي للقناة من المشروع الفرنسي. تقرر التحكيم لدى بونا بارت. تدخّل عبد القادر في الأمر هو أيضاً وجاء من جدة إلى القاهرة في حزيران ١٨٦٤ حيث نزل في ضيافة الخديوي وزار منطقة القناة. لكن الخديوي لم يرتح لوجوده في السويس في ضيافة الشركة ولا لامتلاكه عقارات بير البلح التي يعتبرها ملكاً للدولة المصرية، فطالب الشركة بإعادتها إلى مصر. بالجملة، خشي الخديوي من أن يستقر الأمير في مصر خوفاً من شعبيته وما ارتبط باسمه من مشاريع فرنسية عن المملكة العربية. غادر الأمير مصر في نهاية الشهر عائداً إلى دمشق.

وفي زيارته لباريس عام ١٨٦٥ زار الأمير مقر الشركة قناة السويس واستقبله مجلس إدارتها رسمياً بغياب دُ لسبس عن فرنسا. وعاد عبد القادر من باريس عن طريق اسطنبول حيث شفع لأعيان دمشق المسجونين بسبب حوادث ١٨٦٠ ونجح في إطلاق سراحهم وإعادتهم إلى بلادهم. وزار مصر مجدداً في ٢٧ كانون الأول ١٨٦٥ حيث بقي فيها نحو شهرين (إلى ١٠ شباط ١٨٦٦) والخديوي يحتجّ على نية الأمير الاستقرار في مصر وبونا بارت يطمئنه إلى أن الأمير لن يستقر من دون موافقة جلالته. وعلى الرغم من ممانعة الخديوي، تسلّم عبد القادر أراضيه البالغة مساحتها ٦٧ هكتاراً، منها ٤٠ هكتاراً مزروعة، فطالب بزيادتها إلى ٢٩٥ هكتاراً، منها ٢٠٠ هكتار صالحة للزراعة.

عام ١٨٦٦ استعادت الحكومة المصرية كل أملاك الشركة المتنازع عليها وفقاً لتحكيم البونا بارت الذي لم يفلح في وضع أراضي عبد القادر في بير البلح خارج الأراضي المتنازع علهيا. أبلغ دُ لسبس الأمير خطياً بالأمر، فأجابه الأمر بردّ مترفع يفيد «فداء صداقتك». وفي النصف الثاني من ذلك العام ١٨٦٦ زار الباشمهندز الأمير في دمشق ووفّر له مالاً لإرسال ولديه للاستشفاء في باريس. وفي العام التالي زار الأمير معرض باريس العالمي وحل ضيفاً على الإمبراطور. وصدف أن الخديوي إسماعيل كان في زيارة رسمية لباريس يرافقه الدُ، فدعا هذا الأمير إلى حفل تدشين القناة، وأرفق الإمبراطور الدعوة بدعوة خاصة منه.

١٨٦٧ ـ ثورة يوسف بيك كرم

عندما استتبّ الأمن في جبل لبنان، سمحت السلطات العثمانية ليوسف بيك كرم بالعودة إلى لبنان سنة ١٨٦٦. فور وصوله، اعتصم في كسروان وتمرّد فيها. وجـّه نداءً إلى كافة قبائل لبنان للاتحاد ومعارضة المتصرفية بقيادته. نصح القنصل البريطاني مناصب الدروز بعدم الاستجابة. وفي مطلع عام ١٨٦٧، عسكر في غوسطا وأرسل إلى البطرك يهدّد بالزحف على بيت الدين لإسقاط حكومة المتصرفية في عقر دارها. جاءته وفود من قرى عديدة تعلن التطوّع للقتال إلى جانبه ضد الأتراك، ومن بينها وفد من مئة مسلّح على رأسهم طانيوس بيك شاهين وقد صار يلقّب هو أيضاً «بيك». تناسى قائد العامية حريق بيته وإهانة الزعيم الشمالي له وعرض تموين الحملة، فاعتذر كرم طالباً منه أن يحتفظ بما عُرض لتموين رجاله لأنه يملك من التموين ما يمكّنه من الصمود في الحرب خلال سبع سنين.

خسر كرم الحرب في سبعة أيام. جيّش داوود باشا ضده عشرة آلاف عسكري بقيادة اللواءين أمين باشا وحسين باشا، فالتجأ يوسف بيك إلى إهدن واعتصم فيها. وكان رجاله يحوربون «يا بيكنا يوسف كرم/ والحرب لغيرك حرام». ومساعده بطرس توما يحْدو مفاخراً «بطل لبنان ما طلّ يوماً/ إلا وحاطته رجاجيل/ بسيوف تفري المنايا/ وتذكّر جيلاً بعد جيل». وكانت الفتيات والنساء يتقدمن جيشه يحملن البيارق وينقلن الذخائر ويعتنين بالجرحى ويشجعن الرجال على الحرب بالأناشيد الحماسية.

ومع ذلك، عاش البيك عزيباً عفيفاً لم ينظر في وجه امرأة في حياته «نظرة يؤاخذ عليها».

والحرب سجال. حسين باشا قائد الحملة قوّال، فأنشد خصمه متحدّياً:

جيتك طالب أخذ الثار
في هذا السيف البتّار

يوسف كرم واين تروح؟
كل العالم ضدّك صار

فردّ عليه يوسف بيك بالتي هي أحسن:

تحقيق العالم ضدّي
وانا بالحَقّ مْهَدّي

وما زال الحق بيَدّي
بحارب لطُول الأدهار

وصدّ العسكر الشمالي الهجوم التركي، فتشجّع يوسف بيك كرم وعاد إلى سابق سيرته في احتلال مقر المتصرفية في بيت الدين.

خطر لداوود باشا أن يستخدم الدروز لمحاربة عسكر كرم الموارنة. جمع لهذا الغرض قوة بقيادة سعيد تلحوق، لكنه عَدَل عن الفكرة في اللحظة الأخيرة. التقى العسكر التركي القوات الإهدنية في أبو الميزان قرب بكفيا وأحكم عليه

الطوق. ولما صار كرم على شفير الانهزام، دارت مشاورات متعددة الأطراف بين بيروت وإسطنبول وباريس. توسط قنصل فرنسا لإخراج كرم من بيروت. لما وافقت السلطات العثمانية، حملته بارجة حربية فرنسية إلى مارسيليا.

١٧ تشرين الثاني ١٨٦٧ ـ مَرَج البحرَين

بدأ الاحتفال الباذخ بإطلاق الألعاب النارية في بور سعيد وبحفلة راقصة حضرها ستة آلاف مدعوّ. ضم هؤلاء رؤساء دول، بمن فيهم الإمبراطورة أوجيني، إمبراطورة الفرنساويين، وإمبراطور النمسا، وليّ العهد البريطاني، وأمير بروسية وأمير هولندا. وتخلّف البونا بارت بداعي المرض.

دخل رتلان من السفن الترعة من مدخليها الجنوبي والشمالي والتقيا في الإسماعيلية.

البواخر الأولى التي عبرت القناة يتقدمها يخت الإمبراطورة أوجيني «النسر» وعبد القادر في مقدّم المدعوين يحتلّ مكانه إلى جانب الإمبراطورة.

استمرت الاحتفالات لأسابيع تضمنت افتتاح الخديوي دار الأوبرا المصرية في القاهرة. وفي حفل الافتتاح، ظهر عبد القادر «جميلاً وحزيناً» يحيط به جنرالات فرنسا الذين هزموه في الجزائر وقد ترقّوا إلى ماريشالات. وصفه شارل رو قائلاً «وسط بريق البزات الرسمية برز وجه عبد القادر حازماً، صارم القسمات، يلتف ببرنس أبيض، ليس عليه من زينة إلا قلادة

جوقة الشرف الفرنسية تلتمع على صدره وتعبّر عن الفكرة الجميلة والشهمة التي ينطوي عليها حضور هذا البطل المقهور حفلاً يتجسد فيه اتحاد الشرق والغرب». وكان بين الحضور وفد ماصوني كبير يمثّل المحافل المحلية «اتحاد البحرين» و«برزخ السويس» و«حب الحقيقة». حضر جميع المعنيين بالشق عدا الصبياني. وظل الخديوي متجهّم الوجه في وجه الأمير بسبب الخلاف حول أراضي بير البلح.

وللمناسبة، جرى مَرجٌ من نوع آخر هو زواج دُ لسبس في كنيسة الإسكندرية من لويز هيلين أوتار دُ براغار. وكانت العروس في الواحدة والعشرين من عمرها والعريس في الرابعة والستين.

كرم وعبد القادر

تجاور الأمير عبد القادر الجزائري ويوسف بيك كرم البشراني ولم يلتقيا شخصياً. لكن من كان يتصّور أن صاحب مشروع الإمارة المسيحية في جبل لبنان سوف تجمع بينه وبين المدعو لرئاسة المملكة العربية كل هذه الجوامع؟

الأمير عبد القادر نفاه الفرنسيون من الجزائر إلى سورية بعد فشل حركته الاستقلالية في الجزائر. ويوسف بيك نفاه العثمانيون من سورية إلى الجزائر بعد فشل حركته الاستقلالية في جبل لبنان، فصار كلاهما استقلالياً في الاحتياط عند الفرنساويين. الأول احتياطي للمملكة العربية المستقلة عن السلطنة العثمانية. والثاني احتياطي لجبل لبنان المستقل عن

السلطنة العثمانية أيضاً. وكلاهما ضحّى به الفرنساويون لمصالحهم الإقليمية.

تعويضاً، وهب العثمانيون الأمير أراضي شاسعة في بشليك دمشق أخذ يستجلب إليها فلاحين جزائريين. وتعويضاً، وَهَب الفرنسيس كرم أراضي في قسنطينة الجزائر، فطلب الشيخ مرعي الدحداح من البيك مساعدته لاستقدام فلاحين مسيحيين إلى الجزائر.

اهتم الأمير والبيك كل بتنمية منطقته. وحُلم البيك نسخة مصغّرة عن حلم الأمير: نقْل حضارة الغرب الميكانيكية إلى الشرق وتطعيم الغرب بروحانية الشرق. قدّم البيك مشاريع عديدة لتصنيع لبنان والمنطقة بواسطة أصدقاء له بين رجال الأعمال الفرنسيين، وشجّع على استثمار مناجم الفحم في جبل لبنان، وعلى تأسيس الشركات الوطنية لذلك، وقدّم أراضيه في لبنان ضمانة لتشجيع رؤوس الأموال الأوروبية لتنفيد المشاريع. والأمير توّج أحلامه بشق قناة السويس.

لم يلتق الرجلان في الأوطان ولا في المنافي التقيا. لكن تبادلا مراسلة متواصلة أدّى فيها المطران الماروني يوسف الدبس دور الوسيط. كتب كرم لعبد القادر خيبة أمله بعد محاولات متكررة لإقناع رجالات السلطنة العثمانية بتقديم ضمانات وتأمينات للمسيحيين تشجعهم على الاستغناء عن الحماية الأجنبية: «أفرغت الجهد بالتوسل إلى ذوات الحكومة إفراداً وإجمالاً لكي يؤسسوا سياستهم على الشرع الشريف أو على أية شريعة

كانت، شرط أن تكون كافية لتأمين العباد ضد التعدي والاستعباد، متعهداً بأنني سأتمكن بعونه تعالى من إقناع سائر طوائف المشرق المسيحية بأن تقدم إعراضاً (اعتراضاً) لسائر حكومات أوروبا تؤكد لها فيه بأنها مستأمنة تحت ظل شريعة السلطنة ولا تريد احتمال ذلّ الالتجاء إلى حكومة أجنبية تحميها من شريعة وطنها. بأسف جسيم أؤكد لفخامتكم أن حرفة الباب العالي، بدلاً من أن تبادر إلى أخذ أقوالي بعين الاعتبار وتضع حداً للأسباب والحجج التي تستخدمها ضدها دول أوروبا، قد أهملتها. . .».

ولما انطلقت من دمشق حركة استقلالية عربية بايعت عبد القادر أميراً على سورية «دون قطع وشائج الاتصال الروحي» بين البلاد الشامية والسلطنة العثمانية، كتب صاحب مشروع الإمارة المارونية في جبل لبنان للأمير العربي المسلم يحثّه على قبول المهمة التاريخية: «لا نجاة ولا نجاح للأقطار العربية جمعاء إلا بالاتحاد تحت رايتكم الشريفة فيتوجب إذاً على شهامة وحكمة فخامتكم أن تتبصروا بما يوافق مجد الخالق. . . وأن تنتزعوا من الحكومة العثمانية الأقطارَ العربية التي تتوق بالطبع لإحياء سطوة وحقوق الجنس والوطن، هذا حتى لا تشاهدوا سقوط جميعنا بوهدة أو حادة عن طريق الدين والدنيا معاً». وفي رسالة تالية، أقرن البيك الدعوة باقتراحات لتعيين أمراء مستقلين تحت إمرته على الأقاليم العربية «على طريقة الكونفدراسيون الألمانية». اعتذر الأمير عن عدم قبول البيعة وشكر الوفود التي زارته من كل نواحي بلاد الشام والرافدين.

لم يُعثر بعد على رسائل عبد القادر إلى كرم. غير أن دعوة البيك البشراني الوحدوية جاءت جواباً على اكتشافه أنّ بريطانيا وفرنسا عاقدتا العزم على تجزئة المنطقة والسيطرة عليها. «بينما حكومة روسيا منهمكة بالحرب الحاضرة [القرم]، فإنّ حكومتَي فرنسا وإنكلترا، لاعتقادهما بسقوط الحكومة العثمانية القريب، قد هيأتا الوسائل الآيلة إلى تجزئة الديار العربية إلى أقاليم تلجأ إلى حمايتها وحمل هذه الأقاليم على رفض حماية الحكومة الروسية، خوفاً من أن يجمع الجنس العربي صفوفه ويصبح حكومة واحدة، والسبب في ذلك أن حكومتي فرنسا وإنكلترا تخشيان من أن يمتدّ في ما بعد اتحاد الجنس العربي فينزع منهما الجزائر وبعض أقاليم الهند. لذلك هما ترغبان في استعبادنا جميعاً...».

أما رؤيته للأوضاع الداخلية في السلطنة ودور الاختلافات المذهبية فحريّ أن يعتبر وصية يوسف بيك كرم الوطنية والسياسية إلى أبناء شعبه:

«ولا يغرب عن بصيرة فخامتكم أنّ الحكومة العثمانية، بسبب خوفها من اتحاد وتحرر الجنس العربي، ما فتئت تضرم نار الفتن بين قبائله حتى أتلفت بذلك قوتها، فتغلبت عليها الدول الأجنبية معلنة أنّ القبائل التي يسفك أفرادها دماء بعضهم بعضاً بسبب الاختلافات المذهبية، تستحق أن تخضع لنير أمّة غريبة تحمي بعضها من فتك البعض الآخر، وإن قلة عدالة الحكومة العثمانية توجب سقوطها. وهكذا قد أوشكت الظروف أن تلقي

بجميعنا تحت ولاية حكومات أوروبا. ولا شك أن هذه الواقعة الواضحة كافية لإيقاظ روح القبائل من رقاد الغفلة ولحمل كل قبيلة منها على تنظيم حقوقها الذاتية بالاتفاق مع حقوق القبائل الباقية ولاسيما مع القبائل الإسلامية التي يفوق عددها عدد باقي الطوائف العربية، إذ لا يمكن بشرياً أن تتوطد هذه الحقوق إلا بواسطة الاتحاد العام وإنهاض شرف الجنس العربي».

خواتم

١٨٥٩ ـ ريفون

توفي طانيوس شاهين عن ثمانين عاماً. لفترة بعد انهيار العامية، ظل يتوسّط بين الفلاحين والمشايخ لإعادة ممتلكات الأخيرين وحصصهم من المحاصيل. وصار المشايخ يخاطبونه بـ«أخينا الشيخ». ثم انقطعت أخباره. ولما باشر المعلّم بطرس البستاني رحلته في الربوع اللبنانية، عام ١٨٧١، نوى أن يزور طانيوس شاهين «الذي اكتسب شهرته منذ سنين كثيرة على مصروف عائلة بيت الخازن المعتبَرَة»، كما كتب في مذكراته. لكن البستاني أحجم عن زيارة ريفون لأسباب لا تزال مجهولة.

كاد أن يطوي شاهين النسيان لولا أنّ أحد أحفاد أحمد فارس الشدياق، المؤرخ يوسف إبراهيم يزبك، نشر مخطوطة الحتوني عن قومة كسروان. ولم تقف العلاقة بين شاهين والشدياق عند هذا الحدّ. عندما نشرت جريدة «النهار» خبراً

عن صدور كتاب «أحمد فارس الشدياق» لعماد الصلح وضعت صورة طانيوس شاهين محل صورة الشدياق فوق الخبر. صحّحت الجريدة خطأها في عددها الصادر يوم ٢٦ تموز ١٩٧٨ فنشرت صورة الشدياق. وكانت الصورة الوحيدة المعروفة لشاهين موجودة في صالة الاستقبال بدارة كمال جنبلاط ببيروت، تشاهِد فيها قائد العامية بعينيه الوسيعتين وشاربه المسّنن عند طرفيه وحاجبيه الكثيفين، يعتمر لبّادة صوف ملفوفاً عليها منديل يَزْما تقليداً لعُقال البدوي.

باريس، فرنسا ـ ١٨٦٤

عاد الصبياني إلى باريس لتسلّم إدارة شركة سكة حديد باريس ـ ليون ـ مارسيليا (پ.ل.م.). هناك تفتّق ذهنه عن فكرة جهنمية هي فكرة تأسيس «بنك التسليف الذهني». دعا المصارف إلى إقراض المبدعين المال لقاء ذكائهم، مثلما يجري إقراض مُلاّك الأراضي لقاء عقاراتهم أو التجار لقاء مخزونهم من السلع. ولما لم تكن الضمانات التي يستطيع أصحاب الذكاء تقديمها لتسديد ديونهم مادية، بل ذهنية، رأى أصحاب المصارف أن التسليف ينطوي لذلك على مخاطرة كبيرة في ما يتعلق بسداد الدين، فقرروا فرض فوائد مرتفعة جداً. فتسبب ارتفاع الفوائد في صرف النظر عن المشروع.

بعد فشله في إقناع المصرفيين بمشروعه الجديد، خصص «السيّد» السنوات الأخيرة من عمره لإعداد مؤلفات السمعاني

الكاملة للنشر مضيفاً إليها مؤلفاته هو نفسه وأبرزها كتاباه «في الأخلاق» و«عن الحياة الأبدية». وصدرت في ٤٧ مجلداً.

وكانت آخر مغامرات الصبياني اتخاذه عشيقة جديدة هي أوجيني فروغلييه، وهي مطلقة ولها ولدان شابان، وتصغره بثلاثين سنة. فجأة ظهرت على أوجيني عوارض الجنون فأعلنت للملأ أنها ابنة الصبياني. ما مدى صحة تقولات العشيقة المخبّلة؟ ومن تكون أمّها؟ وكيف معرفة ذلك والنساء السمعانيات يتستّرن على أسماء آباء أولادهن؟ وهل دفع المجون والإباحية بالسيّد إلى حد ممارسة نكاح المحارم مع مولودة من صلبه؟ أخذ السيّد أسراره معه إلى الآخرة. غاب عن الوعي يوم ٣١ آب ١٨٦٤ وتوفي في السادسة فجراً بين ذراعي عشيقته التي ربما كانت الابنة الخارجة من صلبه. ودفن في مدفن «پيار لاشيز» في باريس قرب قبر معلّمه السمعاني.

باريس، فرنسا ـ ١٨٦٩

اعتزل شاعر البحيرة السياسة بعد انقلاب البونا بارت. انكفأ في قريته وانقطع عملياً عن العالم وتفرّغ لحياته الخاصة وللكتابة. أصدر مؤلفه «تاريخ ثورة ١٨٤٨» وكرّس بقية أيامه لتحقيق أفكار غالية على قلبه: الدعوة إلى استيلاء فرنسا على سورية، والتصدي للمصالح البريطانية في الشرق، ودعم «الأمّة المارونية» مع أن رأيه في لبنان أنه «أمة مستحيلة». توفي يوم ١٤ تموز ١٨٦٩.

سِيْدان، فرنسا ـ ١٩ تموز ١٨٧٠

شنّ الإمبراطور بونا بارت الثالث الحرب على بروسية فهُزم في معركة «سيدان» واعتقل في ٢ أيلول ١٨٧٠، وبعد يومين سقطت الإمبراطورية البونابارتية الثانية ونفي البونا المهزوم إلى لندن حيث أمضى بقية حياته. وفي حفل توديعه عزفت له الجوقة العسكرية نشيده المفضّل «في الطريق إلى سورية».

١٨٨١ ـ مصر

غرق الخديوي إسماعيل في الديون بعدما أنفق القسم الأكبر من أمواله على شكل خوّات دفعها لخزينة السلطنة العثمانية أو على تمويل مشاريع تحديث مصر وتزويدها ببنية تحتية. اقترض مبالغ طائلة من البنوك الأوروبية حتى وصل دين مصر عام ١٨٧٠ إلى مئة مليون جنيه استرليني. عام ١٨٧٥ أعلن المصرفيون الأوروبيون إفلاس مصر. باع إسماعيل أسهم قنال السويس التي تملكها مصر لسداد الديون، فاشترى معظمها رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي بقرض مالي من آل روثتشايلد. هكذا صارت بريطانيا أكبر مساهم في القناة تملك ٤٤ في المئة من الأسهم. زفّ دزرائيلي النبأ إلى الملكة فكتوريا قائلاً: «ها هي القناة صارت ملككِ، سيدتي!». لم يبقَ لخزينة مصر من القنال إلا حق الخديوي في ١٥٪ من أرباح الشركة تدرّ عليه لا أكثر من مليون فرنك فرنساوي سنوياً. وما لبث فرنسا أن اشترت هذا الحق من خليفته الخديوي توفيق. هكذا خسرت مصر كل حصتها في القناة.

عام ١٨٨٠ ثار عرابي على الخديوي توفيق واتهمه بأنه عميل «الرقابة الثنائية» الفرنسية ـ الإنكليزية على مصر وأعلن: «لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً، فوالله الذي لا إله إلا هو، لا نوَرّث، ولا نستعبَد بعد الآن». أنجدت بريطانيا الخديوي عسكرياً. وانحاز الفارياق للخديويين ونشر في «الجوائب» بيان الخديوي ضد ما سمّي «هوجة عرابي». فغضب السلطان من نشر البيان وأمر بإقفال الصحيفة.

هزم الإنكليز قوات عرابي في موقعة التل الكبير واحتلّت بريطانيا منطقة قنال السويس وأعلنت الانتداب على مصر.

دمشق، سورية ـ ٢٤ أيار ١٨٨٣

توفي الأمير عبد القادر في دمّر قرب دمشق.

فيما عامية باريس مشتعلة، قامت ثورة في الجزائر بقيادة الأمير محيي الدين بن عبد القادر. أمر الأمير ابنه بوقف حركته والعودة إلى دمشق. حزن الأمير لهزيمة فرنسا أمام بروسية. وكتب للإمبراطورة أوجيني يقول «وحدها الشمس تنكسف». حاول بسمارك استمالته بوعد إعادته إلى الجزائر. رد عليه قائلاً: «أنت لم تساعدني عندما كنت أقاتل في بلادي».

ظل طوال حياته وفياً لالتزاماته في حركة البنّائين الأحرار. وجّه ابنيه للانضمام إلى محفل فلسطين في بيروت ومحفل النور في دمشق. ويروي أنه انتسب هو نفسه إلى المحفل المصري. ومعروف أنه انضمّ إلى محفل هنري الرابع في باريس على يد

الماريشال مانيال، المعلّم الأكبر للمحفل الذي عيّنه نابليون الثالث لذلك المنصب. وكان حلمه الدائم تلقيح الغرب بروحانية الشرق بقدر ما أراد تلقيح الشرق بمنجزات العلوم وبالحضارة التقنية الغربية. وفي النص الذي كتبه يشرح سبب انضمامه للماصونية قال إن المبادئ الأخلاقية التي تلقّاها في البيت الأبوي لم تستجب تماماً لتطلعاته فظلّ يبحث عن «الأخلاق الحقيقية والموثوقة» و«كان الظلام يخيّم باستمرار حول تحرياتي»، فجأة التمعت شرارة فإذا هي الماصونية المسماة بحق «سبيل الإنسانية».

في عزلته الدمشقية، كتب الأمير آلاف الرسائل، وأشرف على تحقيق «الفتوحات المكية» للشيخ محيي الدين ابن عربي. ودُفِن حسب وصيته في الصالحية في مقام الشيخ ابن العربي. ترك الأمير ١٦ ابناً وسبع زوجات، أربع منهن شرعيات. وبعد وفاته تبيّن أنه طوال إقامته الدمشقية، كان الفرنساويون يتجسسون عليه بواسطة جورج بلار، المترجم في الجيش الفرنسي المفصول لخدمة الأمير، وكان بلار يحصي على الأمير حركاته ولقاءاته ويطّلع على مراسلاته ويرفع تقاريره مباشرة إلى وزير الخارجية.

أعيد جثمان الأمير عبد القادر إلى الجزائر بعد الاستقلال. لم يوارَ في ثرى مسقط رأسه قيطنة في زاوية الحمل الصوفية التي يقال عن أحصنتها إنها مثل النيازك. دفن في العاصمة إلى جوار الرئيس هواري بو مدين.

نيسان ١٨٨٤ ـ راتزينا، إيطاليا

بعد مغادرته الجزائر، مكث يوسف بيك كرم في فرنسا والنمسا وإيطاليا وكورفو والآستانة حيث ضاعف الجهود والمداخلات للسماح له بالعودة إلى لبنان. في أوروبا، قدّم مشاريع عديدة لتصنيع المنطقة وجبل لبنان بواسطة أحد أصدقائه من رجال الأعمال، وشجّع على استثمار مناجم الفحم، وتأسيس الشركات الوطنية لذلك، وقدّم أراضيه في لبنان ضمانة لتنفيد المشاريع. وحاول العودة مرتين سراً على رأس حملة عسكرية، إلا أنه باء بالفشل. وعند اندلاع الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠ توجّه كرم إلى قناصل بروسية ووزرائها يعرض عليهم خدماته بتشكيل جيش من عشرة آلاف من الموارنة. وفي الحرب بين روسيا والسلطنة العثمانية كتب رسائل إلى بطرسبرغ عارضاً جيشه الماروني للمساعدة، فعلّق أحد القناصل الروس على العرض بقوله «من الواضح أنّ الرد على تلك العروض لم يتجاوز ابتسامة السخرية من العقلية التي يعبّر فيها الكاتب عن نفسه».

استقر يوسف بيك كرم في راتزينا قرب نابولي في إيطاليا سنة ١٨٧٨ حيث اعتزل السياسة وتصوّف وانقطع إلى العبادة، وألّف كتاباً في سرّ روح القدس، وترجم إلى العربية سيرة القديسة كاترينا دي سيينا، ونظم الشعر تشوقاً إلى الله. والقديسة كاترينا شفيعة إيطاليا، ظهر عليها السيد المسيح وهي في السادسة. هزأ منها إخوتها ولم يصدقوها. ولما شبّت

وصارت صبية جميلة، أخذ سادة المدينة يتحرشون بها ويسعون لمدّ أيديهم تحت أثوابها وهي تصدّهم جميعاً. تعبّدت كاترينا ولم تسلم أمرها لأحد غير السيّد المسيح. ومن علامات قداستها أنها كانت تصاب بتشنجات فينفرج فمها وتفترّ عيناها وتنقلبان وتتراءى لها رؤى كلها مصبوغة بالدم. وكانت تجلد نفسها بالسياط ثلاث مرات يومياً عقاباً على أحلامها، وترتدي على الدوام حزاماً من المسامير ولا تنام إلا ساعة واحدة في اليوم، فيظهر عليها السيد المسيح ليعلن لها أنها سوف تزفّ إليه. . وهي تسعى إلى السيطرة على طبيعتها السافلة حتى لا يمتلكها إلا الرب ذاته. لاستقباله، تهجع كاترينا على سرير من نار ودم. هاجسها الدم تستطعمه، تكتب بدمها وتمتلكها شهوة أنها تسبح في دم المسيح المصلوب. تسكر من الدم. والدم هو عندها الحب الصافي.

أصيب البيك بنزلة صدرية في السابع من نيسان ١٨٨٤، وعندما دنا أجله امتنع عن الأكل والشرب وأخذ يهجس بأن العذراء قادمة لأخذه إليها متمنياً أن تحمله سيدة اللوريت هو ومنزله في المنفى وتطير بهما إلى أهدن مثلما فعلت بالمنزل المقدسي الذي طارت به إلى إيطاليا.

ـ سيدة اللوريت قادمة لتأخذني. ها هي قد وصلت. أنا ذاهب برفقتها.

هكذا حشرج قبل أن يسلم الروح. ومات كما عاش عزيباً وبكراً عفيفاً، لم ينظر إلى وجه امرأة في حياته «نظرة يؤاخَذ عليها».

١٨٨٦ ـ نيويورك

لم يحقق السمعانيون مشروعهم لإقامة تمثال للمرأة في مصر، لكن الفكرة ظلّت تلهم النحاتين. زار الفنان الفرنسي فريدريك أوغست برتولدي مصر عام ١٨٥٥ وحلم بنحت تمثال عظيم الحجم على طراز التماثيل الفرعونية يمثّل فلّاحة مصرية تحمل مشعلاً وينبعث شعاع نور من جبينها. وضع تصميماً مصغّراً عنونه «الحرية تنير الدنيا» ثم أعطاه عنواناً آخر هو «التقدّم» وتصوّر برتولدي التمثالَ منصوباً على شاطئ القناة في السويس. لم يكن في ميزانية الخديوي ما يسمح بتمويل النصب الطموح، فتخلى عن المشروع واكتفى بنصب مسلّتين من خشب ومنارة كهربائية.

حوّل برتولدي تمثاله إلى تمثال للحرية. لم يجد من يشتريه أول الأمر إلى أن قررت الحكومة الفرنسية شراءه عام ١٨٨٦ وأهدته إلى الحكومة الأميركية بمناسبة مئوية الاتحاد الأميركي. بصفته رئيس «الاتحاد الفرانكو ـ أميركي»، تولى فردينان دُ لسبس إهداء التمثال للولايات المتحدة «عربوناً للصداقة بين فرنسا وجمهورية الولايات المتحدة العظيمة». والآن تلقى تمثال الفلاحة المصرية منتصباً على جزيرة «لونغ آيلاند» عند مدخل مرفأ نيويورك، رافعة يدها بالشعلة والنور يشعّ من جبينها، تستقبل المهاجرين إلى «العالم الجديد» وقد تزيّت بزيّ إغريقي وباتت تعرف بـ«تمثال الحرية».

١٨٨٧ ـ بيروت

في العشرين من أيلول، توفي الفارياق في منزله في قاضي كوي. ومن مرويات سنواته الأخيرة أن ابن خالته البطرك بولس مسعد طلب مساعدته لترتيب زيارة إلى الباب العالي ومسعد حينها على خلاف مع داوود باشا الذي أصرّ على أن يأتي إليه البطرك لتكريسه، والحبر يرفض. سعى الفارياق لدى الباب العالي. استقبل السلطان البطرك الماروني وأكرم وفادته وقدّم له مسعد الطاعة. وقبل أسابيع من وفاته، زار الفارياق القاهرة حيث استقبل بحفاوة بالغة. وصف جورجي زيدان صاحب «الهلال» الزائر قائلاً إنه برغم شيخوخته «لم يفقد شيئاً من الانتباه أو الذكاء، وكان إلى آخر أيامه حلو الحديث طلي العبارة رقيق الجانب مع مَيل إلى المجون».

حُفِظ جثمان الفارياق في تابوت من رصاص مغلّف بآخر من خشب الجوز الثمين ونقل إلى قصر ولده سليم في الآستانة. وبعد أيام نقل بطريق البحر إلى بيروت. وصل الرفات يوم ٥ تشرين الأول من ١٨٨٧. روى المحامي السوري الشاب فارس الخوري أن التوتر ساد المدينة عند وصول الجثمان، إذ اختلف علماء الدين المسلمون ورجال الدين المسيحيون إلى أيّ منهما ينتمي الجثمان، فقضت تسوية بأن يصلّى على الجثمان في الجامع العمري الكبير بحضور كهنة مسيحيين، وقد أمّ الصلاة عن نفسه مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري. ودفِن الفارياق في الحازمية على الحدود بين

شطري الجبل المسيحي والدرزي، في مدفن مخصص لمتصرفي جبل لبنان العثمانيين المسيحيين.

١٨ نيسان ١٨٩٠ ـ الديمان، شمال لبنان

فارق البطرك بولس مسعد الحياة وخلفه المطران الحاج. فضّل الفرنساويون المطران الياس الحويّك أو المطران يوحنا حبيب، لكن الأخير رفض تولّي المنصب.

١٨٩٠ ـ جبل لبنان

أعلنت عاملات الحرير في كارخانات جبل لبنان موجة من الإضرابات احتجاجاً على رداءة أوضاع العمل وطلباً لزيادة الأجور. الخبير الاقتصادي الفرنساوي الذي كان يعدّ دراسته عن اقتصاد الحرير في جبل لبنان عزا الإضرابات إلى سببين. الأول هو عودة مهاجرين من أميركا ممن عمل في مصانع غالباً ما تحلّ القضايا العمالية فيها بالإضراب. وعزا السبب الثاني إلى ما سمّاه التحريض الذي تمارسه «متشرّدات أوروبيات يتجولن في سورية ويبشّرن بأفكار هدّامة». كل التحيات للويز برونيت.

١٨٩٤ ـ فرنسا ـ يوم ٧ كانون الأول

توفي فردينان دُ لسبس في مزرعته الريفية. أنجب اثني عشر ولداً من زواجه الثاني، ستة صبيان وست بنات. أخفق مشروع له لشق قناة باناما. وأفلست الشركة التي أسسها وابنه والمهندس غوستاإيفل، مصمم البرج المعدني الشهير. أودع دُ

لسبس الابن وإيفل وعدد من مديري الشركة الحبس بتهمة الاحتيال. اما فردينان فأعفي بسبب كبر سنه (٨٧ سنة) ومرضه.

١٩١٦ ـ جبل لبنان

ضربت المجاعة جبل لبنان، وأقفل البحر بسبب الحرب، وضعف إنتاج الحرير، فأقفلت العديد من الكارخانات وصرفت العاملات من العمل. ولما ضربت المجاعة المنطقة، تحوّلت الكارخانات إلى ملاجئ للعاملات العاطلات من العمل يمارسن البغاء للقيام بأود أسَرهنّ. وصارت الكرخانة عند العامة اسماً للمبغى العمومي. ومع ذلك، ظلّ الناس يظنّون أن للحرير علاقة مميزة بالحب والثروة وظلوا يغنّون: «إن كان بدّك تعشق/ تاجر بالحرير/ والغرام يا عيني/ بدّو فلوس كتير».

١٩١٦

نجحت فرنسا أخيراً في إقناع بريطانيا بتقاسم الولايات العربية التابعة للسلطنة العثمانية بموجب معاهدة سرية وقّعها دبلوماسيان فرنسي وبريطاني. لكن فرنسا اضطرّت إلى التخلّي عن فلسطين (سورية الجنوبية) لبريطانيا التي أصرّت على ضمّ فلسطين إلى مناطق سيطرتها لحماية الضفة الغربية لقناة السويس.

١٩١٩ ـ ليون

عشيّة مغادرة الجنرال غورو إلى الشرق، أقامت غرفة تجارة ليون حفل استقبال على شرفه في ١١ تشرين الثاني ١٩١٩.

عمّد رجال الأعمال سوريةَ «مستعمرة ليونية» وعرضوا على غورو مطالبهم: تثبيت النقد، منع قطع أشجار التوت والتحريج لتزويد الكارخانات بالحطب، التعويض على خسائر فرنساويي الشرق بسبب الحرب، إلزام السوريين باستيراد السلع الفرنسية. ثم وقف الصناعي غينو وقال «السوريون يملكون الذهب، والذهب يتدفق عندهم. خلال الحرب، أثرى الأهلون، بالطرق الشرعية وغير الشرعية، إنّ سورية بلد غنيّ جداً، ويهمّ، نظراً لماضي العلاقة بيننا، أن نثمّر هذا الغنى لصالح فرنسا». فرفع الجنرال غورو كأسه وأعلن: «أيّها السادة، الصفقة سوف تكون مُربحة».

وعندما تحّركت القوّات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو لاحتلال دمشق، انطلقت من بيروت واستخدمت الخريطة التي وضعها قسم الهندسة في قوات الردع الفرنسية عام ١٨٦٠.

١٩٥٦ ـ مدينة السويس

عادت قناة السويس إلى مصر عندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تمصير الشركة يوم ٢٦ تموز/يوليو من عام ١٩٥٦. وكانت إشارة البدء بتنفيذ خطة احتلال قوات مصرية لمباني الشركة تلفّظ الرئيس العربي باسم «فردينان دُ لسبس» خلال خطابه. ردّت فرنسا وإنكلترا وإسرائيل على تأميم القنال بالعدوان الثلاثي على مصر. فشل العدوان في إعادة احتلال القناة وإلغاء تأميم الشركة وإسقاط عبد الناصر.

٢٣ حزيران ٢٠٠٤ ـ جُون

تجمّع موكب فوق بقايا «قصر الستّ» ضمّ السفير البريطاني والشريف وليم ستانهوب الذي تولّى نثر رماد قريبته المحمول في إناء ملوّن فوق حديقة «القصر». عجب كثيرون للحكمة من «دفن» الست مرة ثانية. وسَرّت شائعات بأن ثمّة مَن عرض شراء الأرض وخربة «القصر»، ما استدعى نقل الرفات. نفت مصادر دير المخلّص أن تكون أرض «قصر الستّ» معروضة للبيع مؤكدة أنّها وقفٌ للدير. ثمّ إن «الست» لم تكن موجودة أصلاً في ضريحها. تضرر الضريح كثيراً خلال حرب ١٩٧٥ فنبش بعض الأهالي عظامها ونقلوها إلى السفارة البريطانية. فأعاد السفير دفن الرفات في مقرّه الصيفي في بلدة عبيه. ولما باعت السفارة المنزل في عبيه، جرى التشاور مع العائلة في إنكلترا في المكان الذي يليق بأن تستقر رفات «الست» نهائياً فيه. فأوصت العائلة بحرق الرفات ونثر الرماد فوق خربة «القصر» في جون.

إلى حين دفع هذه المدوّنات للطبع، لم تظهر **المسيح الأنثى**. ولم يبلّغ أحدٌ أنّ **السيّد المسيح** عاد في ظهوره الثاني على الأرض ولا **صاحب الزمان، المهدي**، فرّج أسره، فعاد ليرافق المسيح في طريق العودة المشتركة الى هذه الفانية، على ما تقول الرواية.

مؤلفاته

(مع آخرين) **لبنان الاشتراكي، العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩.

قضية لبنان الوطنية والديموقراطية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.

عن أمل لا شفاء منه، دفاتر حصار بيروت، حزيران ـ تشرين الثاني ١٩٨٢، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٤.

الماركسية وبعض قضايانا العربية، بيروت، منشورات بيروت المساء، ١٩٨٥.

غيرنيكا ـ بيروت. الفن والحياة بين جدارية لبيكاسو وعاصمة عربية في الحرب، بيروت ـ نيقوسيا، كتاب الكرمل ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧.

(مع عزيز العظمة) **الأعمال المجهولة لأحمد فارس الشدياق**، بيروت ـ لندن، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٥.

صورة الفتى بالأحمر ـ يوميات في السلم والحرب، بيروت، لندن، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٧.

صلات بلا وصل، ميشال شيحا والإيديولوجيا اللبنانية، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٩.

وعود عدن ـ رحلات يمنية، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.

عكس السير ـ كتابات مختلفة، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٢.

ظفار ـ شهادة من زمن الثورة، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.

إن كان بدك تعشق، دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٤.

يا قمر مشغرة، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.

فيروز والرحابنة، مسرح الغريب والكنز والأعجوبة، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٦.

عَنْ أَمَل لا شفاءَ منه، يوميات حِصَارْ بيروت صيف ١٩٨٢، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.

تاريخ لبنان الحديث، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الثالثة ٢٠١١.

الديمقراطية ثورة، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠١٢.

تحرير وإشراف:

موسوعة تاريخ الأسر الشرقية لعيسى اسكندر المعلوف، لبنان ـ ٧ أجزاء، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٨.

ترجمات:

جون ريد، **عشرة أيام هزت العالم**، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى ١٩٦٦، الطبعة الثانية ١٩٦٦، الطبعة الرابعة ١٩٧٩.

شارل بتلهايم وآخرون، **بناء الاشتراكية في الصين**، بيروت دار الطليعة، ١٩٦٧.

لينين، ستالين، تروتسكي، بريو براجنسكي، غيفارا، مانديل وآخرون، **مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية**، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الثانية ١٩٧١.

إسحق دويتشر، **ستالين**، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى ١٩٦٩، الطبعة الثانية ١٩٧٢.

أنطونيو غرامشي، **قضايا المادية التاريخية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧١.

(مع منير شفيق) أرنستو تشي غيفارا، **يوميات غيفارا في بوليفيا**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢.

لينين، **تطوّر الرأسمالية في روسيا**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩.

جون برجر، **وجهات في النظر (نقد أدبي وفني)**، دمشق، مركز

الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٠.

يانيس ريتسوس، **إغريقيات (شعر)**، دمشق، دار المدى، ١٩٩٦.

إدوار سعيد، **خارج المكان**، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٠.

إدوار سعيد، **الأنسنة والنقد الديموقراطي**، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٥.

فهرس الأعلام

أ

خ

د

ر

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس الأماكن

ت

ج

تتنقّل شخصيات هذه الحوليات عبر البحر الابيض المتوسط، شرقه وغربه، خلال القرن التاسع عشر.

يبدأ التدوين مع، اطلالة موسم الحرير في جبل لبنان ويختتم مع افتتاح قناة السويس في مصر. مثل خيوط حرير فوق نول تروح وتجيء احداث تلك الفترة. فتتسلك باللحمة والسدى مصائر أفراد وجماعات وبلدان وأمصار وأقوام وشعوب. تتداخل ألوان وأصباغ وتفترق ألوان وأصباغ. وتتصالب خيوط وترتخي خيوط. وتنقطع خيوط لتتوصل خيوط. وتنعقد قُطب ظاهرة للعيان لتختفي قُطب عن العيان. تعمل عليها جميعاً أنامل نسّاج لا يرحم، يسمّيه البعض «القدر» والبعض الآخر «الاستعمار» ويكتفي ثالث بأن يقول عنه إنه «التاريخ».




ISBN 978-9953-21-551-8
9 789953 215518